د.نرمين نحمد الله

رواية

أشجار لا تظلل العاشقين

دار دَوِّن

ساحر الكتب

د. نرمين نحمد اللَّه: أشجار لا تظلل العاشقين، رواية
الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٤
رقم الإيداع: ٢٠٢٣\٢٧٧٧٢ - الترقيم الدولي: ٧-٣٩٦-٨٠٦-٩٧٧-٩٧٨

جَميعُ حُقوقِ الطَبْعِ والنَّشرِ محْفُوظةٌ للناشرْ
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعةَ أي جزء من هذا الكتاب بأَي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب
لا تُعبر عن رؤية الناشر بالضرورة
وإنما تعبر عن رؤية الكاتب.

© دار دَوِّنْ
عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.
القاهرة - مصر
Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

إهداء

إلى رجل يساوي كل العالم...

إلى رجل دللني كابنته...

وتعلق بي كأمه...

واحترمني كمعلمته...

وأحبني كامرأته...

إلى رجل يستحق أن يقال عنه: "رجل!".

إهداء

إلى البطلات الحقيقيات للرواية.. إلى كل زهرة تفتحت فما كادت بتلاتها تعانق شمس الهوى حتى لطمها الغصن بصفعته! أدركت باكرًا جدًّا

أن لن ينالها من الشمس سوى حُرقتها وأن أشجارها -وإن أينعت- لا تظلل العاشقين!

«البداية...
أو ما يظنونها كذلك!»

- هل أطمئن حقًّا؟! صرتِ تجيدين القيادة؟!

صوته الحبيب يصل إليها عبر الهاتف بينما تقود سيارتها نحو بيتها، فتبتسم وهي تتمسك بمقود السيارة كأنما تريد أن تطمئنه ولو بفعل بسيط كهذا لن يراه مكانه.. ابتسامتها تتشح بحزن غامض.. تتمتم:

- صرت أجيد الهروب أيضًا.

صوته -بين غضب وأسف- يفتح جرحهما الطازج فينزف من جديد:

- تلومينني أن أبعدتك؟! تعرفين ما كان سيحدث لو بقيتِ في مدينتنا.. تعرفين كم حاجزًا يفصل بيننا.

- أعرف.. أعرف...

تتمتم بها وهي تقاوم تكدُّس الدموع في عينيها، تحاول التركيز في الطريق، تغتصب ضحكة مصطنعة:

- لا ألومك ولن أفعل.. على العكس.. أنت منحتني فرصة جديدة للتنفس بعيدًا عن كل الضغوط.. ليس أنا فحسب.. بل...

تقطع عبارتها وهي تمسد بطنها البارز الواشي بحملها، لتردف بتنهيدة عالية:

- طفلنا كذلك.

يهيأ إليها أن صوته اكتسب نبرة خاصة تميز حديثه عن طفلهما بالذات:

- تعرفين كم أشتاق إلى أن أحمله بين ذراعيّ.. أمنحه اسمًا لم يحمله أحد من قبله.. آه لو يدلني أحدهم على سوق للأقدار لاشتريت له أجمل قدر ولو بعمري كله!

تدمع عيناها:

- وماذا بيدِنا أن نفعله؟!

- الكثير! اطمئني ولا تخافي.

اقتضابه المعهود يقطع حبل بوحها وإن بقيت حبال الخوف عصية.. فتكتفي بسؤال حمل نبرة رجاء:

- سأراك قريبًا؟!

- قدر ما يمكن لقلبي أن يحتمل شوقه إليكِ.

- إذن قريبًا جدًّا.. جدًّا!

تهتف بها بعمق يقينها فيه فتمنحها ضحكته جائزتها الفورية.. جائزة قصيرة العمر فقدت رونقها مع المكالمة الأخرى التي قطعت مكالمتهما وأجبرتها على النظر إلى الشاشة!

قلبها يكاد يقفز خارج صدرها بهلع وسبابتها تضغط زر الإلغاء مع رؤيتها لاسم المتصل..

الكابوس القديم الذي تود لو يمكنها التخلص منه!

- لماذا سكتِّ؟! أنتِ بخير؟!

صوته القلق يأتيها متزامنًا مع إعادة الطرف الثالث قطع مكالمتهما فترتعش سبابتها مرة أخرى وهي تستبعد المكالمة من جديد...

هل تخبره بما يجري؟! هل تخبره أن الكابوس الذي هرب منه كلاهما عاد يطاردهما؟!

- لا!

هتفت بها تنهى نفسها عن خاطرها الأخير، لكنه فهمها كجواب لسؤاله فعاد يهتف بصوت أعلى:

- ماذا يحدث؟!

تنتبه لنفسها فتأخذ نفسًا عميقًا لتكسو صوتها بنبرة مرحة خادعة بعد بضع آهات متوجعة:

- دلال طفلك المعهود.. سيكون متعبًا كأبيه.

- توقفي عن القيادة الآن واستقلي سيارة أجرة.. غدًا أدبر لك الأمر وأرسل إليك سيارة بسائق.

- غيرت رأيك بشأن السائق إذن؟! اقتنعت!

تسأل بنبرة ماكرة مدركةً غيرته التملكية بشأنها ليطلق زفرة حانقة:

- نحتمل قليلًا.. قليلًا جدًا.. وبعدها لن أتركك تغيبين عن عينَي لحظة واحدة.

- عِدني.

لم تستطع منع ارتجافة صوتها بها وهي تكررها:

- عِدني ألا نفترق أبدًا.

يمنحها وعده فتغلق الاتصال قانعةً بأن تكون هذه آخر كلماتهما الليلة، تزدرد ريقها بخوف وهي تنظر إلى شاشة هاتفها حيث يظهر سجل المكالمات الاسمين للمكالمتين الأخيرتين...

الاسمان بعضهما فوق بعض...

قريبان كما هما في الحقيقة.. أقرب ما يكون!

الشاشة تضيء بالاسم المقبض من جديد.. لا يزال يحاول الاتصال!

«أخبرتك أن ما بيننا قد انتهى.. لم يعد لك مكان في حياتي.. لا تعاود الاتصال أبدًا».

ترسلها إليه مكتوبة لعل «الكابوس» ينتهي، ثم تعاود النظر إلى الطريق الذي تشوشت مرئياته قليلًا في عينيها...

الاسمان معًا على شاشة هاتفها!

الابن وأبيه!

تبتسم بمرارة...

هل هي حقًّا بهذا القدر من سوء الحظ أن يرتبط قلبها بحكايتين، واحدة مع رجل والتالية مع ابنه؟!

ماذا قد يكون مصير علاقة كهذه؟!

تنقطع أفكارها بالصرير المزعج الذي أصدرته السيارة التي كانت تلحقها والتي صارت الآن أمامها تمامًا.. تجبرها على التوقف!

تطلق سيارتها نفس الصرير المزعج الذي يشبه صرخة الرعب في روحها وهي تميز سائق السيارة الذي غادرها ليتوجه نحوها قبل أن تنتبه لوحشة المكان المظلم الذي يكاد الآن يخلو إلا منهما!

تحاول إغلاق باب السيارة أوتوماتيكيًا كي لا يمكنه فتحه.. تحاول إعادة الاتصال بزوجها.. تحاول حتى الصراخ لكن الشلل يصيب كل أطرافها رغمًا عنها مستسلمةً لرعبها بينما تراه يفتح الباب ليجذبها من ذراعها فيخرجها من السيارة هاتفًا بعينين مشتعلتين:

- ظننتِ أنني لن أعثر عليكِ؟! ظننتِ أن ما بيننا قد ينتهي بهروبك أو برسالة سخيفة كالتي أرسلتِها منذ قليل؟! ظننتِ أنكِ قطعتِ عليّ كل السبل ونسيتِ أن رجلًا مثلي لن يقبل الخسارة وحده.. لو خسرت أنا فليخسر الكل معي!

أناملها ترتجف على هاتفها في يدها لعل فيه الخلاص لكنه ينتزعه منها، يلقيه أرضًا ليدهسه بكعب حذائه وقبضته تزداد اعتصارًا لذراعها فتنهمر دموعها المرتعبة وهي ترجوه الرحيل لكنه يجذبها نحوه هاتفًا من بين أسنانه:

- يومًا ما كنت مستعدًّا لمنحك كل شيء.. واليوم سأنتزع منك كل شيء.. وأولها هذا!

- لا.. لا...

تصرخ به بارتياع وهي تحاول منعه لكنه يخلع من إصبعها خاتم زواجها ليلقيه تحت قدميه فيسقط قلبها بين قدميها وهي تشعر أنها هي الأخرى وقعت معه!

- سأدمرك.. سأجعل كل...

يقطع عبارته وعيناه تصطدمان أخيرًا ببطنها البارز الذي فشل ثوبها الواسع في إخفائه، شهقة قصيرة اشتعل معها وجهه وقبضتاه تشتدان على ذراعيها أكثر مع صرخته التي بدت مرعوبة مثلها وأكثر.. سؤاله يبدو شديد الحمق:

- من؟!

عيناها تمنحانه الجواب الذي يذبحه فيطلق صرخة أخرى وهو يفقد السيطرة على نفسه تمامًا فلا يشعر إلا وهو يكيل لها صفعاته، تصرخ وهي تحاول الهروب من مرمى ذراعيه، بالكاد تنجح في الابتعاد خطوات قصيرة لكنه يلحق بها، يجذبها من شعرها ليخبط رأسها بقوة في مقدمة سيارتها.. لكمة خلف لكمة.. صفعة خلف صفعة.. ضرباته تطيش والغضب الحارق يغشي بصره فلا ينتبه إلا وهو يرى جسدها يتكوم تحت قدميه دون حراك!

- أنت! توقف.. اتركها...

يلتفت بمزيج من خوف وغضب للمرأة التي بدت وكأنها ظهرت من الفراغ الأسود حولهما.. وشاحها الأبيض يتطاير حولها بينما تركض نحوه صارخةً بطلب نجدة سريعة بدت وكأنها تعرف أنها قريبة فيرتجف وهو يحاول الهرب بسيارته، لكن صراخ المرأة يعلو

أكثر وهي تسمع أصواتًا تقترب.. تتفحص بسرعة هذه التي سقطت لتتسع عيناها بارتياع ثم تتوقف بجسدها أمام سيارته تمنعه التحرك صارخة:

- لن أدعك تفلت بفعلتك.. أنا رأيت كل شيء.

ينتبه فجأة لمصيره المحتوم وهو يرى الوجوه الغريبة تقترب منهما منذرةً بعقاب قريبة.. وفضيحة أقرب بينما لا تزال المرأة ذات الوشاح الأبيض تصرخ:

- أنقِذوها أولًا.. هي حامل وتنزف.. أخشى أنها ستفقد الجنين!

الغصن الأول

«زهرة.. صخرة.. مقص! ها هي ذي قواعد اللعبة.. المقص يقطع الزهرة، الصخرة تكسر المقص، ماذا لو هزمت الزهرة الصخرة؟!».

***

بعد ست سنوات

هل رأيت امرأة تشبه حقيبة؟! لا.. لا تحمل حقيبة بل هي نفسها حقيبة!

هكذا بدت له في جلستها على مقعدها بالقطار الذي بدأ -لتوه- يتحرك بالجميع، جسدها يكاد يكون متكورًا بأكمله يحاول السيطرة على طفل يبدو نافرًا ليس من ضوضاء القطار فحسب.. بل من الدنيا كلها! يصرخ صرخات غير مفهومة، يقفز دون توقف، لو لم يكن -بخبرته- قد أدرك حالة الطفل لظن أنها خاطفتُه!

يمط شفتيه باستياء رغم توقعه لردود أفعال الناس حولها بين نظرات مستهجنة ونصائح معلبة لا تصلح للتعامل مع هذه الحالة.

يتخذ مجلسه جوارها متفرسًا ملامحها عن قرب.. ثوبها الأسود الطويل يعطي انطباعًا ما بالزهد لولا أزراره اللامعة الكبيرة الذهبية وحزام خصره المستفز الذي يكاد يخرج لسانه مغيظًا متباهيًا بخصرها الضيق، وفتحة صدره الواسعة التي يبدو منها جيدها ناصع البياض وقلادة ذهبية حملت صورة رجل في شارة واضحة لمكانته عندها.. القلادة التي كانت غليظة شديدة القصر حد أنه شعر أنها

تشنق عنقها لا تزينه.. وجه كامل الاستدارة، عينان بُنيتان متسعتان، أنف دقيق، شفتان ممتلئتان، وشعر كستنائي مموج تضافرت بعض خصلاته مع شرائط رفيعة ذهبية أعطتها رونقًا مميزًا.

يلاحظ أنها تجاهلت وجوده كما تتجاهل ردود أفعال الناس حولها على تصرفات الطفل الاستثنائية فيكتفي بجلسته الصامتة متظاهرًا بالانشغال بهاتفه.

كم مر من الوقت؟! لا يدري.. ما يكفي لينام الصغير أخيرًا بين ذراعيها لتهدأ الفوضى التي كان يثيرها، يختلس نظرة إلى جانب وجهها حيث مضت تحدق في المشهد خلف نافذة القطار ثم يمد ذراعيه دون استئذان ليفرد ساقَي الصغير المطويتين كي يريحهما على ساقيه هو، يلمح في عينيها نظرة ذعر تحول سريعًا إلى امتنان وهي تميز ما يفعله، تنفرج شفتاها عن عبارة شكر مقتضبة وابتسامة أكثر اقتضابًا لكنها كشفت عن أسنانها غير المنتظمة والتي منحتها مظهرًا استثنائيًا رائعًا بالنسبة إلى رجل مثله اعتاد رؤية الجمال بعين خاصة.. خاصة جدًّا!

نظرته تتجمد أمام وشم «الزهرة» المنقوش بالحناء على ظاهر كفها.. زهرة مغلقة على نفسها كأنها مجرد برعم لولا بتلة واحدة تجرأت لتبتعد قليلًا عن رفيقاتها فلا تدري هل تحررت منها أم سقطت عنها!

هي! إنها هي!

ينعقد حاجباه بغضب مبهم وهو يكاد يشيح بوجهه لولا أن تعلقت

نظراته بدبلتها الذهبية في يسراها لتشتعل عيناه بتحدٍّ غامض!

- يضايقك صغيري؟!

صوتها يشبهها في رقته الواهنة كأنما لا يرى له حقًّا في مغادرة حلقها، تقولها بينما تحاول ضم الصغير إليها أكثر كي لا يأخذ مساحة أكبر لكنه يشير إليها مطمئنًا:

- دعيه على راحته.. أخمن أنه يعاني اضطرابات في النوم.

تومئ برأسها دون رد وهي تعاود الإشاحة بوجهها نحو نافذة القطار، لكنه لم يفلت فرصته في تبادل الحديث معها:

- ضايقتكِ تعليقات الناس؟!

- لا بأس! أنا سبب ما يحدث لطفلي.. اعتدت أن أدفع وحدي كل الفواتير.. دومًا أنا مقصرة.. فاشلة.. سلبية.. لا أصلح لأي شيء.

لم تبدُ كأنها تحدثه هو بهذه السخرية القاتمة بل كأنها تفضفض مع نفسها.. ورغمًا عنه انتابه في هذه اللحظة هاجس مزعج.. هذه المرأة تبدو على حافة خطرة توشك على السقوط.. لكن الأخطر أنه يشعر أنه وإن لم ينقذها فهو مستعد لأن يسقط معها!

ينقذها؟!

الخاطر نفسه بدا له مستفزًّا مستحيلًا لتعاوده غصة حلقه ونظراته المشتعلة تتعثر بين صورة الرجل التي تتأرجح على جيدها، ووشم الزهرة على كفها، صمتها الطويل بعدها يستفزه ليعود يسحب دلوه من بئر بوحها:

- تبدين مأخوذة بالمنظر خلف نافذة القطار.. هل هي مرتك الأولى؟!

لم تنتبه للنظرة الملهوفة في عينيه، للحماس الزائد في صوته، لم تنتبه حتى لملامحه التي تميل إلى وسامة تفوق المتوسط بكثير بل إنها حتى لم ترمقه سوى بنظرة عابرة.. كل ما تشعر به الآن أنها جائعة! جائعة للثرثرة! لا سيما مع أحد الغرباء.. هؤلاء الذين يكون الحديث معهم أسهل حيث تلقي ما في جعبتك آمنًا أن لن يجرفه التيار إلى شطّ الفضيحة أو المعايرة!

- لا.. ليست مرتي الأولى.. بل لا تتعجب لو أخبرتك أن البيت الذي أقيم فيه يطل من بعيد على محطة قطار.

- بيتك يطل على محطة قطار؟!

يتظاهر بالدهشة لترد:

- بل البيت الذي أقيم فيه.. لا يشترط أن يكون البيت الذي تقيم فيه هو بيتك.. معنى «البيت» أكبر من هذا بكثير.

من جديد تقذفه كلماتها في دوامة لا يود الاستسلام لها.. من مثله يمكنه فهم ما تقول وهو الذي عاش عمره لا يعرف معنى «البيت» ولم يكد يعرفه ويتلذذ بمذاقه حتى طُرد منه بركلة قدم!

لا.. لا.. ليس هذا وقت التفكير في الماضي.. فليركز على هدفه فحسب!

- معك حق.. هكذا إذن؟! لا ريب أن أصوات القطار تبدو لكِ

مزعجة.

- كانت كذلك في البداية قبل أن أعتادها.. استأنست مراقبة الوجوه المسافرة التي تختلف كل مرة لكنها تتفق في شيء واحد.. الأمل! الأمل أن يكون ما ينتظرهم يستحق تعب السفر.. والآن قد صرت أنا داخل القطار لا خارجه أجد نفسي كنت مخطئة كثيرًا.. الأمل ليس هدية السفر الدائمة والعودة ليست دومًا مكافأة.. أحيانًا نعود لأننا فقط «يجب أن نعود».

- ألا تريدين العودة؟!

- «أريد»؟! تعرف كم تبدو لي هذه الكلمة أحيانًا غريبة.. بل شاذة؟! توقفت منذ وقت طويل عن أن أريد شيئًا.. الأمر أشبه أن ترى سفينتك وقد اختطفها القراصنة فتجلس مراقبًا ثقبها الذي يتسع ببطء لعل الغرق هو منقذها! يهلك الجميع وتنتهي الحكاية!

ينعقد حاجباه لليأس الذي يقطر من حروفها، لهذا يسحب الحديث لمجرى آخر وهو يشير إلى الصغير:

- تبدين متعلقة به كثيرًا.

صدق ظنه إذ أشرقت ملامحها كلها في لحظة واحدة وهي تداعب شعر الصغير النائم بينما تغمغم:

- هو روحي! عندما تكاد الأم تفقد ابنها يوم مولده يبدو لها مجرد وجوده معجزة تستحق الشكر طوال العمر!

يهز رأسه وهو يميز تكدس الدموع في عينيها بينما تعود لثرثرتها

المحرومة:

- جده أصر يومها أن يسميه «ناجي» على اسم والد جده.. لا أخفيك قولًا أنا لم أحب الاسم.. قلت إنه قديم جدًا لكنني -بصرف النظر عن كوني لا أستطيع مخالفة أمر جده- تمنيت لو كانت بشارة.. لو يكون له من اسمه نصيب.. لو ينجو.. وأنجو معه!

- وماذا عن أبيه؟!

- ماذا تقصد؟!

- أقصد.. ماذا كان رأيه في الاسم؟!

يتعمد سؤاله متظاهرًا ببراءته لكنه كان يلتقط كل رد فعل تفضحه خلجاتها، بدايةً من نظرة الذعر التي ارتسمت على ملامحها وانتهاءً بإدارتها العنيفة لدبلتها في إصبعها.. قبل أن تشيح بوجهها دون رد.. لكنه لا يمنحها فرصة الهرب وهو يتعمد ضحكة قصيرة:

- بمناسبة الأسماء غير التقليدية.. اسمي «صفوان».. معناه الصخر الأملس الصافي.

لم تبدُ بكامل تركيزها كأنما ابتلعها شرودها من جديد، فآثر الصمت هو الآخر لبقية الطريق مكتفيًا بالاسترخاء في مقعده شاعرًا ببعض الخيبة.. لا بأس لا يزال المشوار طويلًا وهو لن يبرح حتى يبلغ!

يرن هاتفها فتلتمع عيناه بتأهب غامض، ملامحها تنكمش بخوف وكلماتها مقتضبة خانعة: «سأعود بعد قليل»، تغلق الاتصال لتضع هاتفها جانبًا، فتلتوي شفتاه بابتسامة ماكرة متسلية...

صافرة القطار تعلن الوصول فيتحفز مكانه وهو يحمل الصغير برفق كي يمكنها الوقوف، لحسن الحظ لم يستيقظ الولد الذي انتقل بيسر من كتفيه إلى كتفيها.. تشكره باقتضاب بينما ترفع عينيها نحوه كأنما انتبهت فجأة أنه حقيقي! وهذه المرة تفحصته عيناها.. ملامحه الوسيمة بخشونة محببة، شعره الداكن الذي استطالت خصلاته الأمامية بعبث يشبه ابتسامته.. لحيته القصيرة.. ثيابه المختارة بفوضوية وجدتها -نوعًا ما- جذابة.. عيناه اللامعتان كرصاصتين! لماذا تشعر الآن أنها تخافه؟! ربما نظرته الغريبة التي تخترقها، تشعر أنها قادرة على تعرية روحها باقتدار!

ربما لهذا ترتبك وهي تنحني لتجمع حاجياتها في حقيبتها ثم تغلقها بسرعة لتغادره دون تحية وداع.. تحمد الله أنها لن تراه من جديد!

بينما عاد هو يسترخي في مقعده كأنما لا يتعجل الرحيل، وابتسامة ظافرة تتراقص على شفتيه.. فعلى العكس منها كان يوقن أن لقاءهما التالي سيكون قريبًا.. جدًّا!

***

عقب عودتها تتناول منها الخادمة الصغير لتعيده إلى غرفته داخل البيت بينما تبقى هي خارجه تراقبه من بعيد بنظرة غائرة كأنها ليست من ساكنيه...

في مدينتهم ينسجون الكثير من الأساطير حول بيت «الكرملاوي».. يقولون إنه ملعون منبوذ بعزلته على أطراف المدينة.. يقولون إن تعويذة ما أُلقيت في البئر القديمة المقابلة له يكفي أثرها

ليكون كل نسله من الذكور غير أسوياء.. يقولون إن جدرانه تعزل صوت الضحكات لكنها لا تعزل صوت الأنين والصرخات.. يقولون إن زجاج نوافذه غير قابل للكسر لكنه يحتفظ بخدوشه كمسخ مشوَّه.. يقولون إن الزهور لا تبقى في حديقته أبدًا.. تذبل على أغصانها من أول يوم.. ويقولون إن أشجاره وارفة الظل خادعة المظهر.. فلا يكاد يستظل بها عاشق إلا تجردت فوقه من أوراقها لتلقيه فريسةً لحُرقة الشمس.. كأنه في شريعة البيت جريمة أن تظلل أشجاره عاشقين!

تراهم كانوا صادقين؟!

تتراجع إلى الخلف أكثر لتحيد خطواتها نحو البئر القديمة التي تبعد قليلًا عن البيت لكنها تبقى في مواجهته كأنها شاهدة عليه، تلك التي ألقت هي فيها ذات ليلة مكتملة البدر زهرةً يانعة دون أشواك وتمنت أمنية ودت لو تتحقق كما يزعم الناس هنا عن أسطورة البئر.. تحققت الأمنية فعلًا.. لكن.. ما الذي تغير؟!

تجلس على حافة البئر، هوتها العميقة تشبه مثيلتها في روحها هي، تتحسس صخور الحافة التي بدت لها مسنة وإن حافظت على حدة أطرافها، ها هي ذي تكاد تخدش باطن كفها.. تفكر وهي تحرك دبلتها في إصبعها:

- كنت أمنيتي! حلمي.. كيف صار كابوسًا!

- أرجوان!

كأنه قفز من أفكارها لتشحب ملامحها وهي تسمعه يناديها باسمها، يومًا ما كانت تقسم إن حروف اسمها من بين شفتيه مختلفة كأن

له إيقاعًا خاصًّا.. فلماذا الآن تشعر أن حروفه من بين شفتيه حبال تقيد.. تؤلم.. وتشنق؟!

- آدم.

تتمتم بها وهي تلتفت نحوه ليقترب منها قائلًا ببرودٍ قاسٍ:

- خرجتِ وحدك مرة أخرى!

تطأطئ رأسها في وضع مذنب وهي تبرر له سببها بحاجة الصغير إلى زيارة طبيب في العاصمة فتشتعل عيناه بغضب وقبضته تجد طريقها لعنقها فيصرخ الخوف بعينيها قبل كلماتها:

- كنت مضطرة.. تعرف حالة ابننا.. ذهبت لزيارة طبيبه فحسب.. لم أزُر أي أحد.. لم أذهب إلى أي مكان آخر.. لم أتحدث إلى أحد.

صورة «صفوان» تطفو فجأة تذكّرها بكذبتها فتهز رأسها هاربة تستطرد بصوت متحشرج:

- ارتديت اللون الأسود كما أمرتني.. قلادتك بصورتك حول عنقي كصكٍّ ملكية لقلبي لك.. وشرائطك الذهبية حول ضفائري تذكر الجميع أنه حتى خصلات شعري مكبلة بقيدك.. لا يفرد حرًّا إلا على كتفيك!

يبدو أن الجواب أرضاه! أصابعه تتحرر ببطء من على عنقها لترتجف شفتاه بأقسى ابتسامة رأتها.. يهز رأسه برضا ليهمس لها بحسم:

- عودي الآن إلى البيت.

تهز رأسها بطاعة لكنه يحكم قبضته على خصلات شعرها بضفائرها الذهبية ليردف بقسوة:

- هنا.. عند هذه البئر بدأت قصتنا.. لهذا سألتقيكِ دومًا هنا.. سأجدكِ هنا مهما ظننتِني بعيدًا.. تفهمين؟!

تعاود هز رأسها ثم تطلق تنهيدة خلاص وهي ترى خطواته تبتعد، تمسد عنقها حيث تقسم إن أصابعه تركت أثرها هناك.. تفرك دبلته في إصبعها وهي تعاود النظر إلى قاع البئر القديمة كأنها تعاتبها.. وربما.. تشكو إليها!

«احذر ما تتمناه!»، طالما سمعت هذه الحكمة الشهيرة من قبل والآن تكتوي بمعناها.. ليته ظل أمنية! ليته بقي حلمًا!

خطواتها تعود إلى بيت «الكرملاوي» متثاقلة مهزومة، ترى الجد يستقبلها عند الباب الداخلي للبيت ونظرته كعهدها موصدة بألف مزلاج.. من ذا القادر على قراءة عينَي «نعمان الكرملاوي»؟! بل إن الواحد حتى لا يمكنه تخمين سِنه فيظنه شقيق آدم وليس أباه!

تهرب بنظراتها الخانعة منه كما اعتادت منذ سنوات وقد علمت مصير من يقف أمامه، بينما يسألها بصوته الصارم الذي تكاد تقسم إن صداه يتردد في البيت كله:

- ماذا قال الطبيب عن طفلك؟!

تكتم ابتسامة مريرة.. يتحدث عن «ناجي» بكونه «طفلها» عندما يريد ذكر مرضه ونقصه بينما يدعوه قائلًا «حفيدي» عندما يفتخر

بكونه امتداد سلالة الكرملاوي الذي سيحفظ اسمها من الاندثار..

- لا جديد.. كتب له بعض المهدئات.. أوصى ببرنامج سلوكي ونصح بجلسات ما كي...

يقطع كلامها بنفاد صبر هاتفًا بحدة:

- ولا ألف طبيب سينفع! ما الداعي للسفر هنا وهناك ما دمت أنتِ سبب نكبة ابنك؟! كل الأمهات يُجِدن الاهتمام بأطفالهن لكنك كعهدك مهملة...

ثم يرمقها بنظرة محتقرة:

- أو من يدري.. على أي ذنب تعاقَبين في ابنك؟!

تسبل جفنيها باستسلام من اعتاد التقريع لكنه يهز كتفيها بعنف مردفًا:

- اهتمي بطفلك.. لو لم يتحسن قريبًا فسأذهب به إلى إحدى المدارس الداخلية التي تعتني بأشباهه.

- لا.. لا.. لا تفعلها أرجوك.

تصرخ بها بلهفة راجية لكنه يدفعها بعنف ليغادر البيت يلاحقه عطره الباهظ المكمل لوسامته الأنيقة.

تكتم دموعها وهي تعود إلى غرفة الصغير الذي بدا لها في نومه عاجزًا مستسلمًا مثلها.. يرجوها ألا تسلمه لمصير يشبه مصيرها!

تتناول حقيبتها لتبحث عن هاتفها حيث وعدها الطبيب أن يرسل

إليها البرنامج العلاجي على أحد التطبيقات.. تفتح الهاتف بلهفة لتتسع عيناها بصدمة وهي تفهم ما حدث...

صورة واحدة تطفو الآن لذهنها فتكتم شهقة دهشتها...

«صفوان»!

***

في مركزه الذي يعمل فيه كـ «معالج سلوكي» للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة ينكب صفوان باهتمام يبتلع كل جوارحه مع الطفل أمامه، التعامل مع هؤلاء الأطفال لم يكن لديه مجرد مهنة يرتزق منها بل حياة يشعر أنه يضيفها إلى حياته في كل مرة تتقدم فيها إحدى الحالات معه.. ربما لهذا كان يعشق عمله هذا رغم مشقته.. خبرته لم تتعدَّ بضع سنوات من جهد دؤوب لكنه نجح في شحذها بذكائه وقوة حدسه.. يلقبونه بـ «العراف»! يقولون إنه -رغم صغر سنه نسبيًّا- يجيد قراءة خبايا النفوس.. ليس فقط مرضاه من الأطفال بل مختلف صنوف البشر!

تمامًا كما الآن وهو يدرك أن الطفل أمامه يفهم كل ما يقوله له لكنه يتظاهر بالعكس!

لهذا يغريه أولًا بالألعاب الحركية التي يستجيب لها الصغير بفرط حركة يميز حالته قبل أن يجذبه رويدًا رويدًا إلى مجموعة أنشطة لتنمية المهارات مستغلًّا هذا في تعديل بعض سلوكه...

- طوبة.. ورقة.. مقص! تعرف كيف تلعبها؟!

يرمقه الصغير بنظرة مترقبة زاد فيها تركيزه ليحاول الشرح له:

- ستختار أنت وضعًا لحركة يدك كل مرة وأنا كذلك.. كفٌّ مضمومة تعني «طوبة».. كفٌّ مبسوطة تعني «ورقة».. انفراج السبابة والوسطى يعني «مقص».. طوبة.. ورقة.. مقص!

يكررها بلسانه وحركاته فلا يبدو إلا أن الصغير استجاب للحن المنغم لكلماته مبتسمًا وهو يحاول تقليده فيما يشرد صفوان وهو يتمتم لنفسه:

- ماذا لو كانت هذه لعبتي في بيت الكرملاوي؟! نستبدل «الطوبة» بـ «الصخرة».. أنا الصخرة! «الورقة» بـ «الزهرة».. أرجوان الزهرة! المقص يبقى كما هو.. «نعمان»! فتصير اللعبة.. صخرة.. زهرة.. مقص!

ثم تقسو نظراته أكثر باستطراده:

- المقص يهزم الزهرة.. الصخرة تكسر المقص.. لكن ماذا لو.. ماذا لو هزمت الزهرة الصخرة؟!

تزيغ نظراته في عبارته الأخيرة وصورة أرجوان كما كانت يوم التقاها في القطار تقتحمه.. ما سر هذا الوهن الذي تملكه فور رؤيتها وجهًا لوجه رغم أنه كان يعرف شكلها قبلها؟!

لماذا من حينها يصر طيفها أن يداعب عقله.. بل.. قلبه!

لا.. لا.. لا.. لا حسابات للقلب هاهنا!

حقًّا؟! لماذا إذن كل سعيه خلفها إن لم تكن للقلب حساباته؟!

وهذه المرة لا يمكنه المقاومة فينهي الجلسة شاعرًا أنه يريد الهروب من نفسه!

يغادر الغرفة المخصصة لجلساته ليتوجه نحو مجاورتها التي احتلها صديقه «غيث»، والذي بدا غافلًا عنه وهو يلصق وجهه في شاشة حاسوبه، يتحرك صفوان ببطء خلف صديقه الذي أعطاه ظهره ثم ينظر إلى المحادثة خلف الشاشة...

- صرت لا أستطيع التنفس دونك.. لا تعرف كم أحبك.

- بل أعرف.. وأعرف كم أحبكِ أنا.. أنتِ أعظم انتصاراتي!

يطلق ضحكة ساخرة قصيرة وهو يخبط بكفه على كتف صديقه الذي يلتفت نحوه هاتفًا بحرج:

- إياك أن تسخر!

- وكيف لا أفعل؟! هه؟! تخيل أنك تدعو هذه! هذه الذي تعرفها منذ أسبوعين فقط أعظم انتصاراتك! كيف تكون هزائمك النكراء إذن؟!

يضحك صديقه وهو يسبه مداعبًا محاولًا إدارة الشاشة كي يمنعه المزيد من القراءة هاتفًا:

- اخرس يا ولد! هل هكذا تسخر من مشاعر صاحبك وحبيبته؟!

- حبيبته؟! هذا عيب «الغرام الإلكتروني»! يجعلكم تتفوهون بكلام أكبر منكم! يا ابني هذه الفتاة تعبث بك! ألا تزعمون أنني أجيد قراءة الناس؟!

يرمقه صاحبه بنظرة شك تناقض قوله:

- لا.. لا.. هي تحبني بجنون.

- تراهنني إذن أن المقدمة الغرامية الملتهبة هذه ستنتهي بطلب هدية عيد الحب؟! بل وستحدد هي نوع الهدية كذلك!

- لا.. لا.. هي ليست من هذا النوع...

يقطع صديقه عبارته وهو يقرأ عبارتها التي كتبتها لتوها:

- تعرف أن عيد الحب بعد يومين؟!

يرفع عينيه بحذر نحو صفوان الذي كتم ضحكته مكتفيًا بلمعة عينيه الذكيتين وهو يعقد ساعديه جواره منتظرًا تمام المحادثة...

- لا.. لم أكن أعرف.

- «إخس عليك!».. وأنا التي قلت إن اختفاءك ليلة أمس سببه أنك تفكر في هديتي!

يرفع إليه صاحبه عينيه باستسلام ضائق شاعرًا بالخزي فيهتف صفوان يغمزه بعبارته المعهودة: «عيب يا لذيذ.. هو أنا تلميذ؟!».

يبتسم صاحبه وهو يلكزه في كتفه بينما يزيحه صفوان من على كرسيه ليجلس هو:

- دع الباقي لي.. سأنتقم لك!

- أخاف أن أشتري لك هدية بذوقي ولا تعجبك.. ما رأيك أن تأخذي أنت المال وتشتري كل ما تحبينه؟!

يكتبها صفوان بسرعة فيعقد صديقه حاجبيه وهو ينحني ليقرأ ردها، حتمًا سترفض العرض المهين!

لكنه يفاجأ مرة أخرى وهو يراها تكتب بسرعة كأنما جهزت الرد سابقًا:

- كم أنت لطيف! معك حق.. المال أفضل.. تعرف؟! قرأت لتوي رواية عاطفية جدًّا.. البطل أهدى حبيبته «كونسيلر» عندما اشتكت له أن الناس يعيرونها بهالاتها السوداء! كان يريدها أن تحب نفسها أكثر! شعرت بعد قراءتها أنني أتحسس بطحة رأسي.. أحتاج كريم تفتيح للبشرة لكنه غالي الثمن لأنه مستورد.

هذه المرة يسبها صاحبه بصوت عالٍ فيضحك صفوان وهو يكتب لها:

- عزيزتي أنت لا تحتاجين كريم تفتيح بشرة.. بل تفتيح مخ! لكنه للأسف لا يباع ولا يُشترى!

يقولها ليحظرها تمامًا من على حسابه بينما تعلو ضحكاته وصاحبه معًا!

- خسارة! كانت تبدو جيدة!

- أنت المغفل! تعلق قلبك «شماعة» لأي «تاء مربوطة» تقبل أن تعلقها عليه!

- لا أعرف ما الذي يصبرني عليك!

- ذكائي وخفة دمي مثلًا!

يقولها صفوان بغرور مصطنع وهو يرفع أنفه الذي ينال لكمة خفيفة من صاحبه تجبره على التأوه ضاحكًا قبل أن يرن الهاتف الذي يحمله صفوان...

تلتمع عينا صاحبه وهو يرى الرقم.. ليصيح بلهجة انتصار:

- أليس هذا رقمك؟! هذا يعني أنها هي! يبدو أنك قد نجحت.

يرفع صفوان حاجبيه بتلاعب ماكر قائلًا:

- ليس بعدا! ننتظر ماذا ستقول!

يقولها ليتنحنح متصنعًا نبرة جادة وهو يفتح الاتصال:

- من أنت؟! هذا رقم هاتفي المفقود!

- أنا... أرجوان.

صوتها يعيده إلى ذكرى لقائهما القريب والذي يشعر رغم قصره أنه قارب بينهما ألف عام.. رقتها الواهنة تثير سخطه وهو يتذكر سبب ملاحقته لها هي بالذات، لكنه يتصنع الجهل:

- مَن أرجوان؟!

- بالأمس كنت تجلس جواري بالقطار.. يبدو أننا تبادلنا هاتفينا فهاتفك يشبه خاصتي تمامًا.. من حسن الحظ أنك لا تغلقه بكلمة سر.. أعتذر أنني فتحته لكنني كنت أريد معرفة هوية صاحبه.

- آااه.. أنت إذن؟! السيدة أم الطفل الوسيم!

تبتسم مكانها وقد أسعدها إطراؤه لطفلها ليصله همسها الخافت متسارعًا بارتباك كأنما تخشى أن يسمعها أحدهم:

- رأيت بعض الفيديوهات على هاتفك لعملك مع الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة.. بحثت عن اسمك على الإنترنت ورأيت نجاح الكثير من الحالات معك.. قلت في نفسي لعلها.. لعلها هدية القدر لي ولابني.. ربما لا يكون لقاؤنا مجرد مصادفة!

فتلتوي شفتاه بابتسامة ماكرة ناقضت براءة عبارته:

- يا للقدَر! ربما ليس مجرد مصادفة بالفعل! أنا خمنت حالة طفلك من اللحظة الأولى لكنني خشيت أن أضايقك بالتفاصيل خاصة مع تعليقات الناس وقتها.

- إذن هل تقبل؟!

- ماذا أقبل؟!

- أن تعمل على حالة طفلي.. أريدك متفرغًا له لأطول وقت ممكن.. أعرف أن الأمر شاق خاصة ونحن نقيم في مدينة بعيدة عن العاصمة.. لكنني قلت ربما تقبل.

- الأمر بالفعل صعب جدًّا.. أعتذر.

يقولها مراوغًا وهو يبتسم لصاحبه ليعلو همسها في محاولة لإقناعه وهي تتذكر تهديد نعمان الأخير:

- نحن من عائلة كبيرة هنا.. سنتولى شأن إقامتك وسندفع لك كل

ما تطلبه.

هنا ينعقد حاجباه بغضب حقيقي وقد مست عبارتها جرحًا ما عنده ليقول باقتضاب غامض:

- المال ليس كل شيء.

صمت قصير يسودهما ويجعل صاحبه يراقب ملامحه بتوجس خشية أن يفسد الأمر.. لكن همسها الأخير ينهي المسألة:

- أرجوك.

يزداد انعقاد حاجبيه وهو يشعر بالمزيد من الخطر.. ليس من قربه الوشيك منها -فهي غايته على أي حال- لكن من أثر همسها الراجي الذي فاجأه عليه.. ما بالك يا صفوان؟! إياك أن يدخل قلبك في المعادلة! إياك!

يتجاهل الخاطر الأخير وهو يمنحها وعده بالتفكير ليختمها بقوله:

- أنا مجبور على المجيء إليكِ مرة واحدة على الأقل كي أسترد هاتفي وأعيد لك خاصتك.. ساعتها أبلغك ردي.

- سأنتظرك.

من جديد تلقي كلمتها العفوية سهمًا نافذًا في قلبه يتجاوز أثره بتماسك يليق به وهو يغلق معها الاتصال، يسأله صاحبه بلهفة:

- نقول «مبروك»؟! ابتلعت الطُّعم؟!

غمزته العابثة تليها رفعة حاجب وهو يردد عبارته المعتادة:

- «عيب يا لذيذ.. هو أنا تلميذ؟!».

الغصن الثاني

«أي عصفور أحمق هذا الذي يبني في القفص عشًّا؟!».

***

يدخل «نعمان» غرفة «ناجي» بخطوات حذرة، كعادته لا يمكنه فعلها إلا عندما يتأكد من نومه كأنه لا يريد مواجهة حالة الصغير التي تذكره بمصيبته فيه! تمامًا كما لا يمكنه مواجهة الناس به كي لا يعيروه بحالته!

ينحني ليقرب وجهه من عنق الولد دون أن يمسه، يأخذ نفسًا عميقًا من رائحته التي امتزجت بعطره هو الخاص والذي يصر دومًا أن يتعطر الصغير به كأنما هي رسالته وأمنيته أن يبقى الولد امتدادًا لرائحته هو!

- ستكون بخير! ستعالج وتتعافى تمامًا.. ما زلت صغيرًا.. ما زال أمامنا العمر لأبذل لك كل ما في وسعي.. أنت أغلى ما في حياة «نعمان الكرملاوي».. أنا خسرت أباك رغمًا عني منذ سنوات تقارب عمرك.. هو ارتضى أن يقطع كل الخيوط التي بيننا وأنا لم أستطع منعه...

يتهدج صوته القوي رغمًا عنه في عبارته الأخيرة ليغلبه خيط رفيع من الدمع العزيز على من هو مثله، دمع يكاد يضيء ظلمة الغرفة كقبس من نار يحرق صدره ولا يريد أن يحترق به غيره...

يستخرج من جيبه دمية «ماتريوشكا»، يفكك أول قطعها لتخرج

منها أخرى، ثم أخرى، ثم أخرى...

- عندما كان أبوك في مثل عمرك أريته هذه، كان أبي قد أهداني إياها وهو يريد أن يشرح لي كيف أننا عائلة «الكرملاوي» مجرد قطع متشابهة يُخرِج أكبرها الأصغر ثم الأصغر.. نلتصق حينًا وننفصل آخر لكننا ندرك أننا في النهاية نحمل نفس الشكل، نفس الطباع.. ونفس المصير. وعندما أردت أن أفعل المثل وأهديها لأبيك في طفولته وجدته يختطف أصغر قطعة منها ويركض بها، ركضت خلفه لأدركه فوجدته يلقيها في البئر القديمة المقابلة للقصر، ثم التفت لي قائلًا: «لن أشبه أحدًا ولن أسمح أن يخرج مني طفل آخر يرث الوزر الثقيل لهذه العائلة».. كان كلامه أكبر بكثير من طفل بعمره لكنني كنت أفهمه.. الوجع يجعل الأطفال ينضجون قبل الأوان.. وجع عجزت أنا أن أخففه عنه.. أجل.. عشت كل هذا العمر عاجزًا عن أن أعانقه.. تمامًا كما أنا الآن عاجز عن عناقك وأنت أقرب الأقربين إليَّ! ربما لأنني كنت أرى في عينيه خيبتي كما أرى الآن في عينيك خساراتي.. آااه!

تأوهاته رغم شدة خفوتها يشعر وكأنها تشق سكون الغرفة كالرعد ليردف وهو يقلب «الماتريوشكا» بين كفيه:

- واليوم وبعد كل ما مر بنا لا أعرف هل كانت كلماته وقتها أملًا أم نبوءة.. هو نجح حقًّا ألا يشبه أحدًا.. لكن ماذا عنك أنت؟! أنت كل ما بقي لي.. لعائلتي.. كن بخير يا «ناجي».. دع لنفسك من اسمك نصيبًا.. أنت حاربت لتبقى من أول يوم.. بدأت معركتك باكرًا يوم ولدتك أمك.. فلا تحرق قلبي حسرةً عليك.. كن بخير.. كن بخير.

أنامله المرتجفة تطوف حول وجه الصغير النائم بخشية من لا يريد لمسه، خيط الدموع يتحول إلى سيل جارف يغرق وجهه و«الماتريوشكا» بين كفيه.. الماتريوشكا التي لا تزال ناقصة قطعتها الأخيرة!

عبر الفرجة الضيقة لباب غرفة الصغير كانت تقف «أرجوان» تختلس السمع بقلب وجل، دموعها وجدت مكانها في قلبها وإن كانت جفت على وجهها منذ زمن، من يصدق أن تغادر هذه الكلمات لسانًا كلسان نعمان الكرملاوي؟! لقد كبرت وهي تسمع الجميع يتندرون أن لسان «نعمان» المعسول لا يعرف طريقه إلا للنساء اللائي يجيد هو غزل شباكه حولهن في زواج قصير الأجل ينتهي سريعًا بعدما يمل هو ليبحث عن صيد آخر.. فيما عدا ذلك هو رجل يجيد بهيبته الصارمة هز الأرض تحت قدميه!

ابتسامة مريرة تلطخ شفتيها وهي تتحسس دبلة إصبعها، آه لو يعرف «آدم» عن حسرة أبيه! عندما تلتقيه عند البئر القديمة كعادتهما ستخبره بما سمعته، لكن هل سيصدقها؟! لا يهم! المهم أن تخبره بكل ما يحدث هنا في غيابه لعله يرضى عنها.. لعله يرضى!

***

- أهلًا بيت الكرملاوي.. أخيرًا!

يقولها «صفوان» لنفسه وهو يقف أمام البيت فاتحًا ذراعيه كأنه يحتضن حلمًا أوشك أن يصير حقيقة!

تمامًا كما وصفوه له، أسواره عالية ناصعة البياض لكنه يوقن أي سواد تخفيه داخلها، بوابته فخمة، عتيقة الطراز، نصف مفتوحة كأنها تتحدى أن يجرؤ أحدهم على الدخول أو الخروج منها.. يتقدم بضع خطوات لتبدو له الحديقة في ثوبها الأخضر القاتم الذي يميل إلى الأسود فلا يعطي انطباعًا بالنماء بل بالهِرَم.. لماذا لا تنبت الزهور في حديقة بيت «الكرملاوي»؟! أشجاره تبدو كوحوش متربصة تفرد أذرعها الغليظة على أسوار البيت كأنها تحميه.. أو ربما.. تخنقه!

يرفع عينيه إلى الأعلى قليلًا.. نباتات متسلقة تلتهم واجهة البيت من الداخل، نباتات أخرى تبدو وكأنها تهرب من نوافذه فتوقفها أحواض خزفية بألوان بريئة خادعة.

البيت يبدو كأنه متحف للشجر.. لكنه رآه مقبرة!

المشهد القاتم للحديقة يكتمل بهذا التمثال العجيب لرجل يجثو على ركبتيه أمام عمود مكسور القمة! ورغمًا عنه يتحسس وحمة سوداء صغيرة على وجنته تميز ملامحه منذ الطفولة، وقد تعلم أن يداريها في كبره بأن يطلق لحيته!

طيفٌ حبيب يمر بذهنه يرسم على شفتيه ابتسامة، ويغرس في قلبه نصلًا!

- أتيت!

صوتها الواهن ببحّته المميزة يقاطع شروده ويجبره أن يلتفت نحوها، ثوبها الأسود، شرائطها الذهبية التي تتضافر مع خصلات شعرها، وعيناها! آه من عينيها! هذا النوع من الأعين الذي يجبرك أن

تلتقم طُعْم الحب صاغرًا ما دام سيسلمك غنيمة بين كفيها!

الحب؟! أي حب؟! لم يعترف به يومًا ولن يفعل! ربما لهذا السبب يقلقه ضعفه الغريب نحوها.. لكنه كعهده يقهره!

هو يدرك جيدًا غايته من دخول هذا البيت.. ولن يزيد عليها!

ابتسامة ناعمة مرسومة تزين شفتيه وهو يلقي تحية تقليدية، يستخرج هاتفها من جيبه ليعطيها إياه فتفعل «أرجوان» المثل ثم تدعوه للدخول، فتتحول ابتسامته الناعمة إلى أخرى قاسية!

يسير خلفها وهو يميز أول ما واجهه بدخول بهو البيت الفخم، لوحة زيتية شديدة الضخامة لـ «الكرملاوي».. الجد الأكبر وهو يقف وسط أشجار حديقته -وقتها أيضًا كانت بلا زهور- وخلفه بوابة البيت مغلقة.

- لا تتعجب من ضخامة الصورة.. هكذا يجب أن تصل الرسالة إلى كل عائلة «الكرملاوي».. كل فرد منها مسجون داخل إطار لوحته لا يجوز له الخروج.

تعجبت أن تخرج منها هذه الكلمات أمامه هو بالذات، وكذلك هو لكنه دارى دهشته خلف ضحكة قصيرة:

- كلنا هكذا.. كلنا أسرى إطار الصورة التي وُضعنا فيها.. أحيانًا يختفي الحد الفاصل بين «الحماية» و«السجن» فيصيران متشابهين تمامًا!

تحدق في عينيه بنظرة غريبة.. كيف وصف شعورها بجملة بسيطة

كهذه؟! ينتابها نفس الشعور الذي ملأها يوم رأته أول مرة، مزيج من الخوف والارتياح، ربما لهذا يرتعش صوتها وهي تدعوه للجلوس:

- قلت إنك ستفكر فيما عرضته عليك.

- لا أظن عرضنا قابلًا للرفض!

الصوت المهيب لـ «نعمان» يجبر كليهما على الوقوف، هي التي انتفضت مكانها، وهو الذي ارتعشت شفتاه بحقد لم يستطع منعه وأنامله تتحسس ذات الوحمة على وجنته، عيناه الخبيرتان تتفحصان الرجل، وسامته، أناقته، مظهره الذي يبدو أصغر كثيرًا من سنه، وقسوته المتغطرسة التي تغلف كل هذا، خاصة وهو يتقدم منهما ليجلس فاردًا ذراعيه على ظهر الأريكة مردفًا:

- اقترح أي رقم تستحقه وسأضيف إليه صفرًا على اليمين.

ينعقد حاجبا «صفوان» وهو يعقد قبضتيه خلف ظهره يخاف أن يطلقهما فلا يجدا مكانهما إلا على عنق ذاك الرجل، وليكن ما يكون! لكن نعمان يجيد المفاوضة فيبتسم برصانة وهو يدعوه للجلوس بكفه مردفًا:

- ألا يعطيك هذا إشارة إلى أي حد نثق بمهارتك؟!

ينعقد حاجبا «أرجوان» بشك وهي تشعر بشيء غريب يجري، لقد تصورت أنها ستبذل مجهودًا كبيرًا لتقنع «نعمان» بدخول شاب كهذا للبيت، لكنه يبدو شديد التمسك به رغم أنها هي من اقترحته!

«لا تزالين ترتدين دبلته؟!».

تذكر يوم قالها لها «نعمان» بالأمس بنبرة غريبة غامضة وهو يميز دبلة «آدم» في إصبعها وكأنه لم يلحظ هذا إلا وقتها فلم تستطع إجابته سوى بسكوتها الخانع! ألهذا علاقة بقبوله لعمل «صفوان» هنا بهذه السرعة؟! ماذا عساه يدبر؟!

نفس الخاطر الأخير دار بخلد «صفوان» وهو يتفرس ملامح الرجل بعينيه النافذتين لتلتوي شفتاه بابتسامة جانبية كأنه فهم مراده!

ربما لهذا لم يجادل كثيرًا وصوته المرح ببراءته يناقض النظرة المستذئبة في عينيه:

- لا بأس يا سيد «نعمان».. الطفل دخل قلبي من أول مرة رأيته فيها.. سأبذل كل ما في وسعي لتتحسن حالته.. أعدك.

والكلمة الأخيرة لم تحمل معنى «الوعد» قدر ما شعَّت بـ «الوعيد»!

- عظيم.. سنتدبر أمر إقامتك في مكان قريب من هنا كي يمكنك الوجود مع «ابنها» أطول وقت ممكن.

تسبل «أرجوان» جفنيها بحرج وهي تراه كعهده يشير إلى الطفل كابنها في موضع كهذا، إشارة لم تخطئها عينا «صفوان» النافذتان وهو يرد بحذر:

- لا تحمل همًّا.. أحد أصدقائي يقيم قريبًا من هنا وقد عرض عليَّ الإقامة معه.

- مَن؟!

- «غيث» ابن «الست راوية».

ينعقد حاجبا نعمان باستياء وهو يلوح بكفه:

- لا أحب تلك المرأة.. لكن فليكن!

يهز صفوان رأسه بترقب ليسأله نعمان:

- كم من الوقت ستحتاج للعلاج؟!

- لا يمكنني التحديد بالضبط.

- ماذا تعني؟! هل سننتظرك ليوم القيامة؟!

يهتف بها «نعمان» بسخرية حادة لتلتمع عينا «صفوان» بنظرة واثقة:

- أعدك أن يحمل كل يوم أقضيه هنا تحسنًا ولو طفيفًا.. لكن تمام العلاج يحتاج إلى وقت لا أعرفه.. الأمر يختلف من حالة إلى أخرى حسب...

آهة متذمرة يطلقها نعمان وهو يقاطعه قائلًا بحزم:

- لا تعنيني متاهاتكم الكلامية هذه.. ما أفهمه أن لكل داء دواء.. ولكل دواء ثمن.. وأنا سأدفع ما تريد.. أمامك شهر من الآن.. لو لم ترضِني النتيجة فستعود من حيث أتيت.

يخفق قلب «أرجوان» بعنف وهي تتوقع أن يضيق صفوان بصلافة الرجل لكن الأول فاجأها وهو يقف بدوره ليسأل نعمان:

- وما أول نتيجة ترضيك بالضبط؟!

صمت قصير يسودهما قبل أن يجيب نعمان:

- الولد حاليًا لا يتكلم.. على الأقل أتوقع أن يبدأ في الكلام.

- يقول «جدي نعمان» مثلًا؟!

تلتمع بها عينا صفوان ليرتعش جفنا نعمان بوهن غريب على صلافته طوال الحوار فيدرك الأول أنه أصاب رمية رابحة، خاصة ولهفة نعمان تصبغ حروفه:

- افعلها ولك ما تريد.

يهز «صفوان» رأسه فيما يشبه الوعد، لينبت عرق خفيف على جبين نعمان، تختلج عضلة فكه فيدرك صفوان أن ما سيقوله ليس بيسير:

- ضع في حسبانك ألن يساعدك أحد سوى أمه.

- وماذا عن أبيه؟!

يتبادل نعمان مع أرجوان نظرة قصيرة كأنه يخرسها ليقول أخيرًا:

- مات!

تكتم أرجوان صرخة شفتيها بكفها وهي تود لو تطلقها.. ما أقساك يا نعمان.. ما أقساك!

فيما يطرق صفوان برأسه متمتمًا بعبارة مواساة تقليدية وهو يشعر أن ثمة شيئًا ما خطأً.. لكنه سيعرفه!

صوت صراخ الصغير من الأعلى يقاطع الحديث فتركض «أرجوان» نحوه بينما يسأله نعمان:

- متى تريد بدء عملك؟!

- أظنني بدأته بالفعل.

يقولها صفوان بمرح واثق عبر نظرته النافذة ليتفحصه نعمان بدوره قبل أن يقول:

- جهزنا غرفة مخصصة في الحديقة لجلساتك مع الولد.. أظنه واضحًا أنه لن يمكنك دخول البيت في غيابي.

يومئ صفوان برأسه فيغادره نعمان دون مصافحة كان هو الآخر أزهد ما يكون فيها.. آخر ما يرجوه أن يضع كفه في كف هذا الرجل ولو لأجل خطته.

***

يغادر «صفوان» البهو نحو غرفة الحديقة التي أشارت إليها الخادمة حيث خصصوها له وللصغير، الخادمة التي بدت له يافعة مشرقة الملامح رحبت به أكثر مما ينبغي وقد وجدها فرصة ليتجاذب معها أطراف الحديث لعله يومًا ما يستفيد من هذا.

يتفحص الغرفة ببعض العجب، كانت قد أُعدت بالضبط كما يحتاج، سبورة بيضاء، أقلام ملونة، ألعاب مخصصة لتنمية المهارات، الكثير من البطاقات التعريفية التي يحتاجها الصغير لاستكشاف ما حوله، «ترامبولين» مُعَد للقفز حيث يمكن للولد أن يفرغ طاقته.

يسمع صوت الصغير بصرخاته المميزة القصيرة يقترب فيلتفت ليجده قادمًا مع أمه.. و...!

- أوف!

زفرة قصيرة يطلقها وهو يجبر نفسه أن يشيح ببصره عن صاروخ نووي بصورة امرأة تأتي لتوها مع «أرجوان»!

ذاك النوع من الفتنة الوحشية القادرة على جلب الأعاصير لقلب روحك.. تمسك بتلابيبك تتحداك ألا فِكاك!

جسد فارع الطول مميز بانحناءاته المضبوطة التي عجز ثوبها الواسع عن مداراتها.. ترى من تكون هذه؟!

- «صابرينة».. صديقتي المقربة بمقام أختي.. و.. زوجة السيد «نعمان»!

تقولها «أرجوان»، تقوم بدورها بالتعارف بينهما لتتسع عينا «صفوان» بإدراك وعيناه النافذتان تحاولان كشف خبايا تلك الواقفة أمامه، صابرينة! لم يخطئوا فيما زعموه عن الرجل المزواج إذن! زوجته تقارب زوجة ابنه عمرًا!

بينما بدت نبرة «صابرينة» ودودة تمامًا وأناملها تزيح بحركة عفوية خصلة ناعمة من شعرها الأسود الفاحم لتلقيها خلف أذنها.. خصلة أخرى من شعرها تبدو بوضع غير طبيعي كأنها تداري بها شيئًا ما لم يعرف هو أنه بعض المشيب المبكر على امرأة بعمرها.. عيناها زرقاوان شديدتا الصفاء، بشرتها بيضاء ناصعة إلا من حبيبات نمش

وردية لم تزِدها إلا رونقًا:

- تشرفنا.. لعل الشفاء يكون على يديك.

يحاول «صفوان» قراءة لغة جسدها لكنه يشعر بحاجز خفي يمنعه، هذه المرأة تخفي سرًّا.. ربما.. لكن المؤكد أنها عاشت مأساة تركت خطوطها القاسية على الملامح الناعمة!

الغريب أن جمالها الباهظ لم يحرك فيه سوى ما تفعله فتنة امرأة استثنائية برجل يراها لأول مرة.. بينما يبدو له أثر «أرجوان» جوارها كما هي الشمس عندما يخبو جوارها ضوء الشموع!

غريب.. ومقلق.. لرجل مثله اعتاد التباهي بسيادة عقله، لم يعرف يومًا متاهات القلوب ولم يصطدم بالحب ولا حتى مصادفة!

ومن جديد يجيد الهرب من فوضى مشاعره وهو ينحني على ركبتيه ليحاول السيطرة على جموح الصغير المتقافز لكن عينيه تصطدمان بوشم الزهرة على كفها! نفس الزهرة التي تتفتح إحدى بتلاتها كأنها تهرب من الأخريات!

لا.. ليست أرجوان هذه المرة بل.. صابرينة! نفس الوشم.. نفس المكان!

هي؟! أيكون أخطأ الهدف من البداية وتكون هي؟!

ينعقد حاجباه بصدمة للحظات حاول فيها السيطرة على انفعالاته لينحي كل هذا جانبًا وهو يسلم جسده وعقله وكل جوارحه للشيء الذي يفترض الآن أن يشغله.. عمله مع الصغير!

***

- ابني اعتادك بسرعة.

صوتها الخافت ببحته المميزة يداعب وترًا خاصًا بقلبه وهي تودعه على باب البيت، ابتسامتها كصوتها واهنة كأن كليهما لا يرى له حقًا في الظهور! لا تبدو له حزينة بل منطفئة.. كأنما ما عاد داخل حناياها سوى رماد!

فقط عندما تقول «ابني» يشعر أن حروفها تتوهج.. توقد مشعلًا بمغارة روحها لكنه لا يلبث أن ينطفئ من جديد! لهذا عندما قالها: «أعدك أن أبذل كل ما بوسعي لأجله» كان يعنيها حقًّا بكل جوارحه.

- ستقيم لدى «الست راوية»؟!

- تعرفينها؟!

- ومن في مدينتنا لا يعرفها؟! هي ورثت حِرفتها أبًا عن جد.. حديقتها صاحبة فضل على الجميع وهي تجيد مداواتهم بأعشابها.. وما تعجز عن زراعته فيها تجمعه من السهول الجبلية القريبة.. لديها لكل داء دواء.. تفعل هذا بحب وتقول إنها تجني سعادتها من ابتسامة الشفاء بعد «آه» الوجع.. لهذا يقولون إن القدر يكافئها في حديقتها.. زهورها متفتحة طوال العام.. عكس حديقة «الكرملاوي» التي لا تتفتح فيها الزهور أبدًا!

- لكن السيد نعمان لا يحب «الست راوية».

- هذا سبب كافٍ لأن أحبها أنا.

غافلتها عفويتها وهي تنطقها لترمقه بنظرة نادمة لكن ابتسامته المطمئنة بدت لها كمكافأة خاصة وهو يتعمد عدم إحراجها بالتركيز على الأمر!

يمد لها يده مصافحًا ثم تراوده نفسه أن يطيل مدة المصافحة فيلقي ما يظنه ورقة رابحة:

- لا تقلقي بشأن «ناجي».. تشخيص حالته السطحي «توحد غير ناطق مع فرط حركة».. لكنني لا أعترف كثيرًا بالمصطلحات الباردة.. كل طفل حالة خاصة مغلقة ومهارة المعالج أن يجد مفتاحها.. وما يطمئنني أنني اكتشفت أنه أذكى كثيرًا مما نظن لكنه لا يظهر هذا.

- حقًّا؟!

تتسع ابتسامته وهو ينظر في عمق عينيها مدركًا صدق حدسه، هذا القبس المتوهج في حدقتيها لا يشع سوى بأملها في ابنها، ومن جديد يشعر أنه يتوه في دوامتها، يدور رغمًا عنه.. لكنه يراها تهرب بعينيها من عينيه فجأة، القبس النابض ينطفئ من جديد ونظراتها تحيد نحو البئر القديمة...

«آدم هناك».

تحدث بها نفسها سرًّا وهي تنتبه لكفها في كف صفوان فتسحبها سريعًا لتتراجع بظهرها للخلف قائلة بارتباك مذعور:

- أراك غدًا.. آآآ.. نراك غدًا.

يختلس نظرة حيث تجمدت نظراتها لتضيق عيناه بإدراك وهو

يفهم سبب ما حل بها، شيطان مكره يسول له أن يطيل الوقوف معها أكثر، خاصة مع هذا الطيف المزعج من الغيرة الذي أبى الاعتراف به لكن شفقته نحوها تغلب كل هذا فيتراجع بدوره مودعًا وقد تمنى لو ينتظر ليرى ما سيحدث!

ولم تكد هي تطمئن لابتعاده تمامًا حتى تلفتت حولها تتأكد من خلو المكان قبل أن تركض نحو البئر، هناك حيث ظهر آدم من مخبئه خلف الأحجار البارزة ومارد غضبه يفتك بملامحه وبقلبها معًا!

يسحبها معه خلف السور القصير القريب الذي تهدمت بعض أجزائه، قديمًا حفرت هي اسميهما فوقه، هنا تمامًا، حيث يلصق ظهرها الآن بعنف محاصرًا جسدها بجسده وقبضته تكاد تكسر يدها:

- كيف تتركينه يمسك يدك؟!

صراخه يكاد يصم أذنها فتكتم ألمها هامسة وسط شهقاتها:

- كانت مجرد مصافحة.. أقسم لك إنني لم أقصد.. آه...

تتأوه بألم أكبر وهو يلوي ذراعها بعنف أكبر خلف ظهرها هاتفًا من بين أسنانه:

- وكأنه يمكنني الوثوق بواحدة مثلك!.. تربية «واحدة ست»!

من جديد يقذفها بها كعهده! يجدها مبررًا لكل ما يراه من أخطائها! كأنه كان ذنبها أن يهجرها أبوها لتتولى أمها وحدها تربيتها في مجتمع كهذا يعتبر هذا وصمة!

- أرجوك يا آدم.. لا تسئ الفهم.. هو جاء فقط لأجل أن يعالج ابننا...

لكنه لا يسمع ولا يرى كعهده كلما أصابته نوبة من نوبات غضبه، تلك التي تنتهي بعد دقائق فلا يبقى لها بعدها سوى تلك الكدمات على جسدها في أماكن يتعمد ألا تكون ظاهرة!

تجثو على ركبتيها والألم يسحق روحها فيرمقها من علو بنظرته التي تعرفها.. نظرة تتهمها بكل شيء.. حتى هذا! تمامًا كما يفعل الآن وهو يجلس على ركبتيه أمامها، يمسح بمنديله خيطًا رفيعًا من الدم سال على جانب شفتيها، يضم وجهها إلى صدره في عناق قوي هامسًا:

- رأيتِ ما تفعلينه بنا دومًا؟! لماذا توصلينني إلى هذا الحال؟! ألا يكفي ما أنا فيه؟!

كلماته لا تحمل ندمًا بقدر ما تحمل لومًا.. يمسح وجهها -الجاف من دموعه- بأنامله مردفًا أمام عينيها:

- الرجال أعلم بالرجال.. ذاك الرجل لا يريحني.. نظراته نحوك غير مطمئنة.. أنتِ لي.. لي وحدي!

فتكذب بقولها:

- ليس الأمر بيدي.. والدك هو من أحضره ويصر على بقائه.

- إذن لا تطيلي الحديث معه، ولا تسمحي له بلمسك ولو بمصافحة!

يصرخ بها بحدة فتنكمش بين ذراعيه هامسة بكل ما تجيده من عبارات الطاعة، يطلق زفرة ساخطة وأنامله تتخلل خصلات شعرها ذات الشرائط الذهبية، ثم يطبع قبلة على جبينها تهدأ معها بعض

خفقاتها:

- لن يحبك أحد مثلي.. تعرفين هذا!

تهز رأسها وعيناها تتجولان بين البئر التي سقطت فيها وردتها كأمنية واسميهما اللذين نقشتهما على السور القصير.. وكأنها تستجدي المزيد من رضاه شرعت تحكي له ما يدور في البيت وما رأته من أحوال نعمان وبكائه في غرفة ناجي كي تشعره أنه لا يزال يعيش بينهم!

***

- ما هذا يا ابني؟! من يراكما هكذا يظن أنك كنت مهاجرًا خارج البلاد!

يهتف بها «صفوان» بمرحه المعهود وهو يرى استقبال «الست راوية» لابنها بين أحضان وقبلات فيبتسم «غيث» وهو يلتفت نحوه دون أن يغادر كنف أمه هاتفًا:

- ولو كنت في حضنها منذ ساعة واحدة فقط.. سأفتقدها بنفس القدر!

- شوق الأم لابنها الغائب يشبه البئر، كلما أخذت منها تزداد عمقًا!

تقولها «راوية» بصوتها المميز الذي يشبه قلبها في دفئه وعقلها في حكمته وهي تشدد ضمتها لابنها فيعطيهما صفوان ظهره رغمًا عنه، مخفيًا دمعة كبيرة أغشت عينيه وأنامله تتحسس وحمة وجنته، يشعر بها ملتهبة تحت أصابعه!

- الغداء جاهز.. بدِّلا ثيابكما أولًا.. جهزت لصفوان غرفته.

- سلمتِ يا ست راوية.

يقولها «صفوان» ممتنًّا لترد بحنان جارف:

- البيت بيتك.. يشهد الله أن محبتك في قلبي صارت كغيث تمامًا!

يبتسم لطيبة المرأة الظاهرة، ملامحها المريحة تلوحها سمرة محببة، ضفيرتاها خالطهما الشيب تحت وشاحها الأسود، عيناها شديدتا الاتساع حد أنه يشعر أنه يمكنهما العناق بمجرد نظرة، رائحتها مزيج من أعشابها وزهورها فكأنها دواء وعطر!

حتى طعامها بدا له مختلفًا، يقولون إن مذاق الطعام يختلف عندما يطبخ بحب ويبدو أن المرأة كانت تعرف هذا السر الذي جعل حلاوة مذاق طعامها لا يشبهه مذاق!

ومع هذا نمت في حلقه غصة يعرف مصدرها، وكعهده كلما زاد وجعه كلما زادت رغبته في المزاح يداري به خبيئته وهو يرى صديقه قد أجهز على معظم الأكل وحده!

- لم يبقَ سوى الأطباق الفارغة وذراعي.. تأكلها هي الأخرى؟!

يمد ذراعه نحو «غيث» الذي يضحك وهو يمسد بطنه بتأوه شبع بينما يلتفت لأمه:

- ليس ذنبي! أكل الست راوية يجبرك أن تأكل أصابعك خلفه.

لكن راوية تلتفت نحو صفوان هاتفة:

- لم تأكل جيدًا.. سأحضر المزيد.

تهم بالوقوف لكن صفوان يضحك هاتفًا وهو يمنعها بينما يشير إلى غيث:

- تحسبين كل الناس مثله؟! أنا في العادة أنتهي من طعامي وأغسل يدي وأشرب الشاي وأنهي بعض مكالمات العمل بينما لا يزال هو ينهي معركته مع الطعام البائس الذي وقع حظه بين كفيه!

تضحك المرأة بسماحة وهي تدعو لابنها بالبركة بينما يهتف غيث:

- تركت مكانًا للحلوى.. أسرعي بها يا أمي قبل أن أشبع.

- اطمئن.. أنت لا تشبع أبدًا.. هذه الخاصية ليست في إعداداتك!

يقولها صفوان ساخرًا وهو يعقد كفيه خلف رأسه فيضحك غيث وهو يراقب أمه تهرول نحو المطبخ القريب كي تحضر له الحلوى...

- اسمع يا ابني.. أنا عاجنك وخابزك.. هذا المرح لن يخدعني.. أخبرني كيف كانت زيارتك لبيت الكرملاوي؟!

يهمس بها غيث بجدية وهو يميل على صاحبه ليتنهد صفوان وهو يحكي له ما كان...

- غريب! وما السبب الذي يجعل نعمان يقبل وجودك بهذه السهولة؟! ظننتنا سنحتاج وقتًا أطول!

يسأله غيث ليخبره صفوان بالسبب الذي مال إليه حدسه فتنبعث من صاحبه آهة إدراك وهو يهز رأسه:

- كيف استنتجت شيئًا كهذا؟!

- «عيب يا لذيذ.. هو أنا تلميذ؟!».

عبارته المعهودة ترسم موجة ضحك قصيرة بينهما، يقطعها غيث بقوله:

- كل هذا جيد.. لم أفهم بعد سر الضيق الذي تفضحه ملامحك!

يطرق صفوان برأسه وهو يخبره عن موقفه الأخير مع أرجوان قرب البئر القديمة، فيسأله غيث بتوجس:

- وما الغريب؟! ألم تكن تعلم من قبل؟! أم أنك...؟!

يقطع سؤاله خشية إكماله فيغتصب صفوان ضحكة مفتعلة متصنعًا المرح:

- لا.. لا تشطح بخيالك!

لكن غيث يحط بقبضته على ساعده يسأله بجدية دون مواربة:

- هل أحببتها؟!

ينتفض صفوان كأنما لدغه عقرب ليهتف بانفعال ضاحكًا:

- أي حب يا ابني؟! هل أبدو كمن يؤمن بهذه التخاريف؟! أنت تعرف جيدًا غايتي من دخول هذا البيت! مجنون أنا كي أحبها؟!

- هي تبدأ هكذا! أنا أعرف!

يتمتم بها غيث بخفوت مستنكر وهو يمط شفتيه فيهتف به

صفوان بحدة وهو يضم قبضته في وضع تهديد:

- ماذا تقول؟!

- أدعو لك أن يكملك الله بعقلك! أي مجنون أنت؟! أنت سيد العاقلين!

يداهنه بها بمرح من بين أسنانه فيهم صفوان برد لاذع لولا دخول راوية تحمل صينية الحلوى والأطباق، تضعها أمامهما لتسأل صفوان باهتمام:

- هل ستعالج حفيد نعمان الكرملاوي حقًّا؟!

- الله الشافي! سأبذل ما في وسعي.

يقولها بحذر لتعاود سؤاله بعجب:

- وهل سمح لك نعمان بدخول بيته والاختلاط بنسائه؟!

- تتحدثين وكأنني سأجلس وسطهن أغني لهنَّ! أنا عملي كله مع الصغير في غرفة مغلقة!

تعليقه المرح يستجلب ضحكة راوية الصافية لكنه ينتبه لما يجعله يسألها باهتمام:

- لحظة! تقولين نساءه؟! أنا لم ألتقِ سوى بـ «أرجوان» و«صابرينة»! هل هناك المزيد؟!

- لم تلتقِ بهنَّ جميعًا إذن؟!

يتبادل مع غيث نظرات ذات مغزى غفلت عنها المرأة وهي ترد

ببعض الشجن:

- لا يهم.. نصيحتي لك ألا تتجاوز عملك مع الولد لما سواه.. نعمان صار أشبه بوحش جريح لن يشبع نهمه سوى الأذى لنفسه ولمن حوله!

- تتحدثين كأنك تعرفينه جيدًا!

- ومن يعرفه مثلي؟!

لم يشأ أن يخبرها بما قاله نعمان عنها، فتجاوز إلى سؤال آخر عله يعرف المزيد:

- هل زرتِ البيت قريبًا؟

- لا حاجة لي لزيارته، كل نسائه يأتين إليَّ من آن لآخر لأجدد لهن وشم الحناء على كفوفهن كي لا يبلى.

يكتم غيث شهقة دهشته فيما تتجمد ملامح صفوان وهو يستعيد شكل الوشم على كف أرجوان وصابرينة ليسألها بصوت خرج رغمًا عنه مرتجفًا:

- كلهن تحمل كفوفهن نفس الوشم؟!

تهز المرأة رأسها في جواب قاطع ليعاود سؤالها بلهفة:

- من هن؟! ما قصتهن؟! كم واحدة هناك؟

ينبهه غيث بنحنحة خافتة بينما ترمقه المرأة بنظرة شك:

- وما شأنك؟!

يهادنها غيث بجواب موارب فيما يشيح صفوان بوجهه مدركًا أن مهمته في بيت الكرملاوي تزداد صعوبة!

يشعر بثقل هائل يجثم على صدره فيهرب إلى غرفته التي خصصتها له لعل النوم ينقذه.. لكن هيهات!

فهناك في حلمه كانت هي تقف أمامه.. أرجوان! كفها مستريحة في كفه كما كان في مصافحتهما الأخيرة.. لكنها لم تكن ترتدي ثوبًا أسود بل أبيض، شعرها كان متحررًا من شرائطه الذهبية يحلق كطير عابث بين وجهيهما.. عنقها خالٍ من قلادتها تمامًا كإصبعها الحرة من دبلتها.. لكن ذاك الوشم على كفها كان ينبض كأنه حي.. يذكره بما يقف بينهما! وكم يقف بينهما!

الغصن الثالث

«أسوأ ما تفعله بطفل أن تجعله يكبر فجأة! أن تشيب روحه داخل نفس الجسد الصغير، والأبشع أن يدرك أنه مهما فعل لن يصغر بعدها أبدًا».

***

تمر به الأيام سريعة في بيت الكرملاوي؟! أم هو الذي يتعجل أن يحقق أي نجاح في خطته؟!

نعمان؟! لم يلتقِ به من يومها ولا يعتقد أن لقاءه سيفيده كثيرًا.. غايته كلها في «ذات الوشم»! لكن من هي فيهن؟!

صابرينة؟! لم يكلمها كذلك منذ التقاها أول مرة لكنه ضبطها مرتين تختلس النظر إليه من خلف واحدة من أشجار الحديقة، تعمد ألا يشعرها أنه فعل لكن حدسه يزداد يقينًا أنها تخفي الكثير خلف واجهتها شديدة البراءة هذه!

أرجوان؟! حاجز ما ارتفع بينهما منذ لقائهما الأخير، صارت تهرب من ملاقاة عينيه مهما زاد اهتمامها بما يقوله عن الصغير، تكتِّف ساعديها كل مرة عند وداعه كأنما تقطع عليه سبيل المصافحة، حتى ابتسامتها الواهنة صارت مجرد رجفة شفاه!

تمامًا كما الآن وهي تستقبله على باب الغرفة التي خُصصت لعمله مع الصغير في حديقة الكرملاوي، بالكاد تجيد السيطرة على ناجي الذي يريد الركض ولا يتوقف عن الصراخ.

يتحرر الولد ليركض مبتعدًا فيلحقه كلاهما حتى يمسكه هو ليحمله ويرفعه في الهواء ملاعبًا هاتفًا بمرح:

- تريد الجلسة هنا اليوم في الهواء الطلق؟! لا بأس!

- لن تستطيع السيطرة عليه في مكان مفتوح.

تقولها بقلق ليلتفت نحوها مبتسمًا:

- الجدران المغلقة ليست ضمانًا للسيطرة.. صدقيني.. خذيها نصيحة من خبير.

تلتقي عيناهما للحظة لا تهرب فيها منه هذه المرة، ربما لأن عبارته مست جرحها بأكثر مما ينبغي! لماذا تشعر دومًا أن كلامه ليس كأي كلام؟! يريحها كأنه يترجم ما تشعر به بدقة وتعجز عن الإفصاح عنه!

بينما لم يكن هو أفضل منها حالًا وهو يشعر بالخيط الرفيع بينهما يزداد سمكًا يومًا بعد يوم! عجبًا لهذا الشعور الذي لم يعرفه في حياته سوى معها هي بالذات! شعور بـ «الونس»! شعور يجعله يستأنس فقط بشعاع من الشمس يسقط الآن بين عينيهما في نفس اللحظة فيكتفي متخمًا به!

لماذا هي بالذات؟! ربما لأنها مست قلبه من مكان جرحه القديم.. أمومتها!

لقد رأى في مجال عمله كيف تختلف ردود فعل الأمهات مع أطفالهن ذوي الاحتياجات الخاصة، رأى المهتمة والمستهترة، المحبَطة والمتأملة، رأى من تكتفي بالبكاء وندب حظها، ومن تتهم

نفسها بالتقصير شاعرة بالذنب دون فائدة، ومن على العكس تلقي الذنب على من سواها، لكن جميعهن كن يتفقن في شيء واحد كان يشعر به بحدسه، أنهن يرين أولادهن عبئًا ثقيلًا وإن لم يعترفن بهذا!

وحدها هي لم تجعله يشعر بهذا، رغم أنه لا يزال لا يعرف الكثير عن حكايتها، ورغم يقينه أنها تحتمل الكثير من الأذى هنا في هذا البيت، فإنها لا تتعامل مع ابنها كـ «عبء» على ظهرها، بل كأنه «قلبها» خرج قسرًا من جسدها ولن تحيا إلا بحمله ليعيشا معًا!

ورغمًا عنه تتعلق عيناه بالوشم على ظاهر كفها فتشتعل عيناه قبل قلبه...

ليتها لا تكون هي! ليته لا يكون مضطرًا إلى الوقوف أمامها هي في حربه التي يقصدها هنا!

لكن لو لم تكن هي.. فمن؟!

- أعِده للغرفة.. سيغضب السيد نعمان لو كسر شيئًا أو رآه أحد معارفنا.. هو لا يحب أن يراه أحد كي لا يعرف حالته.

همسها القلِق وهي تتلفت حولها يجبره أن يعود إلى «إطار لوحته» هنا في بيت الكرملاوي، فينفذ صوته داخلها هادئًا واثقًا ومطمئنًا:

- لا يعنيني غضب السيد نعمان بقدر ما يعنيني نجاحي في عملي مع ناجي.. لا بأس أن نقضي هنا بعض الوقت.. نطور إحساسه وإدراكه.. أغلب الأطفال الطبيعيين يتعرفون على الأشياء بحاسة البصر والسمع، بعض الأطفال يعتمدون على حاسة التذوق للإدراك،

لكنني انتبهت أن ناجي يتعرف عليها بحاسة اللمس أكثر.. يقلب أي شيء بين كفيه أولًا بشدة، انظري.. ألا تلاحظين حتى أن خشونتهما زائدة عن الطبيعي؟!

تنتبه لما يقول وهي ترى ابنها يجلس على العُشب، يقطع بعضه ويفركه بين كفيه، كذلك يفعل بالجذع الضخم للشجرة التي يستقرون تحتها.. يمسده بكفيه بقوة كأنه لن يشعر به إلا هكذا!

- لهذا أحضرت له هذا.. سيستمتع به كثيرًا!

يقولها وهو يتحرك ليحضر حقيبة أدواته، يفتحها ليستخرج منها صندوقًا مبهرج الألوان متوسط الحجم ملأه بالرمل ووضعه أمام الصغير الذي انفرجت أساريره وهو يحرك الرمل بين أصابعه ثم يلقيه على رأسه.

- سيتسخ جسده وثيابه.. لو رآه السيد نعمان.

- ربما عليكِ التوقف قليلًا عن التفكير في السيد نعمان.. فكري في ناجي فقط.

يقاطع بها عبارتها بصوته الهادئ، فترتعش حروفها:

- تتهمني بالتقصير؟! تظنني لا أفكر في ابني بما يكفي؟!

وكأنما عز عليه أن يكون هذا ظنها في نظرته لها، فيقول بصدق:

- أخبرك شيئًا؟! أنت سبب قبولي لحالته رغم صعوبتها!

- أنا؟!

يومئ برأسه ليجيبها:

- في العادة تحتاجني الأم لأعطيها الأمل والإيمان في تعافي ابنها، لكن معك أنت.. ولأول مرة يحدث العكس.. كلما أرى كيف تنظرين إليه، كيف تعانقينه رغم صعوبة التواصل الجسدي العاطفي في حالته، كيف تتحركين حوله كأنك تحميه من كل اتجاه، أشعر أن كل هذا حتمًا لن يضيع هدرًا.. لن يشقى طفلٌ أنتِ أمه!

«لن يشقى طفلٌ أنتِ أمه!».

كانت تظن أن دموعها جفت منذ سنوات بعيدة، دفنتها حيث دفنت أحلامها ومشاعرها وما بقي من عمرها، لكن ها هي ذي كلماته تفعل بها الأفاعيل، تشعرها بحرقة أول دمعة تعرفها عيناها منذ زمن.. هذه التي انزوت على طرف جفنها دون أن تسقط!

- آسف! هل أبكيتك؟!

هل تخُزنا نعومة الحنان أحيانًا كأنها نصل حاد؟! ربما عندما تذكرنا بما فقدناه وافتقدناه! تعرف هذا الجرح الدفين داخلك والذي يجعلك كلما تصطدم بلطف أحدهم تريد أن تهز كتفيه بقوة هاتفًا: «هل أصدقك؟! أنت حقيقي؟! أم أنك فقط تنتظر الفرصة لتطعنني في نفس الموضع الذي قصده من سبقوك؟!»!

ربما لهذا فقدت السيطرة على نفسها تمامًا لتهتف بارتباك وهي تنحني لتحمل الصغير قسرًا كأنها تهرب:

- عد به إلى الغرفة أفضل!

وكأنما يعاقبها الصغير الذي شد خصلات شعرها بقوة ذكرتها بأبيه وكرهت أن تشعر بهذا ولو رغمًا عنها، لهذا شددت عناقها الحاني له بينما يحاول هو التملص من بين ذراعيها لتصرخ بألم وهي تراه يشد قلادتها لتنقطع جارحةً عنقها، لكن ما جعل صرخاتها تتوالى هي رؤيتها للدلاية بصورة آدم تسقط متدحرجة على حشائش الحديقة!

تنظر برعب حيث باب البيت نصف المفتوح نحو البئر القديمة كأنها تتوقع بسوء حظها أن يكون هناك.. لكنه لم يكن!

- لا بأس.. ها هي ذي!

يناولها صفوان دلايتها وهو يتولى شأن ناجي محاولًا السيطرة على سلوكه فتختطفها منه ولا تزال نظراتها معلقة بباب البيت تكرر همسها ظاهره إصرار وباطنه خوف:

- سأصلحها.. سأصلحها...

تقولها لتتراجع بظهرها إلى الخلف باعتذار خافت واعدة بعودة قريبة!

يراقب خطواتها الراكضة نحو الداخل بأسف مشوب بغيرة، إلى هذه الدرجة تحب ذاك الرجل؟!

- ركّز يا صفوان.. لا يشتتك شيء عن هدفك!

يقطع بها على نفسه طريق مشاعره الغريبة نحوها، ضميره المهني لا يخونه وهو يولي تركيزه كاملًا بعدها للصغير، لكن الظروف تتآمر عليه من جديد وهو يميز بضع شعيرات من شعرها بقيت في قبضة

الصغير، يفكها ببطء من بين أنامله ليطيل النظر إليها، رغبة عارمة تنتابه في لمسها بشفتيه أو رفعها لأنفه، لكنه لا يزال يجيد السيطرة على انفعالاته -حتى الآن على الأقل- فيكتفي بدسها في جيب قميصه أقرب ما تكون إلى صدره، غافلًا عن زوجين من العينين الزرقاوين تراقبانه من خلف شجرة قريبة!

يستمر في عمله مع الصغير لوقت طويل بعدها حتى يشعر بلزوم انتهاء جلسته، يربت على رأس الولد بحنان ثم يمنحه نوعًا خاصًا من العصائر الخالية من السكر في حمية خاصة يتبعها لحالته...

لكن عينيه تصطدمان بشيء ما مخبأ بعناية في قاعدة جذع شجرة «الدلب» المعمرة التي يجلس تحتها...

يتلفت حوله بحذر ثم ينحني ليجمع أشياءه في حقيبته، يتظاهر بربط شريط حذائه لتمتد أنامله فتحرر الشيء المخبأ من مكمنه ليلقيه في الحقيبة بخفة ثم يغلقها بسرعة!

ينادي الخادمة كي تستدعي أرجوان، ظاهر الأمر أنه يريد أن يعطيها تقريرًا عما فعله مع الصغير هذه الجلسة وما عليها فعله معه بعد رحيله.. لكن باطنه أنه كان يريد أن يطمئن عليها خاصة مع حالتها الغريبة بعد قطع قلادتها.

لكن من أتته بابتسامتها الوديعة لم تكن الخادمة ولا أرجوان.. بل صابرينة!

هل تتمايل في مشيتها عمدًا أم أن جسدًا كهذا مهما تحشم لا يليق به سوى رقص الخطوات؟!

هل تدعوه بنظراتها قاصدة أم أن عينين كهاتين مهما تحفظتا لا يليق بهما سوى إغراء الغواية؟!

ومن جديد يشعر أنه رغم خبرته -التي يتندر بها- في البشر يرتطم أمامها هي بحائط سد!

حنانها الحقيقي وهي تداعب ناجي، تحمله بين ذراعيها، تمشط شعره بأناملها مع قبلاتها الخفيفة لملامحه تضعها في خانة ما...

لكن ماذا عن ابتسامتها شبه الماكرة وهي تنظر نحوه هو بقولها: «أرجوان متعَبة قليلًا.. لهذا أرسلتني مكانها.. تعرف أن ناجي شد شعرها بقوة لهذا هي تشعر بالصداع قليلًا»؟!

هل حاد بصرها نحو جيبه حيث يخفي شعيراتها المسروقة أم أنه يتوهم؟!

يتمالك نفسه بحنكة لا تنقصه وهو يرد بهدوئه المرح:

- لا بأس.. سأخبركِ بما كنت سأقوله لها على أي حال.

يتعامل بمهنية تامة وهو يشرح لها ما ينبغي فعله، فتبدو مهتمة تمامًا لترد وابتسامتها تتسع:

- سننفذ كل ما قلته...

ثم تتنهد مردفة:

- لم أرزق بعد بأطفال من «نعمان».. لهذا أعتبر ناجي كابني تمامًا!

جيدًا على الأقل يوجد في هذا البيت من يدعوه «نعمان» هكذا

دون ألقاب.. لو لم تكن الرخصة لـ «صاروخ نووي» كهذه فلمن تكون؟!

يكتم ابتسامته الساخرة مع حديث نفسه لكن يبدو أنها هي الأخرى لم تكن أقل منه خطورة في قراءة الأفكار، هكذا بدت ابتسامتها الواثقة التي حملت طيفًا من مرارة وهي تردف:

- أرجوان كذلك مثل أختي تمامًا.

- تعرفينها منذ زمن؟!

يسألها ببراءة مصطنعة وهو يغض بصره عنها متشاغلًا باللعب في ساعة معصمه، لترد:

- أنا تربيت في ملجأ للأيتام، عندما خرجت منه إلى الشارع لم أجد سوى ذراعَي أم أرجوان، آوتني وربتني في بيتها مع ابنتها، لهذا عندما أقول إنها أختي لا أبالغ كثيرًا كما ترى.

تنفرج شفتاه بصدمته مع كلماتها التي لم يتوقعها وعيناه تتعلقان بالوشم على ظاهر كفها.. أتكون هي من يبحث عنها؟! أيكون هذا سبب ما فعلته؟! لكنه خشي أن يفتضح انفعاله فآثر الانسحاب الآمن وهو يعطيها ظهره بهزة رأس تشبه تحية وداع.

- صفوان.

يتعجب جرأة صوتها القوي أو ربما هو فقط كذلك مقارنةً بصوت أرجوان الواهن المبحوح، يلتفت نحوها لتربت على رأس الولد المحمول على ذراعها قائلة:

- اعتنِ به...

ثم يخفت صوتها حد الهمس وعيناها من جديد تحيدان نحو جيب مسروقاته:

- وبها.

هل قالتها حقًّا أم أنه يتوهم؟! هل رأته وهو يخفي كنز شعرها المسروق في جيبه؟! نظراتها البريئة بوداعتها لا توحي بهذا إطلاقًا!

***

خارج بيت الكرملاوي تجلس صابرينة على ركبتيها أمام بعض قطط الشوارع التي التفت حول طبق الطعام الذي وضعته هي لها...

تتأملها عيناها الزرقاوان بحنان وهي تداعب ظهورها برفق تستأنس بموائها الراضي...

- كُلوا واشبعوا.. أعرف قسوة الجوع.

تتمتم بها بشرود وأناملها تمسد بطنها، كأنما لا تزال تشعر بقَرصة الجوع عندما كانت في صغرها..

- جوعانة؟! يمكنني إحضار المزيد من الطعام لكِ.

قالها حارس الملجأ تلك الليلة البعيدة ولا تزال طفلة تتعثر في ثوبها الطويل...

- جدًّا يا عم.

- يا لجمال عينيك هاتين! وشعرك الطويل الناعم! خسارة أن تنتمي مثلك إلى هذا المكان!

- ليس لي غيره.. لكنني سأكبر وأبحث عن عمل كي أدخر المال.

- وماذا ستشترين بالمال؟! بيتًا؟! سيارة؟! ثيابًا؟! حلوى؟!

- عائلة! سأشتري عائلة!

تهتف بها ببراءتها الطفولية فيرد بضحكة ساخرة لم تفهمها في حينها، يمسك يدها ليبتعد بها نحو مكان مظلم قريب...

- إلى أين يا عم؟!

- نشتري طعامًا اليوم.. وغدًا نشتري عائلة.

- حقًّا؟!

فرحتها تمتزج ببعض الخوف وهي تميز ظلمة المكان الذي سحبها إليه، يستخرج من جيبه قالب حلوى يرفعه أمام عينيها الجائعتين.. فتختطفه منه بلهفة محرومة هاتفة:

- أنت اشتريته؟!

- بل أنتِ.. ويجب أن تدفعي الثمن!

ولأول مرة في عمرها فهمت أن تدفع ثمن الطعام من جسدها، أن تسد جوعها بجوع آخر لن يمكنها أن تشبعه أبدًا، أن تخرس صوت الخوف داخلها كي لا يسمعه أحد فيعاقبونها هي كما فعلوا بعدها عندما تجرأت لتشكو لمديرة الملجأ من أفعال الحارس، ساعتها أجرت لها كشفًا طبيًّا مهينًا لا تزال تذكر أثره البشع في روحها، قبل أن تتهمها بالكذب! هو بريء ما دامت لا تزال عذراء!

ومن وقتها وفي كل مرة كانت تصطدم فيها بنظراته المتشفية التي تكاد تعريها من ثيابها كانت تشعر كأنها ربطت على بطنها حجرًا.. لن تجوع بعد اليوم.. لن تسمح لنفسها أن تشعر بالجوع.. معدتها طاوعتها لكن قلبها؟! هذا بقي على جوعه متمردًا! أسوأ ما يمكن أن يحس به طفل أن يشعر أنه قد كبر فجأة وأنه مهما فعل لن يعود أبدًا صغيرًا كما كان!

عندما خرجت من الملجأ وسمعت ما يشيعونه عن أسطورة البئر القديمة على أطراف المدينة ذهبت إليها.. زعموا أنها لو تمنت أمنية ليلة اكتمال البدر وهي تلقي داخل البئر زهرة بلا أشواك فستتحقق!

صدّقت الأسطورة وفعلت ما قالوا! ليلتها وجدت نفسها تعود طفلة تتمنى شيئًا واحدًا.. أن تشتري عائلة.. كي لا تجوع ولا تخاف ولا تشعر بالوحدة!

وتحققت أمنيتها بعدها بزمن غير قصير.. وتزوجت نعمان.. اشترت حقًّا عائلة! لكن قلبها لا يزال جائعًا! والأدهى أنها هي الحمقاء التي لم تنتبه أنها دفعت الثمن من جسدها من جديد!

- ألم أقل إن دخول القطط للبيت ممنوع؟!

تشهق بعنف وصوت نعمان الصارم يجبرها على الوقوف، تتعثر قدماها بطبق الطعام فتسقط محتوياته ليعلو مواء القطط ويعلو معه هتاف نعمان الغاضب:

- تتعمدين عصيان أوامري.

- لم تدخل القطط البيت، بقيت خارجه كما ترى.

تثيره دومًا لهجتها الغريبة التي يختلط فيها الخنوع بالتحدي في مزيج متجانس تمامًا فلا يفهم لأيهما تميل!

يعتصر ساعديها بقبضتيه وهو يدخلها للحديقة، يلصق ظهرها بإحدى الأشجار هاتفًا أمام عينيها بحِدة:

- القطط تذكرك بنفسك؟! هه؟! أنتِ بكل جمالك هذا لستِ سوى قطة شوارع أنا فقط من منحتها بيتًا وحياة وقيمة.

يهيأ إليه أن زرقة عينيها الصافية تستحيل إلى جمرتين من نار وحروفها رغم برودة لهجتها تشتعل معها:

- وهل أنكرت فضلك؟!

ترتعش عقدة حنجرته بارتباك يأبى الاعتراف به معها.. لقد اعتاد أن يتعامل مع النساء في حياته كـ «قطعة لادن»، يمضغها مستمتعًا بسكريَّتها حتى يتلاشى مذاقها فيلفظها زاهدًا.. فما بالها هي التصقت بسقف حلقه ويبدو أنها لن تغادره إلا بخروج روحه نفسها؟! هل أحبها؟! وهل يعرف مثله الحب؟! إلى الآن لا يعرف سببًا لإبقائها على ذمته سوى أنه لا يمكنه أن يخرج أحدًا من حياته الآن.. ليس الآن حتمًا.. ليس قبل أن يعرف الحقيقة ويتخلص من وحش الشك الذي ينهشه بمخالبه!

- تبدو متعَبًا؟! تعالَ...

ربما كان هذا سبب آخر يدفعه للتمسك بها، هذه الطريقة التي

تدللـه بها بين حنان أم وغواية لعوب، كم تجيد التراقص على الخط الرفيع بينهما!

ها هي ذي تسير معه نحو غرفته، تساعده في تبديل ملابسه، تطلب الطعام وتجلس جواره تطعمه بنفسه، تقبل رأسه ثم تعدل جلستها لتريحه على ساقيها، تمشط أناملها شعره الناعم الذي عجز الشيب نفسه عن مداهمته رغم بلوغه الخمسين، تهمس بصوت ناعم كأنه تهويدة:

- أنت منحتني الأمنية الوحيدة التي طلبتها في حياتي كلها.. عائلة وبيتًا.. لهذا سأبقى طوال عمري مدينة لك بعمري كله.. أعرف كم يؤلمك قلبك هذه الأيام.. أسمع الآهة التي تطلقها روحك ولا تقوى على النطق بها.. لا تخيفني قسوتك لأنني أعرف ما وراءها من جرحك.

يقاوم تأثيرها السحري في نفسه وهو يتجاهل قولها بسؤاله:

- ما رأيك في صفوان هذا؟!

- وما شأني به؟!

تقولها بسرعة ألهمها إياها ذكاؤها ودرايتها بطباعه، لقد تعودت ألاعيبه هذه، لا ريب أن له أعينًا تراقب كل حركة لصفوان في البيت، أحدهم لا بد أخبره أنها كلمته اليوم.. لهذا تعمدت كسوة كلامها بالعفوية وهي تحكي له عما حدث اليوم، وكيف اضطرت إلى محادثته اليوم عندما ساءت حالة أرجوان بعدما قطع ناجي قلادتها!

يطلق سبة غاضبة وهو يعاود سؤالها:

- تظنين أن هناك علاقة خفية بينها وبين ذاك الرجل؟! مصادفة تبادل الهواتف هذه لم تدخل رأسي أبدًا!

- علاقة خفية؟! لا.. لا.. إطلاقًا...

ثم تتلكأ كلماتها متعمدةً حفر أثرها:

- أنت تعرف أن قلب أرجوان معلق بواحد فقط.

يغمض عينيه بمزيج من غضب وألم ناسب قوله:

- لن تبقى هكذا طويلًا.

فتسأله بحذر:

- ماذا تقصد؟! ألا تزال ساخطًا على زواجها بآدم بعد كل هذا الوقت؟!

يغمض عينيه مخفيًا عنها جرحه فتكتم ابتسامة ماكرة تجاهد للطفو على شفتيها وهي تعيد مداعبة رأسه على ساقيها بأناملها:

- أعرف أن هذا ما دفعك إلى قبول وجود صفوان هنا في البيت أول الأمر.. كنت تشك فيهما...

زفرته القصيرة تساوي اعترافًا فتردف:

- لكن لا أساس لهذا الشك.. صدقني...

- وما يدريني أنكِ لا تتسترين عليها؟! ألم تكن صديقتك قبل أن

تدخلي حتى هذا البيت؟!

- تعرف أن انتمائي صار لك وحدك! كِفتك وحدك ترجح دومًا مهما وضعوا في الكفة المقابلة.

تقولها ليزداد صوتها نعومة وسحرًا وعزف أناملها على وجنته يتصاعد:

- نم يا نعمان.. أرِح عقلك وجسدك.. صدقني رجل مثلك لن يخذله القدر.. اصبر وستعرف كل ما تريد أن تعرفه.. مثلك لا يستطيع أحد أن يخدعه.

كأنما هذا بالضبط هو ما يحتاج سماعه الآن ليستسلم للنوم.. وسببٌ آخر أنه لا تزال «قطعة اللادن» خاصتها ملتصقة بسقف حلقه!

***

لم تكد تستمع لصوت أنفاسه المنتظمة حتى أزاحت رأسه برفق عن ساقيها لتضعه على وسادة قريبة، تقبل جبينه بنعومة وابتسامة شفتيها تتسع بينما تتحرك نحو خزانة ملابسها حيث أخفت دفترها في طيات بعض ثيابها.

تستخرجه لتجلس على الأرض وتقرأ أول ما سطرته فيه يومًا:

«ابني الذي لم أنجبه بعد...

افتقدتك قبل أن أراك.. تعالَ احكِ لك هنا عن أمك.. فأسوأ هواجسي ألا أكون موجودة عندما تأتي.. أن تفقدني قبل أن تجدني.. مثلي تمامًا عندما وعيت على هذا العالم وتمنيت لو أعرف عن أمي

أي شيء.. أي شيء ولو مجرد اسمها!

بمناسبة الأسماء.. تعرف أنهم في الملجأ كانوا يسخرون من اسمي.. حرفوه من «صابرينة» إلى «صبارة».. كانوا يشبهونني بنبتة الصبار، كانوا يقولون لي إنني مثلها.. أفتح ذراعيَّ في دعوة خادعة للعناق لكنني أعلم كالجميع أنني لا أحضن أحدًا ولا يحضنني أحد.. الشوك قدري وخطيئتي وعقابي! وبعد كل هذا العمر أشهد أنهم ربما.. ربما كانوا فعلًا على حق!

«صبارة» يليق بي أكثر.. لكن ربما لو أتيت أنت تعيد لي اسمي.. عناقك لن يشبهه عناق.. سينتزع مني كل أشواكي ويمنحني أجمل ما يمكن أن يمنحه طفل لأمه.. الأمل».

تنتهي من قراءتها لتمسد بطنها برجاء وهي ترفع وجهها لأعلى...

ثم تكتب:

«هنا سأحكي لك قصتي دون أن أكذب أو أتصنع.. يحب الأطفال الحكايات.. لهذا سأحكي لك قصة لكن لا أعدك بأن تكون النهاية سعيدة.. قصة «قنفذ مخملي» نجح أن يخفي أشواكه برداء من حرير، لكنه كان يوقن أن أصله شوكيٌّ.. مكتوبٌ على لوح قدره أن يؤذي وأن يؤذَى!».

تسمع وقع خطوات يقترب من الغرفة فتعيد دفترها إلى مخبئه بسرعة، تتأكد من نوم نعمان ثم تفتح الباب ليطالعها وجه أرجوان الممتقع، تعانقها بلهفة قلقة ثم تبتعد بها عن الغرفة، تسألها هامسة عما حدث لترد أرجوان بصوت شاحب وهي تتحسس عنقها الخالي

من قلادتها المقطوعة:

- كان موعدي مع آدم عند البئر منذ قليل كعادتنا.. لكنه لم يأتِ.. إنها المرة الأولى التي يخلف فيها موعده!

أنا المنبوذ

أنا آدم نعمان الكرملاوي...

في طفولتي كنت أكره اسمي.. يحب المرء منا اسمه عندما يناديه به من يحبونه وأنا لم أشعر يومًا أن أحدهم يحبني.. كنت أمسك فرشاة ألواني، أخترع لونًا لكل شعور.. الأخضر للشفقة، الأزرق للخوف، الأسود للحزن، الأحمر للغضب، كل هذه الألوان كانت تجد مكانها على لوحتي ممن يحيطونني.. بقي فقط الوردي.. ذاك الخاص بالحب.. ظل طويلًا غائبًا عن فوضى الألوان في اللوحة، لم يحمل أحدهم لي صبغته!

«لماذا لا تعانقني أمي كبقية الأطفال؟!»، كان هذا أول سؤال ضربني كالسوط على ظهر طفولتي! لماذا تصرخ كلما فتحت عليها باب غرفتها التي يحبسونها فيها؟! لماذا لا تسقط عيناها على وجهي بل تهرب إلى فراغ بعيد بدا وكأنه قد اختطفها؟! لماذا يبدو لي معصماها مقيدين بأغلال غير مرئية وهي تضمهما إلى صدرها؟! أين صوتها؟! لماذا لا تجيد الكلام إلا بهذه الهمهمة المتصلة كخيط من آهات طويلة؟! لماذا يعاقبني أبي نعمان كلما تسللت إليها خلسة ثم يغير الخادمة التي تحتفظ بمفتاح غرفتها؟! بل أنني عندما سألته يومًا عن اسمها تلجلج وفكر للحظات كأنه نسيه!

«وردة».. أخبرتني باسمها إحدى الخادمات ذات يوم قبل أن يعاقبها أبي بالطرد، وردة! غريب! طالما بدت لي أمي كـ «نبتة ظل» لا ترى الشمس ولا تنتظر الاهتمام، تنمو فلا تُرَى وتذبل فلا يُحَسُّ بها!

لماذا لا تشعر بي أمي؟! لماذا لا تعرفني أمي كما تعرف الأم ولدها؟! لماذا لا تناديني؟! لا تنام جواري؟! لا تلعب معي ولا تمشط شعري؟! لماذا أجهل مذاق شفتيها الحنونتين على بشرتي؟!

منبوذ! كانت أمي سبب أول شعور بالنبذ عرفته في حياتي، وكان أبي الثاني! كانت له نظرتان فهمتهما جيدًا رغم صغر سني وقتها وأجدت التمييز بينهما.. نظرة أمام الناس، هذه لونتها بالبرتقالي الذي يعني الفخر، ونظرة عندما نكون وحدنا وهذه حملت لون الخيبة، الرمادي!

كان نعمان يحبني، يحبني بطريقته! لم يعانقني يومًا لكنه كان يضع ذراعه خلف ظهري كأنه يدفعني ويمنعني الابتعاد عنه في نفس الوقت، لم يكن يذكر محاسني أمامي لكنه كان يتفاخر أمام الناس بوريث العائلة الذي سيضمن امتداد نسلها، عندما كنت أمرض لم يكن يسمح لي أن أرى قلقه عليّ بل نظرة غضبه المتوعدة للطبيب لو أهمل في علاجي.. هكذا كان حب نعمان! لم يسألني يومًا عن رأيي فقد كنت بالنسبة إليه مجرد ذراع يحركها كيف شاء، قدم تسير أينما شاء، دماء تنزف كي يتعافى جسده هو!

لم يرني سوى كقطعة أثاث تكمل بيت الكرملاوي، حتى في تلك الليالي التي كنت أستيقظ فيها مذعورًا على إثر كابوس، كنت أركض إلى غرفته كي أنام جواره لكنه كان يبعدني بعنف هاتفًا أن الرجل لا يخاف، يجبرني على العودة إلى فراشي وحدي كي يجمد قلبي بزعمه فكنت أنتظر قليلًا ثم أتسلل للمكان الذي أظنني لم يبق لي غيره! باب غرفة أمي المحبوسة فيها، أطرقها كالمتسولين برفق فلا

ترد، أتلفَّت حولي كاللص مخافة أن يراني أبي هناك ثم أستسلم للنوم على عتبتها، لعل المعجزة تحدث فيُفتَح الباب، لكنه بقي مغلقًا في وجهي إلى الأبد!

«نعمان تزوج ابنة عمه المختلة عقليًا وهو ابن الثامنة عشرة ولا تزال هي في الرابعة عشرة، تزوجها كي يضمن نصيبها في إرث عائلة الكرملاوي، وقد ضمنه فعلًا تمامًا بولادتها لابنه آدم، فلم تعد له حاجة بها».

هكذا سمعت الحقيقة يومًا مجردة من لسان إحدى الخادمات وهي تثرثر بها لأخرى فزاد فهمي لما يجري هنا في البيت، يومها دخل عليّ نعمان يحمل دمية «ماتريوشكا» بشكلها المميز حيث تخرج كل قطعة من قطعة أكبر منها، يشرح لي كيف أن رجال العائلة مكلفون بالحفظ على إرثها ومكانتها، وجدتني ساعتها رغمًا عني أنتزع أصغر قطعها لألقيها في البئر، لم أكن أريد أن أكون نعمان آخرا!

كبرت قليلًا ودخلت عالم القصص، دفنت نفسي في عوالم الخيال، ورأيتني أغير اسمي في خيالي من «آدم» إلى «آريس»، «معبود الحرب» الإغريقي، المعبود المنبوذ الذي هو دومًا غير أهل للثقة، والذي لا تعرف متي ولا كيف سيضرب ضربته، هو رمز الحرب والدمار والانتقام، كم رأيتني مثله أركب عربتي التي تجرها خيول بأربطة ذهبية، أرتدي درعي البرونزي وبين يدي رمحي، أقتحم غرفة أمي فأحررها، أهديها صوتًا وعقلًا وعمرًا وحياة!

لكنني بقيت مجرد طفل عاجز لا أشبه آريس إلا في كونه ملعونًا

منبوذًا لا يعرف سوى الدمار والحرب!

وعندما كبرت قليلًا.. وشعرت أنه يمكنني أن أحمل درعي ورمحي.. كان الأوان قد فات.. ماتت أمي!

«وما معنى أن تموت؟! هل كانت حية بالنسبة إليك أصلًا؟!».

كانت هذه عبارة المواساة التي منحني إياها نعمان! ولأول مرة في حياتي أردت تصديقه! أردت حقًّا أن أقتنع أن لا فارقًا هنالك!

فتحوا غرفتها التي كانت دومًا مغلقة، فتحوا نوافذها على مصراعيها، وأغلقوا في قلبي بابًا لن يفتحه أحد! كنت راضيًا أن أبقى العمر جالسًا على عتبة الغرفة المغلقة على أمل أن تفتح لي هي يومًا أو حتى أكسره أنا، لكن التراب الذي غطى جسدها غطى قلبي معه، ولأول مرة فهمت معنى أن يمشي المرء منا وداخل قلبه مقبرة!

ساعتها عاهدت نفسي -أنا المنبوذ- ألا يحمل قلبي مقبرة أخرى.. ألا يحرمني أحدهم شخصًا أحبه مهما كان الثمن.. فما بالكم لو كان هذا الشخص هو المرأة الوحيدة التي أحببتها في حياتي؟! أرجوان! لا خطوط حمراء حينئذ.. أبدًا!

***

في غرفته ببيت راوية يجلس صفوان على الأرض مسندًا ظهره إلى قائمة فراشه، يراقب القمر عبر النافذة المفتوحة...

يشق عليه أن يقسو على «كنزه المسروق» من شعراتها ولو بقبضة كف فيبقي راحته مفتوحة، ابتسامته الشاردة تخز قلبه وهو يحاول

التذكر.. متى كانت آخر مرة لان فيها قلبه هكذا؟!

يتحسس وحمته المخفية في وجنته بأنامله الحرة مستحضرًا «طيفًا قديمًا» وهو يستعيد مذاق قبلات ناعمة لا يزال مذاقها الطازج يعيِّر قلبه بالجوع للمزيد.. من ذا القادر على سد جوع كهذا؟! لا أحد.

يستحيل القمر في عينيه فوهة بركان تشتعل معها عيناه ويجدد فيها قسمه لنفسه.. سيعرف الحقيقة.. سيطفئ نار الحيرة التي تكتوي بها ضلوعه منذ سنوات!

- شعرها؟!

الهمس الخافت خلفه يجبره على الالتفات فيتنحنح وهو يميز وجه غيث المبتسم بمكر، يشيح بوجهه فيجلس صديقه جواره نفس جلسته، يلكزه كتفًا بكتف ليجبره على النظر إليه فيسأله صفوان متغابيًا وهو يخفي كفه خلف ظهره:

- من تقصد؟!

- ألم أقل إنك ستحبها؟! دعني أقولها أنا هذه المرة...

ثم يغمزه مقلدًا لهجته وأسلوبه: «عيب يا لذيذ.. هو أنا تلميذ؟!».

يبتسم صفوان رغمًا عنه مطرقًا برأسه، خشونة صوته لا تسعفه:

- لا يذهب خيالك بعيدًا.. الطفل شد شعرها.

- وأنت لماذا أخذته؟!

يشيح صفوان بوجهه دون رد فيتنهد غيث ليقول بجدية تامة:

- لندع المزاح جانبًا! لن أحاسبك على مشاعرك فالقلب له أحكامه، لكن دعني أسألك هل تعرف أين تودي بك خطواتك معها؟! لن أكلمك عن نعمان ولا آدم.. عن كل ما ومن يقف بينكما.. لكن هل تذكر لماذا دخلت هذا البيت؟! وعمن تبحث؟! ماذا عن شعورها لو عرفت أنك خدعتها فقط لكي يمكنك دخول البيت، هذا لو لم تكن هي أصلًا صاحبة الوشم التي تبحث عنها؟!

يزفر صفوان وهو يقف مكانه، يقترب من النافذة مراقبًا القمر الذي بدا له في هذه اللحظة رغم سطوع نوره كأنه مليء بالحفر! من ذا الذي تسعفه مهارته كي لا يسقط في إحداها؟!

لكنه يلتفت أخيرًا ليقول لصاحبه بحزم:

- لا تقلق.. أنا أذكر جيدًا.. اليوم وجدت طرف خيط لكن كرة الخيط نفسها تزداد تشابكًا.. ومع هذا لن أهدأ حتى أصل.. هذا قسَمي لنفسي ولن أحنث به أبدًا.

يهز له صديقه رأسه بتفهم ثم يقول بحذر:

- تعرف أن معلوماتي عن بيت الكرملاوي ليست كافية بحكم دراستي وعملي خارج المدينة، لكنني استدرجت أمي في الحديث وعرفت أن هناك امرأتين لم تقابلهما أنت في بيت الكرملاوي.. كلتاهما تحملان نفس الوشم.. إحداهما شقيقته هذه أسمع عنها منذ زمن ورأيتها بضع مرات هنا...

- والأخرى؟!

- الأخرى لها بهم صلة قرابة بعيدة وتعمل في مصنعهم منذ مدة طويلة.. من المدينة هنا لكن بيتها احترق منذ بضعة أشهر لهذا عرض عليها نعمان الإقامة في الملحق الخلفي للبيت خاصة وأن ظروفها المادية ليست جيدة.

- هن أربعة إذن! من منهن يا ترى؟! من؟!

يتمتم بها صفوان بشرود وهو يستعيد في ذهنه ما وجده مدفونًا اليوم في جذع شجرة «الدلب».. تراه سيوصله إلى شيء؟!

الغصن الرابع

«لا تعطِني سمكة ولا تعلمني الصيد.. يكفيني ألا تجعلني أخاف البحر وأنا معك».

***

أنا العاشق

أنا آدم نعمان الكرملاوي.. أعترف أنني لم أعشق امرأة في حياتي إلا هي.. أرجوان. وحدها جاءت باللون الوردي الذي افتقدته لوحة ألواني قبلها!

متى أحببتها؟!

منذ اصطدم بها بصري أول مرة.. كانت لها عينان عسليتان كعينَي أمي، وشعر كستنائي كشعرها، وجسد نحيف كجسدها غير أنها كانت تجيد الكلام دون أن تصرخ، كان يمكنها النظر إليّ ومناداتي باسمي، بل ومعانقتي لو شاءت! فكيف لا أحبها؟!

كانت معي في المدرسة صفًّا بصف.. وكانت الأجمل والألطف والأمهر والأهدأ.. فكيف لا أستحقها؟!

كل الأطفال كانوا يسعون لمجرد الحديث معها، لكنها كانت تعرف قيمتي جيدًا، كانت تدرك أنني الأفضل، فكيف لا تحبني؟!

أذكر ذلك اليوم في احتفال عيد الأم بالمدرسة عندما ضجت روحي بالحرمان، الأغبياء يحتفلون بيوم كهذا دون أن يعيروا من هو مثلي اهتمامًا! كانوا ينشدون أغانيهم على المسرح بينما ركضت أنا أختبئ تحت شجرة في فناء المدرسة، طالما كان الشجر يذكرني بأمي خاصة وقد تمردت أشجار الكرملاوي كلها بعد رحيلها فلم تعد تزهر! أو هكذا كنت أقنع نفسي! لكن هذه الشجرة مزهرة، أزهارها وردية كخدَّي أمي، كشفتيها، وكـ «مريولة» أرجوان التي كانت

تتقدم الآن نحوي، تركت الجميع لأجلي كي تربت على كتفي، أي قوة سحرية جعلتها تقطف زهرة وردية لتمنحها لي في هذه اللحظة كأنها قرأت أفكاري؟! وكأنني من وقتها اعتبرت زهرتها صك ملكيتي لها طوال العمر!

متى اعترفت لها بحبي؟! الغريب أنني لم أفعل.. هي قرأتها في عيني وأنا كذلك بينما نكبر يومًا بعد يوم، كنا ننتهز الفرصة لنلتقي عند البئر القديمة، هناك حيث السور القصير المجاور لها والتي كسرت أنا جزءًا من قمته لأمهد لها مجلسًا تبدو عندما تجلس فوقه كأنها ملكة على عرش لا يعرفه سوانا.. هناك حفرت هي اسمينا على حائطه ثم طلته باللون الذهبي، وأخبرتني أنها صدقت الأسطورة وأنها ألقت لأجلي زهرة حمراء في ليلة بدر مكتمل! كنت أمنيتها كما كانت أمنيتي!

شيء واحد كان يعكر صفو حبي لها.. أنها دومًا تخون! تتخلى عندما أرخي لها الحبل وأمنحها الأمان فتضربني من خلف ظهري!

كنت أعاقبها لكنني كنت أعرف -مثلها- أننا سنعود آخر الأمر.

لهذا عندما أهديت لها قلادة بصورتي ليلة خطبتنا تعمدت أن تكون شديدة القصر كأنها طوق حول رقبتها كي تفهم أنها لا يمكنها الهرب مني أبدًا.. لن يحرمني أحد منها ولا هي حتى نفسها ما دام في صدري نفس يتردد.

هل يفسر هذا سبب أنني توقفت عن مدح جمالها وقد شعرته سببًا في غرورها؟! كان الناس يمدحون جمال عينيها وكنت أنبهها دومًا

لأن إحداهما أوسع من الأخرى بشكل غريب، كان الناس يمدحون جمال شعرها وكنت أنبهها لتقصُّفه وبهتان لونه حتى إنني منحتها شرائط ذهبية كي تجدلها معه فتزيد لمعته، ماذا يساوي شعرها دون شرائطي؟! كان الناس يمدحون ضحكتها وكنت أنبهها لأسنانها غير المنتظمة التي تجعل ضحكتها مثيرة للسخرية! لم أكن أريد مضايقتها، كنت فقط أنتزع سلاحها الذي تطعنني به كل مرة! جمالها!

جمالها الذي يدفعها دومًا للخيانة رغم عشقها لي وعشقي لها!

كم عقبة وقفت بيننا؟! الكثير والكثير حتى ما عدت أحسب! لكنني كنت قادرًا دومًا على إزاحتها كلها!

رفض نعمان زواجي بها، بنى بيننا ألف سور لكنني هدمتها جميعًا!

كنت مؤمنًا بحبنا وبقدرتي على أن أصلح ما بها من عوج، لكنها كانت تخذلني في كل مرة بعدما تنال العفو...

لماذا كنت أسامحها كل مرة؟! لأنه لا أحد يهجر شجرته فقط لأن أوراقها تتساقط في الخريف! كل الأشجار كذلك! من مِن النساء بلا عيوب؟! وحدها أمي كانت بريئة لأنها فقدت عقلها!

كلهن معوجّات يقومهن العنف.. كلهن يحتجن إلى القيد كي لا يهربن.. على الأقل هي لن تهرب لأنها تعرف أنني قدرها كما هي قدري!

أجل.. كنت دومًا «العاشق».. وكانت دومًا «الغادرة»!

***

- صار ينفذ بعض الأوامر.. يومًا ما ظننت هذا معجزة!

تقولها أرجوان وهي تدخل الغرفة المخصصة لصفوان في حديقة الكرملاوي، تراقب الصغير بحنان وقد جلس عاقدًا ساعديه بمجرد ما أمره صفوان بفعلها!

يبتسم الأخير لمرآها وعيناه معلقتان بسلسلة عنقها، يبدو أنها أصلحتها لكن الصورة المعلقة بها قد خُدشت بما يوحي أنه لن يمكن إصلاحها أبدًا!

لا يريد الاعتراف بأن قلبه ارتاح كثيرًا للخاطر الأخير بينما عيناه تتعلقان بها وهي تستقر بعفوية على الأرض، تضع الطبق الذي تحمله من قِطع البطيخ التي كانت منزوعة البذر.. كان قد طلب منها أن تحضر فاكهة ما يحبها الصغير لتكون محفزًا له لطاعة الأوامر.. لم يحسب أن تكون حركتها هذه سهمًا آخر صائبًا لقلبه...

- تنزعين البذر من البطيخ قبل تقديمه؟!

- أمي كانت تفعلها دومًا.. في طفولتي كنت أظن أن البطيخ لا يحمل بذرًا حتى علمت أنها هي من كانت تقدمه لي دومًا منزوع البذر كي تسهل عليّ تناوله.

- أمي كذلك كانت تفعلها.

تتعانق النظرات دون حائل هذه المرة إلا من دمعة مشتركة أسدلتها الذكرى على عينيهما معًا.. هو الآخر حمل ذكرى شبيهة، لا يزال خيط سميك غير مرئي يشد كليهما إلى صاحبه يومًا بعد يوم.. شيء ما لا

يمكن تفسيره يجعلها ترتاح للبوح إليه.

- كانت أمي تحبني كثيرًا.. كانت تحاول تعويض غياب أبي.. كانت تحاول جعلي أشعر أنني لا ينقصني شيء.. لكن...

تقطع بوحها فجأة ليردف وهو يتحسس بخفة وحمة وجنته المخفية بينما يقرأ خبيئتها بعينيه الخبيرتين:

- لكنها فشلت في جعلك تشعرين بقيمة نفسك.. كبرتِ وأنتِ تشعرين أنك حِملٌ ثقيل على كتفها تود لو تلقيه في أقرب وقت لكنها لا تعلم أين تلقيه ولا ماذا تفعل! كبرتِ وأنت ترين نفسك لا تستحقين إلا القليل.. ما يراه غيركِ حقًّا طبيعيًّا ترينه أنتِ حلمًا! ما يرونه هم إهانة ترينه أنتِ عقابًا لسوء تصرفك! «أنتِ السبب» هي السوط الجاهز دومًا كي تجلدي به نفسك قبل الجميع.

شهقتها الخافتة تكدس الدموع في عينيها دون أن تسقط كالعادة، وسؤالها غير المنطوق يحلق بينهما «كيف عرفت؟»، ابتسامته تمنحها جوابًا غير منطوق كذلك وهو يتجاوز الأمر ليقول ما ظنها تحتاج إلى سماعه الآن:

- تعرفين أن الأرجواني هو اللون الملكي؟!

دمعتها تكتسب صبغة خاصة هذه المرة وهي تستمع لبقية حديثه:

- لصعوبة استخراجه وغلوّ ثمنه كانت الصبغة الأرجوانية خاصة بعلية القوم فقط، رمز عزة وكرامة، بعض الدول قديمًا جعلتها لونًا لسترة الجنود المنتصرين بل إن بعضهم تطرف وجعلها حكرًا على

طبقة الإمبراطور وعاقبوا بالإعدام ومصادرة الأملاك من يتجرأ ويبتاع أو حتى يرتدي اللون الأرجواني الملكي.. وأذكر أنني قرأت أنه في القسطنطينية رُسمت غرفة نوم الإمبراطور باللون الأرجواني، وتمتَّع ابنه الذي وُلد في هذه الغرفة بلقب «porphyrogenitus» أي «ولد في الأرجوان».. تذكري هذا دائمًا وأنتِ توقنين أن لكل امرئ من اسمه نصيبًا.. لستِ مجرد زهرة بل ملَكية كذلك.

ابتسامة خافتة تشرق على شفتيها وهي تسبل جفنيها بخجل بدا له آسرًا، تتنحنح وهي تشير إلى ناجي بارتباك:

- يمكنني أن أطعمه الآن؟!

يطلب من الصغير تنفيذ بضعة أوامر بسيطة ثم يجعل الطعام مكافأة له، يبتسم صفوان وهو يراها تقدم له طبقه هو الآخر منزوع البذر، فيقول بنبرته المرحة التي اكتسبت نوعًا محببًا من الحزم:

- آكل بشرط أن تأكلي معي.

يبدو الرفض المتردد على وجهها لأول وهلة قبل أن تلين ملامحها بإيماءة طاعة فلا يعرف هل هو خنوعها الطبيعي الذي جُبلت عليه أم هي هبة خاصة به وحده، يهمس بـ «شكرًا» ليست كأي «شكرًا» وكانت حمرة وجهها الخجول مكافأة كافية.

يراها وهي تغير جلستها لتضع الولد بين ذراعيها وتبدأ في إطعامه.. فينتبه لتغير لون جلدها بشكل حلقة حول كاحلها بما يوحي أنها كانت...

- كنتِ ترتدين خلخالًا لفترة طويلة ثم خلعتِه؟!

لم تزعجها جرأة السؤال بقدر ما أزعجتها الذكرى، لهذا مدت طرف ثوبها تداري ما ظهر من رجلها، أناملها تتحسس قلادتها رغمًا عنها وقد عادت إليها نظرة ذعر جلية بينما تتمتم بارتباك:

- ذكاؤك مخيف أحيانًا.

- يقولون لي إنه مخيف دائمًا!

- أنت.. غريب!

- لماذا؟! هل أزعجتك جرأة سؤالي؟!

- لا! لهذا أقول إنك غريب.

يرمقها بنظرة متسائلة، لا تزال عيناها تهربان من نظراته وهي تتشاغل بإطعام الولد:

- نبرة صوتك مرحة دومًا كأنك لم تمر يومًا على باب حزن.. لكن أقوالك توحي أنك رأيت الكثير من المآسي.. ذكاؤك يجعلني دومًا متحفزة، ومع هذا أجدني عفوية تمامًا في البوح معك.. منذ لقائنا الأول في القطار وأنا أشعر أنك...

تجف حروفها فجأة وهو أحوج ما يكون لأن يرتوي بالمزيد، فيسألها بلهفة غلبت حذره:

- أنني...؟!

- محل ثقة.

لماذا ترتجف حروفها وأناملها الحرة تفرك دبلتها في إصبعها؟!
كانت لا تزال تتحاشى نظراته وهو الآخر يفعل! هو الذي كان يود لو بقيت حدقتاه أسيرتَي عينيها في لحظة اعترافها هذا ومع هذا يجد نفسه يهرب منها.. شعوره بالذنب يصفعه! ماذا لو عرفت الحقيقة؟! لو عرفت أن دخوله البيت مجرد خطة! هل ستبقى تظنه محل ثقة؟! ماذا لو لم تكن هي صاحبة الوشم المقصودة؟! وماذا لو كانت؟! في أي خانة سيضعها وقتها؟!

أنا المغدور

أنا آدم نعمان الكرملاوي.. وهي أرجوان الغادرة!

هل أخبركم حكاية خلخال قدمها؟! والذي كان هدية من واحد من عشاقها؟!

كانت قد امتنعت عن لقائي كعهدنا عند البئر القديمة، لا ترد على اتصالاتي، تلومني لانفعالي بسبب سوء تصرفاتها وتنسى كل ما فعلته من أجلها!

راقبتها عند خروجها من البيت ليلًا في موعد لا يمكن أن يعني قاصده خيرًا، رأيتها تلتقيه هناك عند محطة القطار التي كانت خالية إلا منهما في هذا الوقت المتأخر، أنا أعرف ذاك الوغد وحذرتها مرارًا من الكلام معه فالعاطفة في عينيه لا تخفى على أعمى! لكن ها هي ذي الخائنة لا ترى سوى نزواتها، ها هي ذي تجلس جواره على مقعد المحطة، تسمح له أن يربت على كفها، كفها التي كانت منذ أيام فقط أسيرة كفي وقُبلاتي! يقترب منها أكثر فتشتعل جوارحي وأنا أراه يميل على أذنها بما لم يمكنني سماعه، يستخرج من جيبه خلخالًا كادت لمعته تقتلع عينَي من رأسي، يناوله لها فتأخذه بشهقة ذبحت قلبي من فرط ما شعرت بلهفتها، ترفع ساقها بدلال لتلفه حول كاحلها، ترفع ساقها لأعلى وأسفل كأنها ترقص فلا يخفى أثر ما تفعله على ذاك الوغد جوارها!

جن جنوني وقتها وأنا أرى صورة أمي أمام عينَي! سيختطفونها مني من جديد! هذا الوغد سيأخذ أرجوان مني! سيحبسها في غرفة

بعيدة فلا يمكنني رؤيتها كأمي! وهذه المرة لن يمكنني حتى السهر على عتبة غرفتها!

رأيتها بعدها تتركه مسرعة مرتبكة، طيب! حسابي معها أؤجله لما بعد! الآن حساب هذا الحقير.

«لا شأن لك بها بعد الآن.. لو رأيتَها أو كلمتها ثانية فسأقتلك!».

نظرته المستهينة تشعل براكيني وهو يحاول الكذب، يحاول التشكيك فيما رأيته بعينيّ، يسبني فأسبه، يلكمني فألكمه، لكن الطامة الكبرى كانت: «يبدو أنك ورثت الجنون من أمك!».

لم أشعر بما فعلته وقتها إلا وقد رأيته ساقطًا على قضيب القطار أسفل قدمي، يصرخ متأوهًا وقد بدا أن ساقه قد كُسرت، يمد لي يده متضرعًا لكن جسدي كان ينافس وجهي في صقيعه، صوت صافرة القطار يعلو منذرًا بقرب وصوله ويعلو معه صوت صرخاته هو، تبتعد خطواتي رويدًا رويدًا لأختبئ خلف عمود قريب، لم أفقد بعد كل إنسانيتي، جزء بداخلي تمنى لو ينقذه أحدهم، لكن ليس أنا، ليس بعدما سبني بأمي!

لكن العدل جاء من السماء كما توقعته، خمد صوت صرخاته تمامًا مع مشهد القطار الذي مر بسرعة غير مكترثٍ به!

هذا هو الجزاء الذي يستحقه، مثله لا يستحق الحياة!

ماذا عن جزائها هي؟! كيف عاقبتها بعدها؟!

هذا ما لا أريد أن أذكره أبدًا!

مهما كنت أعاقبها كنت أصفح عنها في النهاية.. لكن.. ما كان بينها وبين أبي، هذا كيف كان يمكنني أن أصفح عنه؟!

ترى عن أي رجل تبحث الآن كي تخونني من جديد؟!

هذا الطبيب الذي دخل بيتنا مؤخرًا يثير ريبتي.. نظراته نحوها غير طبيعية...

لا أعتقد أبدًا أنني سأتسامح من جديد.. لو تأكدت شكوكي هذه المرة سأقتلهما معًا!

***

- سيحتاج إلى استحمام سريع.. سكب علبة ألوان الماء كلها على ملابسه.

يقولها صفوان بعد انتهاء جلسته مع الصغير الذي يتقافز الآن بنشاط أمام غرفته بالحديقة، فتبتسم أرجوان وهي تربت على رأس الولد برضا حقيقي:

- لا بأس.. المهم أنه سعيد.

تنادي الخادمة التي تأخذ الصغير لتحممه ثم تسير معه توصله إلى الخارج، تسأله بأمل:

- أشعر أنه يتحسن في أمور كثيرة.. تظنه سيتمكن من النطق قريبًا؟!

- أنا متفائل...

ابتسامته ترسم ابتسامة شبيهة على شفتيها بينما يردف بنبرة دافئة مستها بمرحها:

- شكرًا على كل ما تشاركناه اليوم ابتداءً بالبطيخ منزوع البذر وانتهاءً بكل شيء.

ابتسامتها تتسع وهي تهم بالرد لكن حدسًا ما داخلها يشعرها بالخطر، هل يراقبها أحدهم؟!

صوت حفيف أشجار خفيف يجعلها تلتفت إلى الخلف لكنها لا ترى شيئًا...

نفس الشعور الذي وصله وجعله هو الآخر يتلفت حوله بما حرص أن يبدو عفويًا، آثار ما على طين الحديقة تجعله يتأكد مما شعر به، فيتوقف مكانه قائلًا:

- تطور ناجي يتوقف على مساعدة كل المحيطين به، هو يحتاج إلى الاندماج أكثر مع الناس لتطوير تواصله العاطفي، من هنا يمكنه مساعدتنا؟! أخت السيد نعمان الصغرى.. ماذا عنها؟!

كانت ضربة مزدوجة أراد بها أن يمضي نحو هدفه من دخول هذا البيت، وفي نفس الوقت إرضاء ضميره المهني بعلاج الولد.

- «بانسيه»؟! لا.. لا أظنها قد تفعل! ما دمت سمعت عنها فلا بد أنك تعرف أنها مقعدة منذ زمن طويل.. تلازم كرسيها المتحرك طوال الوقت.. لا يمكنها الكلام ولا الحركة.. تتواصل معنا بالإشارة.

ينعقد حاجباه قليلًا.. غيث أخبره بهذا.. وهذا ما يستثنيها من

شكوكه بشأن صاحبة الوشم التي يبحث عنها.. لكنه يود لو يستدرج أرجوان فتكلمه عن صاحبة الوشم الرابعة.

- لا أحد هنا يمكنه مساعدتنا سوى صابرينة، هي تحبه كأنها أمه الثانية.

- أتفهم ذلك خاصة وقد أخبرتني هي أنها لم ترزق بأطفال من السيد نعمان.

- صحيح.. رغم زواجهما منذ ما يقارب ست سنوات.

- ست سنوات!

تلتمع عيناه بوهج خاص وهو يكرر عبارتها سرًّا لكنها لم تنتبه لهذا وهي تشرد في الفراغ:

- تعرف هذا النوع من الرزق الذي يأتيك في صورة بشر؟! صابرينة كذلك! كنت أشكو وحدتي طوال عمري حتى أتت بها أمي ذات يوم وأخبرتني أنها ستبقى معنا، عرفت بعدها أنها خرجت لتوها من الملجأ، مجهولة النسب كما يقولون لكنني لم أعتبرها كذلك قط، كانت أختي وصديقتي وكاتمة أسراري وابنتي بل وأمي الثانية أحيانًا، يومًا بعد يوم كانت علاقتنا تتوطد، نأكل معًا، نشرب معًا، حتى ملابسي تشاركناها، كانت أكبر مني بخمس سنوات وألف خيبة! تعرف طبعًا أن عمر المرء يُحسب بالخيبات أحيانًا!

لم يستطع الابتسام مثلها في عبارتها الأخيرة وإن بدا شاعرًا بمرارتها، بينما تردف:

- لم أكن أعرف أن القدر يدخر لنا المزيد من الكرم، فأتزوج أنا آدم الكرملاوي وتتزوج هي أباه!

لم يغفل عن رنة السخرية المريرة في صوتها رغم جهادها لتخفيها، لكنه يتظاهر بالعكس وهو يتلفت حوله مستكشفًا.. ولا يزال هناك حدس خفي لكليهما أنهما مراقَبان!

ربما هذا ما جعله يتعجل بالانصراف دون أن يتجاهل هذا الأثر المتروك على الأرض الطينية.. وكأنه أثر كرسي متحرك.. هل كانت بانسيه حقًّا هي من تراقبهما؟!

***

- ماذا تفعل؟!

يهمس بها غيث باستنكار وقد ضبطه متلبسًا بالتصنت خارج بيت أمه راوية من خلف النافذة...

- ششششششش!

يكمم بها صفوان فم صديقه وهو يشير بعينيه نحو الداخل.. فيرى غيث المرأة المقعدة وهي تمد كفها نحو «الست راوية» التي شرعت في تجديد وشم الحناء على ظاهرها.. ويستنتج كينونتها! بانسيه الكرملاوي! لم يركز من قبل في شكلها ولم يتخيلها هكذا، كم تبدو أصغر بكثير من سنها المفترضة!

جالسة على كرسيها المتحرك كعهدها منذ إصابتها منذ سنوات طويلة، ترتدي قميصًا بمربعات كبيرة للونين الأحمر والأسود وسروالًا

طويلًا نجح في مداراة ضمور ساقيها بفعل عدم الحركة.

شعرها الأسود شديد القصر بالكاد يلامس طرفَي أذنيها، لا مساحيق زينة، لا حليّ.. عيناها واسعتان سوداوان برموش كثيفة شديدة الطول.. شفتاها شاحبتان بما يوحي بعقد تحالف طويل المدى مع أنيميا حادة.. حاجباها غليظان دون تهذيب ولولا رسمتهما الطبيعية المنسقة لكانا أشبه بزعافتَي سقف!

كانت مسترجلة للحد الذي تود معه لو تقترب بنفسك من وجهها كي تتأكد.. أحقًّا لا ينبت شارب ولحية؟!

لكن راوية تلقي تعليقًا مرحًا وهي تدغدغ خصرها فتنفجر ضحكة بانسيه ويتغير كل شيء!

تعرف هذا النوع من ضحكات النساء والتي تبدو وكأنها تعلق ماركة مسجلة باسمها: «ضحكة مصممة خصيصى للفضيحة»؟!

لو كنت تعرفها أضِف إليها هذا الصوت الرفيع الناعم جدًّا:

- لا تجعلي اللون يميل إلى الأحمر بل إلى الأسود.. لون الهم الذي نعيشه!

هل يمكنها الكلام؟! هذا الصوت يخصها هي؟! لماذا تخفي الأمر؟!

هذا الصوت الذي يليق بأي حورية بحر تحترم نفسها خرجت لتوها إلى الشاطئ كي تغني.. والذي جعل كلًّا من صفوان وغيث يتلفتان حولهما كي يبحثا عن مصدر آخر للصوت غير صاحبة الهيئة الذكورية هذه!

ويبدو أن التناقض هذا كان له أبلغ الأثر على غيث الذي بدا وكأنه حاسوب قديم حملت شاشته كلمة «error» بحروف كبيرة متحركة!

كان ينظر إليها فاغرًا فاه ببلاهة حتى إن صفوان اضطر إلى جذب وجهه نحوه هامسًا في أذنه بتوسل مرِح:

- أعرف أن قلبك الكبير يتمطى الآن في وضع استعداد لتفعيل زر الحب من أول نظرة للمرة الألف في حياتك على الأقل.. لكن.. أرجوك.. أرجوك.. ليس الآن.. تعرف خطتي بشأن نساء بيت الكرملاوي.. دعني أتمم مهمتي وبعدها يمكنك أن تحب كما تشاء.. أرجوك.. أرجوك.

- هه؟!

لا يبدو غيث وكأنه يسمعه من الأساس وعيناه معلقتان بـ «حورية البحر المسترجلة» كما ستحلو له تسميتها بعد الآن!

- ذاك الرجل صفوان.. عرفت أنه يقيم هنا في بيتك وأنه صديق ابنك.. ما رأيك فيه؟!

لا يزال الصوت شديد الأنثوية -غير المناسب للهيئة إطلاقًا- يثير العجب في المكان، بينما ترد راوية وهي منهمكة في تجديد رسم وشم الحناء:

- شاب طيب.. لكن من خبرتي في الناس أشعر أنه يخفي شيئًا.

- سرًا؟! أم وجعًا؟!

- ربما كليهما معًا.

- لو كان عزيزًا عليكِ فانصحيه بمغادرة بيت الكرملاوي بسرعة.. هذا البيت ملعون، منكوبٌ من يدخله!

- نصحتكِ منذ زمن طويل أن تغادريه لكنكِ ترفضين.

تمتزج نبرة راوية بعتاب لطيف، تدمع معه عينا بانسيه:

- تعرفين؟! منذ سنوات طويلة قرأت أنه في تركيا هناك أسطورة تخص زهرة «البانسيه»، يحكون أن زهرة البانسيه أحبت زهرة الثلج وعقدا مع بعض اتفاق عاشقيْن أن يتفتحا معًا في الشتاء بينما بقية الأزهار في وضع سبات، وَّفت زهرة الثلج بوعدها لكن زهرة البانسيه جبنت وخافت، تركت عاشقها يتفتح وحيدًا بين الثلوج، ومن وقتها وهم يضربون المثل بزهور البانسيه، يعتبرونها رمز الخيانة والتخلي، ضحكت كثيرًا عندما قرأتها وقتها، أظنك الآن تدركين أنه ليس دومًا يكون للمرء من اسمه نصيب، أنا عجزت طوال هذه السنوات عن التخلي عن بيتي وأحبتي، رضيت أن أتفتح وحدي بين الثلوج قانعةً بصمتي.. أحب هذا الصمت الأنيق الذي أرتديه عندما تحتاج روحي إلى الدفء بعد عري الخذلان الشائن...

أحبه وأشكره كل مرة وأنا أعيد خلعه لأعلقه في دولاب انتصاراتي.. فقد كفاني شر كلام لا يليق بقلب كقلبي.. وروح كروحي.. يقولون: «السكوت علامة الرضا»! الحمقى! ألم يسمعوا عن صمت المقهور.. المترفع.. الصبور.. المشمئز.. والزاهد؟! ليس كل سكوتٍ علامة رضا.. لكن كل سكوت علامة عجز عما ثقل على ألسنتنا فأكرمناه بالدفن داخل صدورنا.. كما يليق بعزيز موتانا.

تتنهد راوية بحرقة وهي تربت على رأسها، بينما يتبادل غيث وصفوان في مخبئهما نظرات تأثر لم تخلُ من الدهشة، لكن غيث يكتفي بهذا القدر وهو يسحب صفوان مبتعدًا به لمسافة آمنة، فيهتف به الأخير بلهفة:

- الست راوية تعرف أنها قادرة على الكلام، وتساعدها في إخفاء هذا السر.

- صفوان! أظنه حان الوقت لتخبر أمي بالسبب الحقيقي لدخولك بيت الكرملاوي.

- ماذا لو رفضت مساعدتي؟! ماذا لو لم تفهم؟! أنت تعرف حساسية الأمر.

- سأساعدك في هذا لكن.. لم يعد بوسعي إخفاء الأمر عنها أكثر من ذلك.. لقد وصل الأمر أننا صرنا نتنصت على كلامها مع ضيوفها في بيتها! اعذرني لا أقبل هذا وإن كان لأجلك.. كما أنه من الواضح أنها تعرف الكثير عن خفايا ذاك البيت.. ستفيدك أكثر لو عرفت الحقيقة.

يطرق صفوان برأسه مفكرًا بتردد لكن عقله يميل لما رآه صاحبه، فليخبر راوية بالحكاية!

ربما كانت هذه الحسنة الوحيدة التي استفادها من هذا الموقف.. لا بل هناك أخرى! لقد استبعد واحدة من النساء الأربع صاحبات الوشم ببيت الكرملاوي.. فـ «بانسيه» لا يمكنها الحركة منذ زمن طويل.. بقيت ثلاثة فقط!

وكأنما تخرج له أشجار الكرملاوي لسانها مغيظةً إياه، فقد كانت تنتظره مفاجأة في اليوم التالي...!

***

- لا أحد هنا في البيت.

تستقبله بها الخادمة بدهشة ليهتف باستدراك وهو يخبط كفه بجبهته:

- آه.. صحيح.. أرجوان أخبرتني لكنني نسيت.

- لا بأس.. حظنا جيد كي نراك.. يبدو اليوم أجمل بطلّتك!

تبسط بها كفها بمرح المتسولين فيضحك وهو لا يرد كفها خائبًا بورقة مالية كبيرة تقبلها وجهًا وظهرًا قبل أن تدسها في ثنايا ثوبها لتعود للداخل بسرعة.

يهم صفوان بالانصراف لكن خاطرًا ما يدفعه للمغامرة! البيت خالٍ الآن! هي فرصته للبحث عن أي شيء يوصله إلى بغيته.. وبالذات مكتب نعمان الكرملاوي!

كانت مخاطرة غير محسوبة العواقب تهدد مصيره كله لكنه استجاب لجنونه وهو يتسلق السور الخلفي للبيت، يهبط بحذر ليتوغل أكثر داخل الحديقة، تتسع عيناه بصدمة وهو يراها هناك على كرسيها تعطيه ظهرها وتتحرك نحو الأمام.. بانسيه!

إذن لم تغادر معهم؟!

يختبئ خلف شجرة قريبة وهو يراها تتقدم أكثر نحو جانب مهمل من الحديقة، هناك حيث بدا له كيانٌ عجيب مغطى بقماش قديم يبدو أنه لم يُمسّ منذ عهد بعيد...

تتسع عيناه بترقب وهو يتساءل عن ماهية هذا الشيء وما الذي تفعله هي، يراها تقترب أكثر، تجذب القماش المغطى فتنكشف ماهية الشيء! أرجوحة قديمة صدئة بالية القماش!

هنا يكتم صرخة دهشة كادت تغادر شفتيه والمفاجأة تصفعه! ها هي ذي تستند إلى مسندَي كرسيها لتقف مكانها ثم تعتلي الأرجوحة وقد بدت له عيناها أقل براءة بكثير مما كان يظن!

الغصن الخامس

«حين يقال: «يا حب» فاخلع نعليك على باب الجنون».

***

الأرجوحة الصدئة تحمل جسدها وما بقي من أطلال روحها.. قماشها البالي يشبه ما بقي من العمر.. صوت مفصلاتها يئن بأزيز خافت لا يشبه أبدًا دوي الرعد في روحها هي.. تأخذ نفسًا عميقًا وهي تمد ساقيها أمامها بينما تتشبث إحدى ذراعيها بالأرجوحة.. والأخرى بـ.. الفراغ!

تمامًا كما هو حالها مع ذكرياتها في كل مرة تعتلي أرجوحة صنعها لها عاشق ترك نصل غدره في القلب.. وغادر! هكذا ببساطة!

- أنتِ زهرتي! البرعم الذي تفتحت بتلاته تحت شمسي وسمائي وغدا يكبر أكثر وأكثر حتى يصير حديقة كاملة.. أنا عاشقها وحاميها!

خيط رفيع من الدمع يسيل على وجنتها وهي تتذكر كلمات عاشق لم يعد يعنيها أن تذكر اسمه.. أو حتى شكله.. ذاب كل ما يخصه.. انصهر في لهيب حسرة تركها بعده فلم يترك خلفه سوى رماد تطاير في خريف عمرها بعده!

فقط بقي النصل الذي أغمده في قلبها، بقي نزفه حارًّا طازجًا يذكرها بجرح لن يطيب...

يستمر أزيز الأرجوحة الصدئة ويفيض معه المزيد من سيل الذكرى...

- لماذا تقصين شعرك هكذا؟! وترتدين مثل الصبيان؟!

سألها وهما صبيّان على أعتاب المراهقة بينما يختلسان لقاءهما خفية عن الأعين لتبوح بما لم تجرؤ على البوح به لغيره:

- كي أشبه نعمان.. تعرف؟! في طفولتي سمعت عن أسطورة البئر القديمة، عن أمنية تتحقق لو ألقيت فيه زهرة دون أشواك ليلة اكتمال البدر، منذ سنوات ألقيت فيه زهرة وتمنيت لو أكون رجلًا!

- رجلًا! من حسن حظي إذن أن أمنيتك لم تتحقق!

ضحكاته تغيظها فتلكمه في كتفه، لكنه يسترضيها بقبلة على كفها فتتنهد لتقول بحسرة:

- أبواي يفضلانه عني في كل شيء فقط لأنه رجل.. في طفولتي كنت أحب تقليده.. أمشي مثله.. ألبس مثله.. أتكلم مثله لعلهم يحبونني كما يحبونه.. لكنني بقيت مجرد ظل على جدار جانبي.. يخفيه دومًا ضوء نعمان.

- عجبًا! لو لم أكن أعرف كم تحبين نعمان لظننت أنكِ تحقدين عليه!

- لن تفهمني أبدًا! أنا أحبه.. بل أكاد أكون مهووسة بكل تفاصيله.. عندما يكبر الشقيق شقيقته بأكثر من خمسة عشر عامًا فإنه يكون أقرب لأبيها الثاني.. أنا قطعًا أحب نعمان لكنني فقط أتمنى لو تحبني عائلتي كما تحبه.

- ألا يكفي أنني أحبك؟! أحبك أكثر من شيء ومن أي شخص؟!

ضحكتها الخجول كانت ترسم مع توأمها على شفتيه «غدًا» يبدو قريبًا.. قريبًا جدًّا.. لهذا عندما قالها: «الآن تنسين كل هذه الترهات! سترتدين ثيابًا أنثوية تناسب رقتك.. وستتركين شعرك يطول.. ستكونين أجمل عروس لقلب مفتون بك كقلبي.. معًا دومًا معًا.. ستكونين نجمًا تؤويه سمائي لا يشقيهما ليلٌ بل يزيدهما وهجًا!»، أطاعت دون مناقشة!

تبًا للذكري وهي ترسم أكبر ضحكة ساخرة الآن! كم يبدو الكلام سهلًا والوعود حلوة لكن تبقى صفعة القدر رادعة لمن قُدِّر له أن يفيق!

المزيد من أزيز الأرجوحة.. والمزيد من طوفان الذكرى...

- اليوم أنهيت خدمتي العسكرية.. أبي سيطلب لي يدك من أبيكِ.. لا أظنه سيرفض فهما صديقان منذ الصغر ونحن تربينا معًا.. لكنني أخشى رفض نعمان.

صوته القلق يخزها لكنها تهتف بأمل وهي تزيح خصلة من شعرها -الذي طال كثيرًا- خلف أذنها بينما يتمايل ثوبها الوردي حولها بفعل الرياح:

- ولماذا يرفض؟!

- تعرفين طموح أخيكِ! لعله يريدك لمن هو أفضل مني.

- وهل هناك من هو أفضل منك؟!

رقة صوتها الخجول، خفقات قلبها العاشق، تبدو وكأنها أنبتت

شجرة بينهما، لكن الغافلة نسيت أن أشجار الكرملاوي لا تظلل العاشقين!

- البدر مكتمل الليلة.. سألقي زهرة في البئر وأتمنى ألا يمر العام إلا وقد صرت حليلتك.

- لا تزالين تصدقين هذه الخرافات؟!

- أتعلق بأي قشة تقربني منك!

- لا حاجة بكِ للقشِّ كله.. قريبةٌ أنتِ حد أنفاسي.. مهما حدث ستبقين للجسد روحًا وللقلب نبضًا.. لا قبلك ولا بعدك حب!

حب؟! آه من حرفين حملا أوزار الدنيا كلها على كتفين من هلام! من يلومهما لو سقطا؟! «لا قبلك ولا بعدك حب!»، تشهد الآن على زور الراوي! تزوج بعدها ثلاث مرات.. لا.. لم يفعلها كي ينساها هي بل كي لا ينسى نفسه! نصيبه من الدنيا كما يزعم!

صوت خطوات صفوان يقطع عليها شرودها، يتوقف أزيز الأرجوحة مع شهقتها المصدومة وهي تحاول تمالك نفسها، تشير إليه بكفها كأنها تسأله عما يريد وعيناها معلقتان بكرسيها أمامها.. لكنه يقترب أكثر ليجلس على ركبتيه في مستوى بصرها، يهمس أمام عينيها بحزم:

- لا تتعبي نفسك.. أنا أعرف أنه يمكنك التكلم.. سمعتك تتحدثين مع الست راوية.. والآن رأيتكِ تغادرين كرسيك بنفسك وتجلسين على الأرجوحة.. أي يمكنك الحركة كذلك.

تزدرد ريقها بارتباك محاولةً تقييم الموقف.. هل سمعها ورآها حقًّا؟! لا تظنه كاذبًا!

تشيح بوجهها دون رد وهي تحك أنفها بتوتر في حركة بدت ملازمة لها، فيتحرك ليجلس جوارها وتئن الأرجوحة بثقلها معًا!

- لا تجلس هنا!

انفعالها يغلب حذرها وهي تدفعه كأنما كرهت أن يدنس أحدهم قدس ذكرى ما زالت باقية رغم كل شيء!

صوتها الناعم شديد الأنثوية يصنع مع دموعها التي أسدلت على وجنتيها كستار شفاف صورة مغايرة تمامًا لملابسها المسترجلة وهيئتها الأقرب «للدهولة».. لم يكن هذا جديدًا لكن الجديد كان أثر هذا على نفسه وهو يشعر بجرح هائل داخلها، لهذا هب واقفًا كأنه فهم مرادها.. ومن مثله يفهم قدس الذكرى؟!

يتحسس وحمة وجنته خفيةً ليسألها بصوت خافت:

- لماذا تخفين الأمر؟!

تتلفت حولها كأنها تطمئن ألا شاهد عليهما قبل أن تعاود النظر إليه هامسة بضحكة مختنقة:

- لماذا؟! حقًّا لماذا؟! الجواب ببساطة «لأنه لا أحد يهتم! لا أحد يعنيه حالي.. فلأبقَ بأعينهم كما كنت وكما يريدونني أن أبقى.. بلا صوت وبلا حركة».

كان يفهم ما تعنيه حرقتها وأضاف إليها حدسه جوابًا آخر:

- وربما بهذا تعاقبين أحدهم بتعذيب ضميره! نعمان مثلًا! هل كان هو سبب الحادث؟!

يميل بها رأسه بتفحص لتتسع عيناها باستنكار هو للإقرار أقرب.. لكنها تتمالك نفسها لتهتف:

- وما شأنك أنت؟! كيف تسمح لنفسك بالتدخل في الأمر؟!

سبابته على شفتيه تمنحها شارة تحذير بخفض صوتها، قبل أن ينحني ليحتكر نظراتها بعينيه النافذتين:

- لا أظن الصوت العالي سيفيد كلينا.

تدفعه بخشونة وقد عاد صوتها لخفوته:

- كيف دخلت إلى هنا أصلًا؟! لماذا تسللت في غياب الجميع؟!

- لا أظنك في وضع يسمح باستجوابي.

- ابتعِد.. وإلا سأصرخ.

يركل كرسيها المتحرك بقدمه لينقلب بعيدًا فتشهق وهي تسمعه يقول ببرود:

- افعليها وينكشف السر الذي تحرصين على إخفائه طوال هذه السنوات.

تدمع عيناها بعجز احمرت معه وجنتاها وهي تهمس من بين أسنانها:

- ماذا تريد بالضبط؟!

صمت قصير يلفهما قبل أن يشيح بوجهه:

- الحقيقة.

- أي حقيقة؟!

- لنبدأ مثلًا بالحادثة التي أدت بك إلى هذا.

- هل تبتزني؟!

- يقولون إنني أجيد الحكم على الناس.. ونظرتي فيكِ أنكِ امرأة لا تقلين عني ذكاءً.. قولي لي هل تظنينني حقًّا أبتزك؟!

رغم كل شيء بدت نبرته مطمئنة وهي ترفع عينيها إليه، شيء ما بعينيَي ذاك الرجل يبعث فيها الثقة، لم تخطئ أرجوان يوم قالتها حين كانت تتنصت عليهما...

لكنها ازدردت ريقها بتوتر، تشيح بوجهها:

- سقطت من فوق سطح البيت كما يعرف الجميع.

- لا أريد الحقيقة التي يعرفها الجميع.. أريد الحقيقة كما ترينها أنتِ!

صراع بين شراسة وانكسار يحلق على ملامحها بينما تهتف:

- لا شأن لك.

يومئ برأسه ولا يزال يحتكر نظراتها بعينيها النافذتين، ليقول

بنبرته الغريبة التي تعطي الانطباع بالثقة وتمنحها في نفس الوقت:

- طيب.. لنؤجل هذا حتى ترغبي أنتِ في رواية الماضي بنفسك.. وأظنكِ ستفعلين قريبًا.. لكن لي سؤالان فقط أرجو منك إجابتهما وسأتركك لشأنك كما تريدين.. الأول.. هل كان يمكنك الحركة قبل ست سنوات من الآن؟!

- ولماذا ست سنوات بالذات؟!

يرفع حاجبه في إشارة إلى عدم استعداده للجواب فتزفر لترد بما بدا صادقًا:

- لا أتذكر بالضبط....أنا استعدت قدرتي على الحركة مع الجلسات تدريجيًا.. عرفت أنني تعافيت تمامًا منذ عام واحد.. لكنني لم أخبر أحدًا.. والآن ما سؤالك الثاني قبل أن ينفد صبري؟!

يتنهد وهو يعقد حاجبيه مفكرًا ثم ينحني فجأة ليصبح رأسه في مستوى عينيها مدركًا أثر قنبلته القادمة:

- أنتِ عذراء؟!

صفعتها القوية مع شهقة استنكارها وهي تدفعه بعيدًا تمنحه جوابًا «شبه يقيني» أنها عذراء! لم يكن - بنظرته الثاقبة- مجرد خجل فطري من السؤال بل نفيًا قاطعًا! هكذا يمكنه استبعادها -غالبًا- من قائمته فصاحبة الوشم لا يمكن أبدًا أن تكون لا تزال عذراء!

يراها تتحرك ببطء يناسب وضعها رغم انفعالها لترفع كرسيها وتجلس عليه، تتحرك مبتعدة فيصلها صوته خلفها معتذرًا بين حزن

وغضب:

- آسف.. يومًا ما ستفهمين سبب سؤالي.. أعدك قبل مغادرتي لبيت الكرملاوي نهائيًا أن تعرفي.. وتعذريني.

تلتفت برأسها إليه بنظرة متفحصة.. هذا الرجل يخفي أكثر بكثير من مجرد كونه معالجًا للصغير.. رغم وقاحة سؤاله لكنها تكاد توقن أنه لم يرد به سوءًا.. ومع هذا تجد نفسها تقول بشراسة:

- لا أريدك أن تعترض طريقي بعد الآن.. لن تخبر أحدًا عن سري.. وإلا فلن تبقى في هذا البيت ساعة واحدة.. نعمان يفهمني بالإشارة.. لن يكون صعبًا أن أوحي إليه بإعجابك بأرجوان.. صدقني لن يروقه هذا كثيرًا.. ستكون محظوظًا جدًا لو اكتفى وقتها بمجرد طردك.

يبتسم باستهانة واثقة كأنه يعلم أنها لن تنفذ تهديدها، فتشير بسبابتها نحو الخارج كأنها تطرده، تتسع ابتسامته وهو يحرك كفه جوار رأسه في تحية صامتة قبل أن يغادر بيت الكرملاوي قانعًا بما ناله.

***

تجلس أرجوان أمام مرآتها في غرفتها ببيت الكرملاوي، ترتدي ثوبًا أسود كالعادة، عيناها معلقتان بقلادة آدم -التي تشوهت فيها صورته- بمزيج غريب من خوف ورضا.. ماذا لو رآها الآن؟! هل سيصدق أن ما حدث كان رغمًا عنها؟! لماذا لم يعد يزورها عند البئر القديمة؟! غيابه يثير ارتباكها أكثر من حضوره! لكن ماذا عساها تتوقع من علاقة غريبة كعلاقتهما؟!

ولأول مرة تتلكأ أصابعها وهي تضفر الشرائط الذهبية مع خصلات شعرها تتذكر مقولة آدم الدائمة: «شعرك باهت.. ماذا يساوي شعرك دون شرائطي؟!»، فترتجف شفتاها وأناملها تتلكأ أكثر.. كم تريد أن تسدله حرًّا دون قيود!

«لستِ مجرد زهرة.. بل مَلَكية كذلك».

يسمعها خيالها بصوت صفوان فتبتسم دون وعي لتفاجأ بنفسها تلقي الشرائط الذهبية بعيدًا لكنها لم تكد تفعلها حتى تعلقت عيناها بموضع «الخلخال» الخالي في كاحلها.. تشهق بخوف وهي تنحني لتمسد موضعه قبل أن تتحرك بسرعة لتتناول الشرائط الذهبية وتجدلها مع شعرها بسرعة كأنها تسترضي الذكرى أن تغيب!

- وددتُ لو لا تفعلينها!

تقولها صابرينة بأسف وهي تتقدم أكثر داخل الغرفة وقد بدا من ملامحها أنها كانت تراقبها من البداية.. تعانق أرجوان بحنان وهي تمسد شعرها لتهمس في أذنها:

- يمكنك الهروب من كل هذا.. يمكنك ترك بيت الكرملاوي كله خلف ظهرك.

- تظنين هذا حقًّا؟! أنتِ.. هل يمكنك فعلها؟!

- وضعنا مختلف.

- لا.. كلتانا تعلم أنها ليس لها إلا هذا البيت.

تهز بها أرجوان رأسها بيأس فتتنهد صابرينة وهي تهمس لها بخفوت حذر:

- لهذا أقول لك إن وضعك مختلف.. صفوان معجب بك.. نظراته إليكِ تزداد عمقًا يومًا بعد يوم.. لا أبالغ لو قلت إنه يحبك.

- ششششش!

تكتم أرجوان شفتَي صديقتها بسرعة وهي تتلفت حولها برعب هامسة:

- لا تقوليها ثانية ولو سرًّا في نفسك...

تهز صابرينة رأسها بإصرار وهي تحاول إقناعها بما تراه في صالحها، لكن أرجوان تعاود تكميم فمها بكفها المرتجفة هامسة:

- عن أي حب تتحدثين؟! هل ستعود كلتانا وتؤمن بالحب؟! بعد كل ما عشناه؟! وحتى لو حدثت المعجزة وآمنت به من جديد تظنين أن آدم سيتركني وشأني؟!

تدمع عينا صابرينة بتعاطف وهي تعيد ضمها إلى صدرها وقد عجزت عن الرد لتردف أرجوان بصوت مرتعش:

- هو أمل واحد باقٍ في حياتي.. ناجي ولا أحد سواه.. هو فقط من صرت أعيش لأجله وليذهب دونه كل شيء.

- السيد صفوان وصل.

صوت الخادمة مع طرقاتها على الباب يقاطع حديثهما فترتجف

ابتسامة صابرينة على شفتيها وهي تشعر بلهفة أرجوان تكذب كل ما قالته منذ قليل.. احمرار وجنتيها، ارتجافة أناملها وهي تكمل تمشيط شعرها، لمعة عينيها اللتين تبدوان وكأنهما تجاهدان لتعودا إلى الحياة من جديد.. آه يا صديقة العمر! على منصة الحب ما أكذب اللسان وما أصدق العين!

***

- ما هذا؟!

تهتف بها أرجوان وهي تميز الميكروفون الملون المعدني الذي يمسكه صفوان والذي أثار انتباه ناجي كذلك فبدأ يقفز محاولًا أخذه من صفوان الذي تعالت ضحكاته وهو يجيبها:

- تراهنين أن هذا سيجعله ينطق؟!

- كيف؟!

لهفتها تمتزج بشعور سكينة غريب لم تعد تنكره في وجوده فيجيبها عمليًا وهو يُجلس الطفل على المقعد الصغير خاصته قبل أن يجلس هو على ركبتيه أمامه.. يفتح زر الميكروفون ليتحدث فيه بمقاطع قصيرة.. ثم يضعه أمام الصغير الذي يطلق أصواتًا عشوائية في البداية ثم تلتمع عيناه بإثارة وهو يسمع صوته يخرج مفخمًا رنانًا فيثير هذا المزيد من دهشته أولًا.. ثم يعجبه الأمر فيكرر أصواته بنمطية.

تجلس جوارهما متربعة على الأرض وهي تراقب محاولات صفوان

المتكررة دون ملل كي يجعل الصغير يتخلى عن أصواته العشوائية ويقلد مخارج حروفه هو.

ساعة مرت وربما أكثر، حتى كاد قلبها يقفز من صدرها وهي ترى الصغير يمسك الميكروفون ليقلد ما يأمره بنطقه أخيرًا: «ما.. ما...».

- معقول؟! لا أصدق! كيف فعلتها؟!

- عيب يا لذيذ هو أنا تلميذ؟!

تلتفت نحوه بدهشة من عبارته لأول وهلة فيبتسم بخجل رجولي نادر وسبابته تلاعب أرنبة أنفه:

- اعذريني! قلتها بعفوية! هي عبارة تكاد تكون ملتصقة بلساني.

يهم باعتذار آخر لكنها تضحك.. ويتغير مع ضحكتها كل شيء! كأنما يرقص على إيقاعها الكون كله.. هل كان يفكر في اعتذار؟! لا.. لن يفعلها.. مرحبًا بأخطاء تنتهي بضحكة خرافية كهذه!

- عادةً ما يخيفني الغرور في الناس.. لكنك تختلف.

تقولها بارتباك وهي تقطع ضحكتها، تغطي شفتيها بكفها كأنها تداري عيبًا، ثم تضم الطفل إلى صدرها تقبل وجنته، فيهز صفوان رأسه مستفسرًا عما تعنيه لترد بشرود كأنما تكلم نفسها لا تكلمه هو:

- لا تستمد ثقتك بنفسك من تحقير غيرك.. بل على العكس كأنك تنقل الثقة بداخلك من نفسك إلى من أمامك.

تتسع ابتسامته وهو يود في هذه اللحظة لو تنظر إليه، لكنها

كعهدها تهرب من نظراته، يكاد يوقن أن جحيمًا داخلها يبتلعها.. فقط لو تعطيه الفرصة فيمد لها يدًا!

- هذا يشجعني لأطلب منكِ شيئًا.

ترفع إليه رأسها بترقب ليشير إلى الصغير قائلًا:

- هو يحتاج إلى توسعة نطاق بيئته الخارجية للتعرف على ما حوله أكثر.. وجوده الدائم في مكان مغلق هو أسوأ ما يمكن فعله به.. ما رأيك لو نذهب به في نزهة إلى الشاطئ؟!

- مستحيل! لن يوافق جده أبدًا.. لا يريد أن يراه أحد فيدرك علته.

تقولها فيطرق برأسه في أسف.. لكنها تستدرك بارتباك:

- لكنه مسافر بعد يومين.. صابرينة قد تساعدنا في تدبر الأمر دون أن نخبره.

يبتسم بأمل فتردف بصوتها الواهن دائمًا:

- لكنني لا أريدك أن تتعشم كثيرًا.. ربما لن نستطيع فعلها كذلك.

- صابرينة ستفعلها! يقولون إني أُحسِن قراءة الناس وظني بها أنها امرأة قوية تجيد تطويع الأمور لصالح مرادها.

ترفع إليه وجهها بصدمة للحظات.. لو أراد تأويل الأمر كما يريد قلبه لقال إنها تغار!

- معك حق.. هي دومًا تجيد الحصول على ما تريد.. كنا دومًا أنا وهي وجهَي العملة.. أنا «الملك» بصورته النمطية الساكنة.. وهي

«الكتابة» التي تجيد التعريف والمراوغة وتلاوة الحقائق.

- لم أقصد أنك ضعيفة.. أنتِ فقط تستأنسين بالظل.

- وما أكثر الظلال تحت أشجار الكرملاوي! لكنها ليست للجميع!

تطلق ضحكة قصيرة مختنقة بمرارتها تغطيها بكفها كالعادة كأنما قالت نكتة! يرتجف قلبه بعمق شعوره بها.. لكنه يتحكم في نفسه بقوة لا تنقصه ليسألها بما بدا بريئًا لأقصى حد:

- كيف تزوجت صابرينة بنعمان؟! عفوًا.. لكنها تبدو زيجة غير متناسقة إطلاقًا!

- لا تسألني عن أسباب السيد نعمان فلا أحد يعرف كيف يفكر.. لكنني أظن أنها كانت مجرد نزوة كعهده في زيجاته المتكررة.. أما عن صابرينة فكانت وقتها تمر بظروف صعبة خاصة بعد وفاة أمي.. الدنيا كلها في عينيها كانت أكثر ضيقًا من ثقب الإبرة.. لم تكن تريد سوى بيت تشعر أنها مالكته وعائلة تظلها في كنفها.. ورجل يشعرها أنها ليست عارًا بل يضعها في عينيه.. وقتها بدا السيد نعمان وكأنه جني المصباح الذي يمكنه منحها كل هذا.

لم تستطع أن تخبره عن ماضي صابرينة الحقيقي، عن جرح ترك أثره في روحها وجعلها تكفر بكل أحاديث القلوب، جرح ألقاها على عتبة عقل ذكي لم يخذلها وتظن أنه لن يفعل!

ورغمًا عنها وجدت نفسها تستفيض بالبوح، كأنما تكفي سَكينة وجوده لتمنحها كل الطمأنينة وتزيح الستار الثقيل عن الماضي:

- آدم يتهمني أنني أنا من وضعتها في طريق أبيه، كان دومًا يظن أنني كنت أريد لصديقتي أن تكون معي في نفس البيت، بل كان يتطرف أحيانًا ويظن أنها تستغل فتنتها للتلاعب بعقل السيد نعمان، وأنني -معها- نريد إحكام سيطرتنا على بيت الكرملاوي...

تشعر أنها تمادت في البوح فتغتصب ضحكة قصيرة تليق بمرح مصطنع:

- هكذا هم الرجال دومًا يظنون أن كيدنا عظيم بينما في الحقيقة نحن حمقاوات تذهب بنا كلمة وتعيدنا أخرى.

يشعر بقبضة تعتصر قلبه وهو يسمعها لأول مرة تتحدث عن آدم بهذه الطريقة، يعرف كم تحبه.. كلهم يتندرون عن عشقها له منذ صغرهما.. لكنه الآن يشعر أن جدران العشق تتشقق ليبدو خلفها رماد جرح!

لماذا يشعر أنها تخفي شيئًا خلف ما قالته؟! أنها روت جانبًا من الحقيقة لكن.. ليست كلها؟!

تشعر بنظرته النافذة تخترقها فتتنحنح وهي تقوم من مجلسها، تنفض ثيابها عن غبار غير موجود كأنما تقطع عليه سبيل استكشافها، تضم صغيرها إليها تتشاغل بالنظر إلى ملامحه البريئة قائلة:

- أظننا سنكتفي بهذا الإنجاز اليوم.

يهز رأسه مجبورًا وهو يقف بدوره ليلملم أشياءه ثم يرفع رأسه إليها بابتسامة طوقتها:

- سأنتظر أن تكون جلستنا القادمة على الشاطئ كما اتفقنا.. أثق بكِ.

فتشرد عيناها بحزن غامض وهي تهز رأسها:

- وأنا أثق بصابرينة.

***

- لم أكن أظنه سيفرح هكذا.. قلت سيخاف!

تقولها أرجوان وهي تراقب ناجي يلعب بالرمل على الشاطئ، يبني له صفوان بيتًا من الرمال يبعثره الصغير بسرعة مستمتعًا بملمس الرمل بين كفيه وبسمة واسعة تملأ وجهه.. يضحك صفوان وهو يشير إلى البحر هاتفًا:

- هو فعلًا خائف من البحر.. لكنني أعدك أن يكون أكثر جرأة المرة القادمة.

يعبس وجهها وهي تكره أن تخبره أنها لا تتأمل كثيرًا بمرة قادمة، بالكاد استطاعت بمساعدة صابرينة أن تدبر الأمر هذه المرة، بل إن الأخيرة اضطرت إلى السفر مع نعمان كي تضمن ألا يفاجئهم بالحضور.

ورغم أنها اختارت بقعة شبه منعزلة من الشاطئ كي لا يراهم فيها أحد فينقل الخبر إلى نعمان كانت تتلفت حولها بقلق ما عادت تتحكم فيه، ماذا لو كان آدم يراقبها؟! ماذا لو رآها هنا مع صفوان؟! هل سيقتنع لو أخبرته أنها هنا فقط لأجل الصغير؟! وهل تقتنع هي

نفسها؟! هل يمكنها تكذيب شعورها أنها تنجذب رويدًا رويدًا نحو صفوان؟! أنها تعلقت به؟!

تشهق هاربة من الخاطر الأخير وهي تعاود التلفت حولها بخوف كأن آدم يمكنه مراقبة أفكارها لكنها تفاجأ بصفوان يضع سبابته على شفتيه مشيرًا لها بالصمت فتتسع عيناها بدهشة وهي ترى استكانة الصغير بين ذراعيه في وضع النوم، تكاد تهتف به ألا يتعب نفسه فهو لا ينام أبدًا إلا في حضنها هي لكنها تُفاجأ بأنفاس الولد تتباطأ وجفناه يتثاقلان قبل أن يستسلم تمامًا للنوم.

صمت طويل يحلق بينهما حتى يقطعه همسها:

- تعرف أنها المرة الأولى التي ينام فيها مع أحد غيري؟!

- ولا حتى مع أبيه؟!

يستدرجها للحديث فتعاود التلفت حولها، يقاطعها حضور الخادمة ببعض الشطائر والعصائر، تكاد الخادمة تحمل الولد من صفوان لكنه يشير لها أن تبقيه كما هو فتبتعد لتترك لهما حرية الحديث...

- لا تحبين الحديث عن أبيه؟!

يقولها بين ترقب وغيرة لم يستطع كبحها ملاحظًا ردة فعلها المرتبكة.. لكن كأنها لم تسمعه! تشرد ببصرها نحو الشمس التي بدأت رحلتها للغروب قائلة:

- بعضهم يسخر مني عندما أقول إنني أحب الغروب، تريحني فكرة أن تعود الشمس إلى مأواها ولو كان في هذا انطفاؤها.

- أتفهم هذا الشعور بالاعتياد.. الخوف من التغيير.. الرضا بالواقع المرير المعلوم أهون من المخاطرة لأجل حلاوة المجهول.. أتفهمه لكنني لا أرتضيه.

تبتسم وهي تختلس نظرة قصيرة إلى وجهه ولا تزال عيناها تهربان من عينيه:

- تعجبني طريقتك في الاختلاف في الرأي.

- أعرف.

- ماذا تعرف؟!

يزداد ارتباكها مع شعورها بذبذبات دافئة تغزل خيطًا غير مرئي بينهما، همسه يمزج ثقته بعاطفته:

- أعرف ماذا يعجبك.

من جديد تختلس نظرة أخري لتزيدها ابتسامته الواثقة ارتباكًا، كيف لا وهي تطوقها بهذا الشعور الذي افتقدته من زمن.. الأمان!

منظر الصغير وهو مستكين بين ذراعيه لا يختلف كثيرًا عن شعور قلبها بهالة حضوره.. هي التي تعلمت بأقسى طريقة كيف يظلم الشك جحورًا وها هي ذي ترى بعينيها كيف تشبه الثقة شمسًا تتوهج لنفسها ولغيرها!

تحاول الهروب من ارتباكها فتمد له يدها بالعصير لكن الصغير يتقلب بين ذراعيه في نومه بحركة مفاجئة فيقع بعض العصير على ذراعها وذراع صفوان معًا!

عفوية بساطتها وهي تتناول منشفة قريبة تمسح بها ذراعه تذهلها هي نفسها قبله! يزداد احمرار وجنتيها وهي تمسح ذراعها هي الأخرى غافلة عن ابتسامة توجت شفتيه وكأن كليهما شعر بنفس الشعور في نفس اللحظة حتى ولو لم يجرؤ أحدهما على البوح به.. أن ينغمر بأكمله في بحر هائج راضيًا بالغرق!

أنامله ترسم دائرة صغيرة على الرمال فترسم أناملها دائرة مثلها.. كفه تزحف ببطء.. ببطء شديد ترسم خطًّا من دائرته لدائرتها، فيخفق قلبها بجنون وعيناها تلاحقان حركة أصابعه، عجبًا كيف يمكنه أن يصنع من خط بين دائرتين جسرًا تعبر فوقه من رمادية عالمها إلى ألوان عالمه؟! ربما لهذا لم تشعر بنفسها وكفها هي الأخرى تتحرك ببطء أكثر نحوه كأنما تقصر الطريق!

لحظة واحدة تلامست فيها يداهما! لحظة واحدة شعر هو فيها ببرودة كفها وأحست هي دفء كفه! لكنهما تباعدا بمنتهى السرعة كأنما صعقتهما اللمسة! هي التي شعرت بدبلة آدم كطوق من نار حول إصبعها بل حول قلبها.. وهو.. هو الذي صفعه من جديد مرأى الوشم على كفها.. ليتكِ لا تكونين هي! ليتكِ!

أنا المنتقم

أنا آدم نعمان الكرملاوي.. لو كان لعقلي من ميزة أحبها فهي أنه يساعدني دومًا على الثأر ممن يتطاولون على حقوقي.. وأولهم أبي.. نعمان الكرملاوي نفسه!

تعرفون ذا التمثال في حديقة بيتنا لرجل يجثو على ركبتيه أمام عمود مكسور القمة؟! أنا من كسرته! أجل.. كنت أجيد الانتقام من نعمان في كل ما يحبه ويقدسه.. هذا التمثال الذي كان يعتبره اعترافًا بتقديس عادات وتقاليد عائلة الكرملاوي.. تتعجبون إذن أني كسرته؟! لم يكن أول ولا آخر ما كسرته من أقداس نعمان!

بعد وفاة أمي كنت أسمع صدى صرخاتها في ضحكاته هو! عندما قرر الزواج بعدها لأول مرة دعاني إليه، أخبرني أنه لن يحضر زوجته إلى البيت كي لا تشاركني امرأة أخرى ذكرى أمي، قالها وكأنه صنع بي معروفًا لكن الحقيقة أنه كان يضربني بسوط آخر على ظهري! عندما كنت أزوره في بيت زوجته كنت أحترق! هل كان يحبسها في غرفة وحدها كأمي؟! لا.. هل كان يمنع عنها الزيارة؟! لا.. هل كانت تصرخ؟! لا.. بل كانت تضحك بدلال مقزز وهي تتعمد معانقته أمامي!

يومًا ما نادتني وهي تتحسس بطنها لتخبرني بضحكة مستفزة تشبهها أن أنتظر أخي الذي ستنجبه!

ساعتها شعرت أنني فقدت غرفة أمي إلى الأبد.. ضاعت مني عتبتها فأين بعدها يمكنني البكاء؟!

ولأن العظماء مثلي لا يترجمون حزنهم إلا لانتقام فقد كان ثأري يليق بحزني!

أنا آدم نعمان الكرملاوي.. أعترف أنني أقتل إخوتي قبل أن يأتوا للحياة.. ليس ابن تلك المرأة فحسب بل كل مَن تزوج بهن نعمان بعدها! ظننت هذا مفهومًا وإلا كيف لم يحصل نعمان على أولاد رغم زيجاته المتعددة؟!

لن أخبركم كيف فعلتها؟! أي مادة كنت أضعها في الطعام؟! كيف كنت أحصل عليها وكيف عرفت أثرها؟! كل هذه التفاصيل تهين ذكائي كثيرًا لو زعمت أنها تستحق الذكر! المهم النتيجة! والنتيجة أنني كنت دومًا أجيد الانتقام ممن يسيئون إليّ.. انتقامًا نظيفًا لا يمكن لأحدهم أن يفكر أن لي يدًا فيه!

ماذا تظنونني أفعل بأرجوان وذاك الطبيب إذن بعدما رأيته معها؟! الحقير سمح لنفسه أن يختلي بزوجتي وهي كالعادة تستجيب صاغرة لداء الخيانة الذي يسري في عروقها؟! حمقاوان لا يعرفان أنني كنت أراقبهما.. رأيته كيف ينظر بحب إلى عينيها بل كيف تجرأ على لمسها!

الخائنة لا تُقدر ماذا خسرت بسببها؟! تظن نفسها يمكنها التخلص مني بعد خلافي مع نعمان؟! تظنني سأتركها لرجل.. أي رجل بعدي؟! آه يا أرجوان! لم تعرفيني بعد رغم عشقنا الذي كبر معنا منذ الصغر!

لا تخافوا عليّ ولا تحزنوا لأجلي فأنا أجيد أخذ ثأري، وانتقامي هذه المرة سيكون مبتكرًا.. أظن الموت سيكون أهون مما سأجعلها

يعيشانه!

***

- أنت قتلتني يا صفوان.. ذبحتني بالنصل الذي عشتَ عمرك تحميني منه!

تقولها أمه وهي تبكي فيمد إليها ذراعيه لكنها تبتعد، يركض كي يدركها فلا يصله سوى صدى بكائها، يتلفت حوله باحثًا عنها فيراهم يقتربون.. لا يميز ملامحهم لكن صرخاتهم تزلزل الأرض تحت قدميه...

- خدعتك أمك يا صفوان.. خانتك كما خانتني.

صوت أبيه القاسي كما عرفه ممتزجًا بشماتة ينتزعه من مكانه ليلقيه بعيدًا تحت أقدامهم...

- لا.. لا.. عودي يا أمي.. أنا أصدقك.. عودي وقفي معي في وجوههم.. عودي وسأدافع عنكِ.. سأعرف الحقيقة.. لن أترك بيت الكرملاوي حتى أنتزع دليل براءتك.. عودي يا أمي.. عودي.

لكنهم لا يبالون بصرخاته، يتقدمون أكثر ليطؤوه بأقدامهم ولا يزال صدى بكاء أمه يدوي حوله من مكان بعيد.

شهقة عنيفة تنبئ عن استيقاظه من الكابوس الذي يراوده من آن لآخر.. تتلاحق أنفاسه وهو يحاول لأول وهلة البحث عن وجه أمه حوله ودفع ركلاتهم الوهمية لكنه ينتبه أخيرًا لوجوده على فراشه في غرفته ببيت الست راوية...

يمسح وجهه المبلل محاولًا إقناع نفسه أنه مجرد عرق.. لقد كبر على البكاء كما يظن!

ينهض ليتوجه نحو الحمام القريب كي يغسل وجهه، تتعثر أنامله بوحمة خدّه فيتخذ قراره ليحلق لحيته.. يحتاج حقًّا أن يتوقف عن مداراتها.. لعله يجد في ظهورها بعض الونس!

يضع كريم الحلاقة على الفرشاة ليغمر به وجهه ثم يتناول الماكينة...

- يقولون إن هذه الأشياء لا تورث، لكنك ورثت وحمة أمك في نفس المكان! كأنه قدرنا أن تترك لنا ابنًا يذكرنا بعارها!

قالتها جدته ذات يوم، متشحة بالسواد حتى بدا له وكأن قلبها نفسه أسود كثوبها ووشاحها، كانت تنقي الحصى من الأرز في وعاء كبير مسطوح أمامها، ولما لمحت وجهه المحمر غضبًا مصمصت شفتيها لتشير إلى ما تفعله هاتفة:

- هكذا بعض البشر.. لا بد أن يُزال وسخهم كي يصلح ما بقي منهم!

لم يشعر بنفسه وقتها وهو يركل الوعاء كله لينقلب بمحتواه على الأرض، لم يبالِ بصفعة جدته ولا تهديدها له بإخبار أبيه عند عودته، لم يبالِ بـ«العلقة» التي نالها جسده من حزام أبيه عندما علم بما حدث، ولا بحرمانه من العشاء ليلتها كي يدرك قيمة نعمة الله، كان يكفيه أنه عندما نام ليلتها حلم بطبق من الأرز أعدته أمه، كاد يقسم ليلتها إنه ذاق روعته فشبع كما لم يشبع منذ رحيلها!

- ليس بعد يا صفوان.. ليس بعدا

ينتزع بها نفسه من شرود ذكرياته لترتجف أنامله فوق ماكينة الحلاقة، لن يحلق لحيته، لن يسمح لنفسه أن يرى «أثر أمه» على وجنته قبل أن يكشف الحقيقة، لهذا يلقي ما بيده جانبًا، يكتفي بغسل وجهه ثم يغادر نحو حديقة البيت التي يسقط الآن عليها ضوء النهار فيمنحها ألَقًا خاصًا كثياب عيد ارتدتها زهورها الملونة.

- لماذا استيقظت مبكرًا؟!

صوت راوية الحنون يبدو وكأنه يغسل بعض وجعه فيلتفت نحو كفها المستريحة على كتفه، يتمتم بصوت واهن لم تشفع له ابتسامته:

- رائحة كفك تشبه أمي.. هل كل الأمهات يتشابهن في الرائحة؟!

- لو كانت القلوب هي التي تشم فلا بد أنها نفس الرائحة.

تقولها المرأة بتأثر وهي تربت على كتفه فينكس رأسه ليصله صوتها الحنون:

- منذ جئت إلى هنا وأنا أشعر أنك تخفي سرًا.. لا أريد أن أضغط عليك لكن لو أردت الفضفضة فيقولون إنني أجيد الاستماع.

يرمقها بنظرة مترددة فتبتسم لتسأله:

- افتقدت أمك؟!

- افتقدتها؟!

يقولها وكان السؤال ليس في محله أبدًا قبل أن يكررها بصوت تصاعدت نبرات انفعاله:

- افتقدتها.. افتقدتها.. افتقدتها...

تربت بكفيها على ذراعيه المرتجفتين كجسده محاولةً تهدئته، تسأله:

- أخطأت في حقها؟!

- لا أعرف.. المصيبة أنني لا أعرف.. قد أكون أنا من قتلها! أحرقتها بالنار التي عشت عمري أحميها منها!

تكتم شهقتها بكفها وعيناها تتسعان بمزيج من استنكار وشفقة لكنه يبدو غافلًا وهو يلقي بعض الحمل من على كاهله:

- كبرت وأنا أسمعهم يتحدثون عن عار أمي! في طفولتي لم أكن أفهم كيف اختفت هكذا فجأة! كيف صار الحديث عنها محرمًا! أين اختفى أهلها! حتى كبرت وعرفت الحقيقة.. عاد أبي يومًا مبكرًا من عمله ليسمعها تكلم أحدهم على الهاتف.. تصرح له بحبها.. لم يحتمل المزيد فجذبها من شعرها ليلقيها بثيابها أمام بيت أهلها صارخًا وسط الجميع أنه لن يبقي في عصمته امرأة خائنة.. بكت أمي وتوسلت له أن يرحمها لأجلي.. اعترفت أنها أخطأت وأنها لن تعيدها مرة أخرى.. لكنهم قالوا له إن من تفعلها مرة تكررها ألف مرة.. قالوا له إنه إن سامحها على مكالمة صوتية فما يلي سيكون أعظم.. قالوا له إن ندمها مجرد تمثيل وإنها ستعيد الكرة في أول فرصة يرخي لها حبل الثقة.. تعرفين ما الغريب؟! أن أبي تزوج بعدها.. ضبطته زوجته

وهو يخونها مع موظفة لديه في المكتب.. رأته معها في أبشع صورة قد تراها امرأة لزوج يخونها.. لكن نفس الناس الذين وصموا أمي بالعار مضوا يهدئون زوجته الثانية ويخبرونها أن الأمر بسيط.. خطأ وسيمر.. كل الرجال كذلك وربما هي المخطئة لأنها لم تستطع الحفاظ عليه.. نصحوها أن تبحث في نفسها عن العيب الذي دفعه لخيانتها لأنها حتمًا هي السبب! أي ظلم هذا؟! أي ظلم؟!

تتنهد راوية بحرارة وقد دمعت عيناها لتسأله بصوت متهدج:

- أشعر وكأنك عثرت على أمك بعدها.. أنها أخبرتك الجزء الناقص من الحكاية.. هل كانت بريئة؟!

يهز رأسه نفيًا ليرد بخفوت كأنه يكره الاعتراف:

- لم تكن! اعترفت لي أنها حقًّا أخطأت.. ضعفت أمام شيطانها وقسوة أبي لتتسول كلمات الحب من غريب لكنها لم تزد عن مجرد كلمات.. أقسمت لي إنها ندمت على ما فعلته واعترفت بذنبها غير ناوية على تكراره.. لكن...

يقطع عبارته بتأوه محترق وهو يمسد صدره بكفه هاتفًا بلوعة:

- يصعب عليّ الاعتراف بهذا...

- لو لم تشأ الحديث يمكنك التوقف الآن يا ابني.. أعرف كيف يذبحنا البوح كما يذبحنا الصمت أحيانًا.. وأكثر!

لكنه يتنهد بحرارة ليستجمع قوته مردفًا:

- كلهم تخلوا عنها.. أبي فضحها.. وعائلتها تبرأت منها.. منعوها

تمامًا من رؤيتي ليس هي فحسب بل وكل عائلتها.. خطأ واحد كلفها عمرًا بأكمله.. لم تجد من يفتح لها ذراعيه سوى إحدى صديقاتها التي تكفلت بمساعدتها وإيوائها في بيتها.. أو هكذا كانت تظن قبل أن تتضح نواياها القذرة وتزل قدم أمي في البئر العميقة.. الخطأ الذي لاموها عليه تحول إلى جرم مشهود بعدما أيقنت أنها وإن تابت عن ذنبها فستبقى تعير به عمرها كله.. حرموا عليها الفرصة الأخرى فتساوت لديها كفة الصواب والخطأ.. ضلت طريقها مرة فحكموا عليها أن تبقى ضالة إلى الأبد.

تكتف راوية ساعديها كأنما تحمي قلبها من قسوة ما تسمعه، بينما يخبط هو بقبضته على صدره هاتفًا بحرقة:

- لا أقول إنها على صواب.. لا أزعم أنها ضحية.. بل إنني كثيرًا وقفت مع نفسي.. وضعت حالي مكان أبي وقلت «ماذا كنت سأفعل لو كنت مكانه؟!»، وما أرعبني حقًّا أنني عندما فكرت كـ «رجل» وجدت له العذر! لكنني عندما فكرت كـ «إنسان» وجدتني أبحث عن أمي.. أريد أن أسمع منها.. عندما رأتني بعد سنوات من فراقنا بدت لي وكأنها بعثت من جديد! انكبت على كفي تقبلها وتعترف لي بذنبها.. لم تدَّعِ مثالية ولم تحمل أحدًا وزر خطاياها.. بدت لي تائهة لا تعرف أول الطريق من منتهاه.. رائحة الكحول الكريه كانت تفوح من فمها.. وأشباح الذنب كانت تطوف على ملامحها.. وعندما فتحت ذراعيها لتعانقني وجدت نفسي رغمًا عني.. رغمًا عني.. أصفعها!

تملأ الدموع وجه راوية وقد عجزت عن الكلام بينما يردف وهو يحرك ذراعيه بعجز يشبه شعوره وقتها:

- صفعتها ودفعتها بعيدًا.. لكنها فتحت لي الباب بنفسها وهي تطلب مني أن أرحل ولا أعود أبدًا. رحلت عنها وفي نيتي ألا رجوع أبدًا.. استسهلت رميها بنفس الحجر الذي رماها به أبي وكل من حوله.. نظرت إليها من علو لأجدها ملطخة في بركة الوحل فاستحسنت مكاني على القمة.. لكن.. يوم بعد يوم كان يمر عليَّ وكلما ضعف قلبي كان عقلي ينتصر لمعاني الرجولة والشرف التي غرسوها فيَّ.. فأنبذها أكثر وأكثر.. حتى وقفت مع نفسي ذات ليلة وسألتها: «أيها أقرب للرجولة؟! أن أنبذها مستسهلًا وصمها بالعار أم أن أقف جوارها وأعيدها للطريق الذي حادت عنه خطواتها؟!».

- أدعو الله أن يكون هداك للجواب الثاني!

تضم بها كفيها في وضع الرجاء، فترتجف ابتسامة باهتة على شفتيه وهو يومئ برأسه بالإيجاب، لتتنهد بارتياح بينما تسمعه يردف:

- نبذني أبي، طردتني عائلتي، وصفوني بأنني عديم الرجولة والشرف، حرمني أبي من ماله وبيته، لكن توبة أمي كانت تعني ما يفوق الحياة نفسها بالنسبة إليَّ، عندما عدت إليها من جديد لم أعد أشم رائحة الكحول بل رائحة الخبز الذي كانت تعده لي في طفولتي، لم أر أشباح ذنبها تطوف فوق ملامحها، بل غلالة توبة رائقة ترجو السماح من رب رحيم، وفهمت معنى ألا نعين الشيطان على المذنب، ألا نغلق الباب في وجه طارق كي لا تتلقفه ذئاب الطريق.. عادت أمي إليَّ فعاد بيتي.. وعاد قلبي بل وعادت روحي! أخذتها وهربت بها إلى

مدينة أخرى كي أنجو بها وبنفسي من كل شيء.. كنت أتحامل على نفسي لأوازن بين دراستي وعملي.. أجل كنت أعمل لفترتين صباحًا ومساءً كي أتكفل بمصاريفنا معًا.. ورغم أني كنت أضطر إلى تركها طويلًا لكن الساعات القليلة التي كنت أقضيها معها كانت خير زاد لي، كانت تكفي لتمسح عني تعبي كله، ومن أول راتب كسبته اشتريت لها وشاحًا أبيض ما كانت تنزعه أبدًا عن رأسها، كانت تدعو لي وتقول إنني أهديتها أعظم هدية، إنني منحتها عمرًا آخر وحياة أخرى وقلبًا آخر، لكنني أنا من كنت أشعر أنها هي الهدية.. هي العمر والحياة والقلب.

لم يستطع كبح خيط الدموع الذي سال من عينيه مع ارتعاش صوته في حروفه الأخيرة، تربت راوية على كتفه لكن صوت اصطدام شيء ما بالأرض عند باب البيت يجعلهما يلتفتان إلى مصدره.

- أرجوان!

ترتبك راوية مكانها وهي تهم بالترحيب بها بينما ينعقد حاجبا صفوان بغضب هادر وهو يراها تنحني لتلتقط هاتفها الذي سقط...

- منذ متى أنتِ هنا؟! ماذا سمعتِ؟!

صرخته الهادرة تكاد تجمد الدم في عروقها وهي ترى هذا الوجه منه لأول مرة، وجهها الممتقع فاضح لما سمعته بينما تتلعثم حروفها بوهن صوتها المعهود:

- لم أقصد أن أسمع...

تقطع عبارتها بذعر فلم تحسب حساب ردة فعل صفوان العنيفة وهو يندفع نحوها لتدرك أنه كان أسوأ توقيت ممكن لوجودها هنا!

الغصن السادس

«الحب يختار عبيده، والكبرياء تصطفي أسيادها، وبينهما خيط رفيع يسير عليه القليل ممن يجيدون الموازنة بينهما.. القليل.. القليل جدًّا».

***

- جئت لأمر مهم.. كنت أريد أن أخبرك أن...

تتلعثم حروف أرجوان وعيناها تهربان من عينيه ليقاطعها صراخه بينما يقترب:

- ماذا سمعتِ بالضبط؟! كنتِ تتنصتين علينا؟! أنتِ بالذات لم يكن ينبغي أن تعرفي شيئًا!

يهتف بها بانفعال غريب على طبيعته الهادئة فتتراجع إلى الخلف تتمتم بخوف امتزج بوهن صوتها المعهود:

- لم أقصد.. أعتذر...

لم تمهله فرصة وهي تعطيه ظهرها لتركض بأقصى قوتها لكنه يركض خلفها ليدركها تحت شجرة قريبة، يمسك ذراعها ليوقفها فترفع ذراعها الحرة تغطي به وجهها كأنما توقعت منه أذى!

- أرجوان!

يهمس باسمها بانفعال تقافزت معه خفقاته وهو يزيح ذراعها عن وجهها لتتراءى له عيناها.. لم تكن أول مرة يميز الخوف فيهما لكن ما

ذبحه هذه المرة أنه يخصه هو!

- تخافين مني أنا؟!

هل هي اللوعة التي اختنقت بها حروفه؟! الحب الذي فاضت به نظراته؟! أم الحزن الذي مد بساطًا طويلًا بين نظراتهما؟! لعل كل هذا ما جعل الدموع تتكدس في عينيها دون أن تسقط كعهدها.. لكن...!

- حقك عليَّ!

كيف لبضعة أحرف أن تعيد لها إحساسًا فقدته من زمن؟! لم يقل «آسف» أو «أعتذر»، وربما لو فعلها لما أحدثت بها هذا الأثر! «حقك عليّ»! لا تذكر متى قالها لها أحدهم آخر مرة؟! متى تكفل أحدهم أن يكون لها هي حق عليه؟!

ربما لهذا وجدت دموعها المفقودة أخيرًا وهي تنهار ببكائها بين ذراعيه فيصلها صوته مبحوحًا بعاطفته إنما دافئ كعهده:

- يا الله! كل هذا بسببي أنا! لم أقصد اتهامك بشيء.. لكنني لم أكن أريدك أن تسمعي.. ليس الآن.

يقولها وهو يسندها إلى جذع الشجرة معانقًا كفيها بكفيه بينما نظراته معلقة بوشمها المغيظ.

الصراع على أشده بين جنباته يسحبه طرفان نقيضان.. قلبٌ يكاد يغادر صدره إليها، وعقلٌ يعنفه يذكره بما يقف بينهما! ليُفاجأ بنفسه قبلها يهمس دون محاذير:

- أنا.. أحبكِ.

يهيأ إليها أن أنفاسها كلها احتبست في حلقها لثوانٍ قبل أن تغادر صدرها فجأة في شهقة ليست كأي شهقة! كأنها شهقة مولود استقبل لتوه الحياة ويجرب لأول مرة معنى التنفس! بينما تسمعه يردف بحرارة أذابتها:

- هل قلتها؟! وماذا يعني لو قلتها؟! أحبكِ.. لا أعرف لها سببًا ولا غاية.. لا أعرف إن كان هذا زمانها أو مكانها.. لا أعرف حتى لماذا أقولها الآن وكأنها الكلمة المنطقية الوحيدة وسط الفوضى التي تحيط بنا.. كل ما أعرفه أنني أعنيها بكل حروفها.. لأول مرة أقولها.. لأول مرة أحسها.. لأول مرة أخافها.. لكنك تستحقين أن تكوني أول استثناءاتي!

أنفاسها تتلاحق كأنها في سباق طويل...

غمامة سوداء توشك أن تغشي عينيها وطيف آدم يحول بينهما.. يتوعدها كعهده لكنها ترفع نظراتها لأعلى فتنتبه لغصون الشجرة التي بدت لها وكأنها تضيفهما في كنفها، تحميهما، تضمهما، ولأول مرة في عمرها تتساءل عن معنى أن تظلل شجرة ما عاشقين! لكن سؤالها يذوب داخلها بنفس السرعة التي ولد بها لينتهي بهمستها اليائسة:

- آدم.

فينعقد حاجباه بينما تصطدم عيناه بدبلة غريمه وقلادته في عنقها ليسألها:

- ماذا عنه؟! أمَا زلتِ.. أمَا زلتِ تحبينه؟!

تدفعه بذراعين مرتجفتين لكنه يمنعها الهروب محاصرًا إياها بجسده وعينيه.. وقلبه!

لتجد نفسها تصرخ بالحقيقة الوحيدة التي صدقتها طوال تلك السنوات:

- أحبه.. أحبه.. لا يمكن ألا أحبه...

كل حرف منها كان يبعده عنها خطوة، قلبه يختنق بلوعته وهو يراها تنزلق بجسدها على جذع الشجرة تدفن وجهها بين كفيها، ينهمر منها سيل البوح:

- كبرت وأنا أحبه.. منذ كان طفلًا معي في المدرسة.. لماذا؟! ربما لأنه كان يعاني نفس ظروفي.. حُرم من أمه كما حُرمت من أبي.. كانوا يعيرونه بجنون أمه.. وكانوا يعيرونني بفشل أمي.. المرأة في نظرهم يقاس نجاحها بقدرتها على الحفاظ على بيتها.. بهلوان لا بد أن يجيد ترقيص عدة كرات بين كفيه في آن واحد ويا ويله لو سقطت منها واحدة! كانت أمي تدرس وتعمل وترعى البيت وتربيني لكنها أسقطت كرة الزوج الذي هجرها فصارت فاشلة تلاحقها لعنات سخريتهم.. آدم أحبني كما لم يحبني أحد.. حماني من بطش الرفقاء.. كبرنا معًا يومًا بعد يوم.. كان يفهم كيف أفكر.. ما الذي يسعدني.. ما الذي يبكيني.. كان يحفظ كل تفاصيلي.. رسم لي بيتًا ووفى بوعده وأسكنني إياه.. لهذا تبدو لي كل الأماكن غريبة عندما يغيب...

تتسع عيناه بانفعال رغم أن كلامها يتفق مع ما سمعه عن علاقتها

المتشابكة بآدم.. بينما تبتسم بمرارة وهي تلوح بذراعيها:

- أعرف أنه آذاني كثيرًا! شوَّش داخلي كل الأشياء التي أحببتها في نفسي.. بل وفيه هو.. وأولها إحساسي بالأمان معه.. لكن...

- لكن؟! أي لكن؟! ما الذي أجبرك على البقاء معه إذن طوال تلك السنوات؟!

- هو آذاني نعم.. لكن هذا كان من فرط حبه لي.. لم يؤذني وحدي بل كل من حاول أن يخترق دائرتي ويخوِّفه من فقدي.. هو يجن عندما يحس أنه على وشك خسارتي.. وأنا.. أنا كنت سبب ما يفعله بي!

- هل هذا هو ما جعلك تصدقينه طوال هذا الوقت؟! أنتِ المذنبة؟! أنت الفاشلة كأمك لو سمحتِ لكرته أن تسقط من بين يديكِ!

كمن ضغط بكل قوته على جرح نازف!

لهذا انتفضت واقفة مكانها لتهز رأسها بعنف بينما يردف هو بين غضب ويأس:

- هو جعلك تصدقين أنك لا تستحقين الأفضل.. تشعرين بالغربة دونه لأنك فقط اعتدتِ الحياة داخل سجنه وتخافين التحليق بعيدًا!

لكنها لا تزال تهز رأسها برفض فيطلق زفرة قصيرة وهو يرى شتاتها عالقًا كضباب بين عينيها، بينما تهمس بضراعة:

- لا تكلمني عن حبك ثانية.. أرجوك.. أنت هنا لأجل ناجي فحسب.

عتابه المتحسر في عينيه يذبحها فتشيح بوجهها! يا الله! كيف يمكن أن تكره نفسها أكثر؟!

لكنها تردف:

- أنا أشكر القدر الذي جعلني أسمع حكاية أمك منك.. جعلني هذا أوقن أكثر أنك كما ظننتك أول مرة.. محل ثقة.. لكنني لن أقدر على منحك ما هو أكثر!

يعيده حديثها عن أمه لما يفترض أن يفصل بينهما فيشعر بحاجز غير مرئي يعاود الارتفاع بينهما.. ها هو ذا عقله ينتصر وقلبه ينزوي في ركن بعيدًا! ولا عزاء لاعتراف حب هزم عقله قهرًا لكنه الآن سيعود إلى جحره مهزومًا!

- كما تريدين...

يقولها لتعود لصوته نبرته العملية وهو يسألها عن سبب حضورها لبيت راوية منذ قليل:

- قلتِ إنه أمر مهم.

- السيد نعمان عرف أننا خرجنا معًا إلى الشاطئ.. ثار كثيرًا ويريد رؤيتك.

الخوف يخنق صوتها الواهن كعهده وهي ترجوه أن يحتمل ثورته لو تمادى في غضبه فيدرك أي توبيخ ناله، لكنه يرد بابتسامة مستهينة واثقة وبشجاعة من لم يعد لديه ما يخسره:

- ليكن! نقابله!

أنا الخائف

أنا آدم نعمان الكرملاوي.. أعترف أنه لا يخيفني في هذه الدنيا قدر شيئين: خسارة أرجوان.. وعمتي بانسيه! لا.. لا أخاف خسارة بانسيه بل أخافها هي نفسها!

حتى مناداتي لها بعمتي بقيت غريبة مع فارق السن الكبير بينها وبين أبي فلطالما شعرت بها كأخت كبرى.. أخت لم أكن أرحب بوجودها كثيرًا!

منذ طفولتي وفي عينيها الزجاجيتين ثأر يناديني أنه سينالني يومًا! صمتها لم يكن واهنًا كما أحب في أرجوان.. لكنه كان صمت العزيز الذي لا يرضى أن يذله الكلام! ربما لهذا كنت أخافها كثيرًا خاصة بعدما عرفت تفاصيل الحادث الذي تعرضت له والذي جعل حبيبها يهجرها.. ذنب آخر لنعمان أكّد لعنة أشجار الكرملاوي التي لا تظلل العاشقين!

ولأن خوف مثلي ليس كأي خوف كنت أترجمه لمضايقتها.. كنت أتعمد الجلوس طويلًا أمام كرسيها حيث تقبع ساكتة.. أذكرها بما فقدته وما ستعانيه.. بل إنني تماديت يومًا فأحضرت لها صورة لحبيبها السابق مع زوجته وأولاده كي أغمد النصل في صدرها أكثر!

يومها رأيتها تبكي بصمت كما لم تفعل من قبل.. صمتها لم يعد عزيزًا بل مقهورًا.. ربما لهذا كانت هذه هي المرة الوحيدة التي شعرت فيها بالشفقة نحوها وعاهدت نفسي ألا أفعلها من جديد!

عادت عيناها الزجاجيتان إلى سجن يشبه سجن شفتيها.. وعدت إلى خوفي منها خاصة ليلة زفافي من أرجوان.. هاجسٌ قوي كان يجتاحني أنها ستنهض من كرسيها وتصرخ لتفسد الزواج وتنتزع مني حبيبتي كي تؤلم قلبي كما آلمت قلبها.. لهذا لم أكن مبالغًا عندما قضيت الليلة كلها أراقبها بتوجس، ورغم أن الليلة مرت بسلام لكنني بقيت على خوفي اللامبرر منها.

الماكرة تخدعنا! هذا ما عرفته منذ أسابيع قليلة.. لقد تعافت.. الآن يمكنها الحركة بل والكلام كذلك.. أنا رأيتها بنفسي لكنها مع هذا تصر على التظاهر بالعكس.. لم يخِب ظني إذن! هي تخطط لتنال ثأرها من نعمان.. تراني أكون أنا أداةَ انتقامها هذا؟!

لا بأس! يعجبني كثيرًا أن يتراقص خصمي خلفي وهو يظن أنه يخدعني.. أضحك كثيرًا وأنا أتخيل صدمته يوم ألتفت فتلتقي عينانا ليدرك أي مغفل هو.. وأي داهية أنا! أنا من يضحك في النهاية.. وأنا من يعلن متى وكيف سيسدل الستار!

تمامًا كما اليوم.. عندما أتتني أرجوان بقدميها.. بحثت عني حتى عثرت عليّ.. بل إنني أنا من تركت لها الإشارات التي ستعرفها بمكاني وإلا فلو أردت الاختباء فلن يمكنها أبدًا أن تجدني!

جاءت نادمة مستغفرة.. اعترفت لي بما كان بينها وبين ذاك الطبيب! الأحمق يبدو معجبًا بها لكنها صدته وأغلقت بابها في وجهه.. هكذا قالت لي لكن هل أصدق؟!

آه! أريد أن أصدق! كعهدي كلما تأتيني بعد واحدة من خياناتها

أجدني أميل لأن أعفو عنها.. لمن أتركها؟! هي لي.. لي وحدي رغمًا عن الدنيا كلها بل وعنها هي نفسها! ربما أعاقبها كي لا تعيدها لكنني أعرف مثلها تمامًا أنني لن أفرقها عن أنفاسي ما دام في قلبي نبض يتردد!

الليلة تجدد اشتعالنا بلهيب حبنا.. سقتني من عذب وصالها ما يكفي دومًا لأن أحبها من جديد.. لن أزعم طهارة لا أدعيها فقد ذقت الكثير من كؤوس النساء لكن مذاقها هي بقي دومًا مختلفًا.. كؤوسهن تسقي لكن كأسها وحدها تروي! طالما كنت أشبه النساء بالدجاجات! أرجوان دجاجة مسلوقة صحية لكنها تفتقد المذاق الحارق اللذيذ للدجاج المقرمش المقلي ومع هذا أشعر أن لمستها خاصة جدًّا لا تشبه غيرها.. تطفئ لهيبًا بداخلي لا يهدأ بسواها.. وعندما ذابت بين ذراعيّ هامسة أنها لم ولن تحب غيري أردت حقًّا تصديقها.. هي صديقتي وابنتي وأمي.. وزوجتي! لن تنتهي قصتنا أبدًا.. لن تنتهي حتى يواري التراب جسد أحدنا!

ومع هذا أعترف بقهر هذا الشعور الذي يملأني بقرب حرماني منها.. أنا خائف ولا يطمئنني إلا عناقها.. عناقها الذي -للعجب- يثير خوفي أكثر وأنا أتخيل لحظة أُحرَم منه!

خائف وهي بعيدة.. خائف وهي قريبة.. خائف.. خائف!

***

- أين كنتِ؟! لماذا تأخرت هكذا؟!

تهتف بها صابرينة بقلق وهي تستقبل أرجوان التي رمقتها بنظرة

طويلة غامضة قبل أن تنهار جالسة على كرسي قريب كدُمية انقطعت آخر خيوطها...

تجلس صديقتها على الأرض قبالتها، تربت على ركبتها وقد فهمت من ملامحها ما جرى لتقول بنبرة أقرب للجواب منها للسؤال:

- آدم من جديد!

تتوالى شهقات أرجوان واشية بقرب بكائها، لتهمس بشرود:

- تعرفين أنني اليوم بكيت لأول مرة منذ ليلة عيد ميلاد ناجي الأخيرة؟!

تدمع عينا صابرينة وهي تتذكر ما حدث في تلك الليلة الكارثية، تسألها بحذر عما حدث لترد أرجوان بتنهيدة:

- صفوان اعترف لي بحبه.

تتلون ملامح صابرينة بمشاعر متباينة وهي تبحث عن رد مناسب لكنها ما كادت تفعل حتى فاجأهما دخول نعمان العاصف، بسخريته القاسية:

- من يراكما تتسامران هكذا لا يصدق أن واحدة منكما قد تبيع الأخرى لأجل مصلحتها!

تتجمد ملامح أرجوان كعهدها كلما نالها واحد من اتهاماته بينما يمتقع وجه صابرينة وهي تحدجه بنظرة راجية لم يلتفت إليها وهو يشير إليها بسبابته مخاطبًا أرجوان بشماتة:

- تعرفين من وشى بك وأخبرني بخروجك مع ذاك الرجل؟! هي! أراهن أنها هي من منحتك الأمان وأقنعتك أنها ستسافر معي لأجل التغطية على ما تفعلين ثم ضربت ضربتها في الوقت المناسب!

- نعمان!

تهمس بها صابرينة بنبرة مذنبة وهي ترفع عينين مغرورقتين بالدموع نحو أرجوان التي بدت ملامحها جامدة تمامًا، فيما يتقدم نعمان منها هاتفًا:

- لا تعنيني قذارات أفعالك وأفكارك.. دعي لي ناجي واخرجي من البيت.. وافعلي بعدها ما شئت!

- أرجوك يا نعمان.. ليس الأمر كما تظن.. هي خرجت معه فقط لأجل الولد.

تهتف بها صابرينة وقد بدأت دفاعًا طويلًا غابت أغلب كلماته عن أذنَي أرجوان التي بدت وكأنها قد اختُطفت إلى عالم آخر!

المرئيات تتشوش في ناظريها.. لم تكن أول مرة تكتوي بنار الظلم.. تفحمت زهور القلب فصارت رمادًا!

تشعر باختفاء نعمان من المشهد فيعود لها إدراكها، تسمع سبابه الساخط من بعيد بينما يغادر فتلتفت نحو صابرينة تسألها:

- هل فعلتِ هذا؟! هل كنتِ أنتِ حقًّا؟!

تومئ صديقتها برأسها، تعانق كفيها بكفيها ثم تضعهما معًا على صدرها.. هذه الحركة المميزة التي عَهدتها كلتاهما طوال عمر

صداقتهما منذ سنوات كأنما صارت أيقونة لهما وحدهما.. لتهمس صابرينة بمزيج غريب من قوة وضراعة يكاد يميزها وحدها:

- رأيت رسالة على هاتف نعمان.. كان يكلف أحد رجاله بمراقبتك.. الرجل كان يخبره بخروجك مع صفوان.. قرأتها قبله لهذا قررت أن أخبره كي لا يفقد ثقته بي.. قلت لنفسي لا تحترق بطاقتي كي تنفعك أنت وقت الحاجة.. الآن نعمان يعرف أنني قد أبيعك لأجل مصلحتي.. دعيه يصدق هذا كي نخدعه.. تعرفين أنني فعلتها لأجلك.. تعرفين أنني لا أفكر في أي شيء سوى مصلحتك أنت وناجي.

تهز أرجوان رأسها بقناعة وابتسامة شاحبة تتوج شفتيها، فتقبل صابرينة رأسها لتهمس أمام عينيها بقوة:

- هذا البيت أخذ منا الكثير.. والعدل يقول أن نكون نحن أسياده في النهاية.. ثقي بي وسآخذ لك حقك.

- تأخذين حقي؟!

- نعم.. أقسم لكِ.. أن آخذ لك حقك من كل من ظلمك.. كلهم!

تهمس بها صابرينة وهي تستخرج من حنايا ثوبها صورة أمهما الراحلة، أجل.. كانت ولا تزال تعتبر أم أرجوان أمها هي الأخرى.. هذه الصورة التي رفعتها بينهما كأنها تجعلها شاهدًا على قسمها فترتجف ابتسامة أرجوان وأناملها تتلمس نفس الصورة في نفس اللحظة.. شاهدة على أمس وغدا!

======

«صفوان اعترف لي بحبه...».

تتذكرها صابرينة بصوت صديقتها فتتلون ابتسامتها في مرآتها بينما تطالع وجهها الوحيد في غرفتها.. حب؟! حب! ذاك النصل شديد الحدة الذي تغرينا نعومته فلا ننتبه إلا على جرحه!

تتأوه بخفوت وقبضتها تعتصر قماش منامتها الحريرية، تتذكر حكاية سمعتها يومًا عن مجموعة من القنافذ شعرت بالبرد فالتصقت لتستجلب الدفء لكن أشواكها وخزت بعضها بعضًا فتعلمت القنافذ كيف يمكن أن تجيد تقدير المسافة المناسبة كي تنال الدفء ولا ينال منها الشوك.. لكنها هي.. هي القنفذ الذي اضطر أن يخفي أشواكه كي لا ينفر منها الجميع.. كما تنفر هي من نفسها!

لماذا انقبض قلبها إلى هذا الحد عندما اعترف صفوان بحبه لصديقتها؟!

وكعادتها كلما تحتاج إلى البوح تهرع نحو دفتر مذكراتها الذي تخبئه بعناية بين حاجياتها، تغلق الباب بالمفتاح ثم تأخذ نفسًا عميقًا لتشرع في الكتابة:

«ابني الذي لم أنجبه بعد.. كعهدي لا أعرف الفضفضة بحرية إلا معك.. خالتك اليوم كادت تغضب مني.. تتعجب أني أدعوها خالتك؟! طالما شعرت بها كذلك ولآخر لحظة في عمري ستكون مكانتها في قلبي كذلك! أخت لم تلدها أمي.. ربما لم أعرف لي أمًا ولا أبًا.. لكنني عرفت أرجوان وعرفت أمها فكانتا لي أختًا وأمًّا.. لماذا إذن فعلت

بها ما فعلت؟! ليس خطأ اليوم فحسب بل جريمتي الكبرى في حقها منذ سنوات؟! لا تسألني فأنا نفسي لا أفهم نفسي أحيانًا! مارد عاصف بصدري ينهشني ولا ترضيه إلا قرابين الأذى! هل صدقتُ حقًّا أنني سيئة من فرط ما يصمونني بها؟! يقولون إن الكذب لا يحتاج الكثير ليتحول إلى حقيقة، فقط يكفيك أن تسمع ترديده كثيرًا.. وأنا اكتفيت! أجل.. صدقت أنني سيئة كما يزعمون!

اليوم قد تعرف خالتك الحب لثاني مرة.. يداعب قلبها ستاره الوردي الرقيق ينتظر أن تمد أناملها لتزيحه برفق كي يمكنها النظر عبر نافذته إلى جنة لا ينفد نعيمها أبدًا! أعرف هذا الشعور! أعرفه جيدًا! تسألني كيف عرفت أمك الحب لأول مرة؟!

كنت قد خرجت لتوي من الملجأ.. شديدة الفتنة.. شديدة الوحدة.. شديدة الضعف.. مثلث مثالي يصلح لأن تحوي أضلاعه مشروع خطيئة! لكنني كسرت ضلع «الضعف» وتحررت...! أو هكذا ظننت وأنا أحلق كفراشة انجذبت نحو نور الحب حتى احترق جناحاها!

لم يكن وسيمًا.. لم يكن ثريًا.. لم يكن أنيقًا.. «عاديَّته» كانت سر انجذابي نحوه.. ربما لأنني خشيت أن أتمنى الأفضل! طالما ظننت أن مثلي لا تستحق الأفضل! اسمه؟! تصدقني يا بني لو أخبرتك أنني ما عدت أذكره؟! ضاع من ذهني مع ما ضاع.. تعال ندعوه معًا «فقاعة»! تضحك؟! سلمت الضحكة يا قلب أمك! صدقني يليق به الاسم.. تعرف ما يحل بالفقاعات عندما تعانق الصبار؟!

آه يا صغيري! تسألني كيف عرفته؟! لا تخف لم أنسَ هذا مع ما

نسيته فالمرأة لا تنسى أول زهرة حب أمسكتها يداها.. لا عطرها يُنسى ولا الشوك! كنت أسير وحدي يومها عائدة إلى بيت «أم أرجوان» ببعض الحاجيات التي اشتريتها، تعدى عليَّ بعض الشباب بمعاكساتهم وتجرأ أحدهم ليمسك ذراعي، ساعتها شعرت بشلل جسدي وقد عادت إليَّ ذكريات الملجأ القبيحة، اختفى الطريق، غاب ضوء النهار، وتشابهت الوجوه، صارت جميعها وجهًا واحدًا.. يدًا واحدة تجذبني نحو الظلام لتنتزع مني ثمنًا أدفعه بنفس الطريقة! لكنه ظهر من العدم كطوق نجاة، لأول مرة لا ترهبني ضخامة جسد أحدهم بل تطمئنني وأنا أراه يصرعهم جميعًا لتكون أول كلمات بيننا: «أنتِ بخير؟!».. ولأول مرة كذلك أتمنى لو أصرخ بالحقيقة.. لو أهتف دون قيود أنني لست بخير.. لم أكن يومًا بخير.. بل لا أعرف أي خير هذا يتوقعون مني أن أعرفه! ووجدتني وقتها أهز رأسي نفيًا ودموعي تجري على وجنتي، لم أنتبه أنني كنت قد سقطت على الأرض إلا عندما ساعدني ليرفعني بذراعه نحوه.. والتقت عينانا! وكذلك للمرة الأولى عرفت نظرة أخرى في أعين الرجال غير نظرة الاشتهاء.. نظرة لا تعريني بل تغطيني! دفؤها يكفي ليقهر أي صقيع!

ولم أكد أتبين تكسُّر بعض ما كنت أحمله وفساد البعض الآخر حتى شعرت بالخزي! ستغضب السيدة مني! صحيح أنها كانت تعاملني بطيبة لكنني كنت أترقب لطمة القدر في أي وقت! هل تطردني؟! هل تحرمني من صحبة أرجوان التي صرت أعتبرها كأختي؟!

لم أنتبه أنني كنت أتفوه بأفكاري بصوت مسموع بما بدا كالهذيان إلا عندما رقت ملامحه وصوته يهدهدني مطمئنًا كنظراته: «لا تحملي

همًّا.. تعالي نشتري غيرها تعودين بها إلى سيدتك».. وعدت إلى سيدتي! عدت بكل شيء عدا قلبي!

لن أخجل من البوح لك كيف تعددت لقاءاتنا المختلسة بعدها.. كيف صار لي الدنيا وما فيها.. كان سائقًا بسيطًا لا يريد من الدنيا سوى «بنت الحلال» التي ترافقه في طريقه وتربي له أولاده، وكنت أنا فتاة أبسط لا تريد من الدنيا سوى ستر العائلة! لهذا ظننتنا متعادلين! صحيح؟!

لا أذكر أنني عريت مخاوفي وذكرياتي وأحلامي لأحدهم قدر ما فعلت معه هو.. كنت أتحرج من ذكر أيام الملجأ للجميع حتى أرجوان وأمها.. لكنني معه هو بحت بكل شيء.. أجل.. لا تتعجب.. أخبرته بما حدث معي هناك رغم أن كل ذرة تعقل داخلي كانت تصرخ بالعكس! لكنني كنت قد عاهدت نفسي ألا أخفي عليه شيئًا.. أي شيء! ماذا كان رد فعله؟! «أنتِ عذراء؟!» كانت أول ما قذفه لسانه بوجهي ساعتها واحمرار وجهه المنفعل أشعرني لأول مرة بالخوف منه، ولما هززت رأسي بالإيجاب وجدته يتنهد بارتياح لم أفهمه! كأن كل قيمتي كامرأة ليست سوى بشيء كهذا!!

لا أنكر أنه تعاطف معي، تعاظم لطفه واهتمامه بي بعدها كأنه يريد تعويضي عما لاقيته، خطبني من سيدتي واشترى لي أول قطعة ذهبية امتلكتها في حياتي، وعندما وضع دبلته في إصبعي تساءلت: «كيف لحلقة بهذا القطر الضيق أن تتسع لتساوي الكون كله؟!».. من قال إن العمر يحسب بالسنين؟! أنا عشت معه في عامين ألف عمر! متى إذن توقف عداد السعادة عن الدوران؟!

آه يا صغيري.. آه! بعض الجروح لا يتوقف نزفها أبدًا.. تبقى طوال العمر طعنة بين الضلوع!

تزوج «فقاعة»! تزوج ببساطة كتابتي لهذه الكلمات! نمت يومًا وصحوت لأجده يخبرني أنه تزوج! «لم أخنكِ ولن أخونكِ أبدًا! افهميني! ليس زواجًا بالمعنى المفهوم! هي زوجة صاحب التاكسي الذي أعمل عليه وقد توفي زوجها لتوه كما تعرفين! المرأة كبيرة السن، ضعيفة ووحيدة وتريد واحدًا يرعاها ومالها! هي تعرف كم أحبك ولا تعارض زواجنا.. سيكون لكِ قلبي وجسدي وليس لها مني إلا حمايتي لها ممن يتربصون بها»، قالها لي بتبجح من يعتصر عنقك بين كفيه طالبًا منك ابتسامة! بقي يقسم لي لأيام إنه لم ولن يحب سواي.. ولما وجدت الطاقة لأصرخ في وجهه أخيرًا أن العهر ليس للنساء فحسب وأنه باع نفسه لأجل المال صفعني! لم تؤلمني صفعته بقدر ما أوجعني أنه عيرني بماضيّ! من أنا لأرفس نعمة حبه؟! رضي بالهم والهم لم يرضَ به! واحدة مثلي مدنسة بنسبها وجسدها يجب أن تقبّل ظاهر كفها وباطنه شكرًا لله على رجل مثله!

يومًا ما ستكبر يا صغيري! ستعرف كل أنواع المشاعر لكن أقسى ما قد تواجهه هو الغدر.. وبالذات غدر الأحبة! صفعة الكف التي طالما ربتت على كتفك! لكمة من ذراع طالما هدهدك عناقها! أدعو ربي ألا يذيقك مرارة كأسه أبدًا!

رحل «فقاعة»! رحل ببساطة تليق بـ «عناق الصبار»! رحل وترك لي خلفه ماضيًا ورديًا وحاضرًا أسود وغدًا بلا أي لون!

نسيت أن أخبرك أنه قد ترك لي دبلته! أعادها لمن أرسلتها معه قائلًا: «لتحتفظ بها ثمنًا لأيام حلوة قضيناها معًا!».. لم يرسخ في ذهني من كلامه إلا «الثمن»! هو باع نفسه وقبض الثمن.. من أنا لأكون أفضل منه؟! ينبغي فقط أن أجيد اختيار المشتري والقاعدة «البيع لأغلى ثمن».. فكان نعمان من ربح المزاد! لكن هذه قصة أخرى أكملها لك فيما بعد!

هل تفهم الآن شعوري عندما علمت بالحب الذي يولد بين صفوان وأرجوان؟! هل تفهم الفوضى التي تجتاحني؟! خوفي عليها.. فرحتي لأجلها.. حماسي لعوضها و.. و... و.. غيرتي منها!

أخجل من البوح بهذا لكنك ابني وصاحب سري.. أجل.. طالما شعرت بالغيرة من أرجوان وطالما كرهت نفسي لأجل هذا! ربما لهذا آذيتها في أعز ما ملكته يومًا.. لا.. لن أجرؤ على الاعتراف بذنبي القديم لك.. أنت بالذات! فليبقَ هذا السر جمرة أحترق بها وحدي.. بعض الذنوب ليس لها كفارة إلا أن تبقى بذاكرتنا نتلظى بها إلى الأبد...

أمك صابرينة...

أو «صبارة» كما كانوا يدعونها وكما صدقت أنها تكون».

***

«أحبه.. أحبه.. لا يمكن إلا أن أحبه!».

يتذكرها صفوان بصوت أرجوان وهو يقف بحديقة بيت الكرملاوي

ينتظر قدوم نعمان.. لا لم ينتظر الصباح كما يفترض بل قرر أن يبادره باللقاء الليلة.. هو لم يرتكب جرمًا كي يخاف!

زفرة مشتعلة تغادر حلقه وقبضته تحط على صدره محاولًا تهدئة خفقاته.. أرجوان لا تزال تحب آدم! أو تظن أنها كذلك! وهو الأحمق الذي تعجل بالبوح بحبه! كيف خانه ذكاؤه المشهود هذه المرة؟! هل هذا ما يفعله بنا الحب؟! يغيب سلطة العقل ويترك القلب يرتع في ربوع الجنون؟! تبًّا لك ولقلبك يا صفوان! ما أوردك المهالك إلا اندفاع قلبك هذا!

- يبدو أن السيد نعمان سيتأخر.. لو كنت تريد انتظاره فلا بأس لكنني لا أريدك أن تضيع وقتك.. «الصباح رباح»!

تقولها الخادمة فيهز رأسه مفكرًا بابتسامة ودود لتردف هي بثرثرتها المعهودة التي تفتقر إلى اللباقة كثيرًا:

- لكن لا تنتظر هكذا في الحديقة كالشحاذين.. ادخل البيت وأنا أعد لك ما تشربه.. الجو بارد وقد تمرض.. بعيد الشر! لا يغرك طولك وعرضك هذا «اسم الله عليك».

تتسع ابتسامته وهو يسمعها تردد حكايات عن أناس تعرفهم يبدون أقوياء لكنهم يمرضون سريعًا.. ابتسامة تتحول إلى ضحكة عالية وهي تنهي حكايتها بقولها: «من بره هلّا هلّا ومن جوه يعلم الله»!

كان يريد الانتظار حقًّا لكن الخادمة بدت وكأنها تعلمت الكلام للتو ولن تتوقف عنه بعد الآن أبدًا!

- لماذا لا تريد الدخول؟! أغضبتك الست أرجوان؟! لا أظن.. إنها مسكينة «لا تهش ولا تنش» كما يقولون! الست صابرينة؟! يجوز! هي متقلبة وكل ساعة بحال! طبعًا لن أسألك عن الست بانسيه.. هي لا تتكلم أصلًا.. من بقي؟! الست تيوليب؟! هل رأيتها؟! لا أظن! كيف تراها وهي لا تعود إلى البيت إلا آخر الليل!

تتحفز حواسه للملحوظة الأخيرة ولأول مرة يجد فائدة لثرثرة الخادمة فيسألها باهتمام:

- لماذا؟!

تهز كتفيها دون رد للحظات كأنها تكتم حديثها لكن طبيعتها تغلبها فتتلفت حولها لتتأكد من خلو المكان ثم تعاود النظر إليه لتردف بخفوت:

- يقولون إنها تعمل بمصنع السيد نعمان طوال اليوم.

- وهو يرضى بعودتها متأخرة؟!

- هو يعود معها!

تتبع جوابها بغمزة خبيثة المعنى لينعقد حاجبا صفوان بتفكير بينما تستمر هي بلغطها:

- لا اعرف من أين هبطت علينا تلك المرأة كالبراشوت! منذ بضعة أشهر فقط لم تكن هنا! فوجئنا بهم يقولون إنها قريبة السيد نعمان.. احترق بيتها وستبقى هنا معنا! وهل كل من احترق بيته يأتي ليقيم عندنا؟! تريد رأيي؟!

لم تنتظر جواب سؤالها الأخير بطبيعة الحال وهي مستمرة في ثرثرتها كقذيفة:

- أظننا سنودع الست صابرينة قريبًا ونستقبل زوجة أخرى للسيد نعمان.. «عادته ولّا هيشتريها؟!».

يزداد انعقاد حاجبيه وهو يسايرها بحذر:

- هو ليس جبانًا! ما الذي يجبره على السكوت طوال هذه الأشهر لو كان الأمر هكذا؟! يمكنه مصارحة زوجته ببساطة فلا أظن وضعهما يمنحها حق الاعتراض!

تعاود هز كتفيها بجهل لتبتسم ملوحة بكفيها:

- توقفت منذ زمن عن الأسئلة.. كل ما في بيت الكرملاوي غريب! أدعو الله أن أخرج منه بعقلي.

- لا تسيئي الظن بالناس.. لا أظن الأمر هكذا.

- صدقني أنا أعرف ما أقول.. تعرف أني رأيتها معه منذ وقت طويل.. ست سنوات بالضبط.. قبل زواجه بالست صابرينة.

- ست سنوات؟!

تتوهج معها عيناه بترقب لتردف المرأة بخفوت فخور كأنها تملك سرًّا حربيًّا:

- نعم.. لا أنسى ذاك الوقت أبدًا.. كان عامًا مميزًا.. أتى بها إلى هنا لكنه لم يدخل بها البيت.. بقي معها هنا في الحديقة.. لم يكن هناك

أحد غيري والست بانسيه بطبيعة الحال لكنها لم ترهما مثلي.. السيد آدم كان مسافرًا وقتها مع الست أرجوان في رحلة قصيرة يصالحها فيها بعد واحد من شجاراتهما المعتادة التي يرجعان بعدها «سمن على عسل»!

يتجاهل لوعة قلبه للجملة الأخيرة محاولًا التركيز مع بئر المعلومات هذه.. والتي استمرت بالفيضان:

- لم أرها بعدها قط حتى عادت منذ بضعة أشهر لتقيم معنا زاعمين أنها قريبتهم من بعيد.. يقولون إنها من مدينتنا لكنني لا أعرف عنها شيئًا.. آااه.. تذكرت شيئًا.. الست راوية تعرفها! رأيتها يومًا تخرج من بيتها.

راوية من جديد هي مفتاح كل الحكايات! غيث كان على حق! لم يعد هناك داعٍ لتأخير الأمر.. فليخبرها عن السبب الحقيقي لدخوله بيت الكرملاوي لتساعده بما تعرفه.

- هه.. هل ستنتظر بالداخل؟!

تقاطعه بسؤالها وهي تنكمش على نفسها شاعرة بالبرد ليبتسم مكتفيًا بغنيمته هذه الليلة:

- لا.. معك حق.. سأؤجل الأمر إلى الغد.

يعطيها ورقة مالية تقبّلها ثم تدسها في صدرها شاكرة قبل أن يغادر البيت بخطوات متباطئة.. شيء بداخله يتمنى أن تخرج إليه أرجوان.. هو رآها تختلس النظر إليه من نافذتها منذ قليل لكنها عادت

تختفي سريعًا.. آه يا أرجوان! آه من ضعفك وقلة حيلتك!

يتجاهل الخاطر الأخير وهو يحاول التركيز فيما قالته الخادمة عن تيوليب.. لكن أضواء سيارة تأتي من بعيد تلفت انتباهه.. سيارة نعمان!

يتحرك صفوان بحذر ليختبئ خلف سور البيت الجانبي.. يرى السيارة تتوقف ليلمح نعمان مع تيوليب التي يراها لأول مرة.

رغم الإضاءة الخافتة بدت له ملامحها مميزة جدًّا.. وعلى الرغم منه وجد نفسه يقارن بين أشكال نساء بيت الكرملاوي.. صابرينة ذات الفتنة الجامحة.. بانسيه المسترجلة.. أرجوان ذات الجمال الواهن الرقيق والاستثنائي بعينيه هو.. ماذا عن «تيوليب» هذه؟!

شظية مكسورة! مجروحة وجارحة! هكذا بدت له ملامحها! عيناها منطفئتان لكن ملامحها حادة كأنما رُسمت بمسطرة دون انحناءات.. حتى ابتسامتها بدت له كخط رفيع يشق وجهها دون تعبير!

شعرها غجري مموج متوسط النعومة شديد الكثافة كغابة داكنة حول وجهها.. عيناها خضراوان كقطة متحفزة.. أنفها كبير نوعًا ما لكنه يتناسب مع استدارة وجهها وامتلاء شفتيها.. قميص أسود أنيق مع سروال من الجينز يليق بامرأة أتت لتوها من العمل لو صدق ما يزعمون.. وأخيرًا مربط الفرس! هذا الوشم الظاهر على كفها!

لم تكن باذخة الفتنة لكنها كانت تملك تلك الجاذبية النسائية المفرطة، هذا النوع من الجمال الذي يثير حمية الرجل صارخًا: «احملني واركض بي بعيدًا.. أنا أحتاجك»!

ربما لهذا لم يتعجب اهتمام نعمان المغالي وهو يغادر السيارة ليفتح لها الباب بنفسه.. لكن ما تعجبه بحق هو نظراتها هي.. نظراتها الودودة التي تحولت إلى أخرى حقودة عندما أعطاها ظهره! لو كانت النظرات تقتل لكان نعمان جثة تحت قدميها الآن!

لهذا يتابعهما بحذر متسللًا ليراقب دخولهما البيت، تتوقف خطواتهما أمام الملحق الخارجي للبيت حيث علم أنها تقيم.. تستدير المرأة لتفتح فيتعجب صفوان من تبدل نظرات نعمان هو الآخر من عاطفية جامحة إلى أخرى متربصة!

يراه يحكم قبضته على كتفها ليديرها نحوه فتلتقي عيناهما في حديث صامت للحظات قبل أن يتناول نعمان من جيبه خاتمًا لم تكد تبصره حتى انهمرت دموعها.. هل هي دموع الفرحة؟!

يزداد الجو سخونة ونعمان يضمها إليه برفق ثم يلبسها الخاتم بنفسه هامسًا بكلمات لم يسمعها صفوان من مكانه...

- العرض يزداد سخونة!

يتمتم بها صفوان لنفسه بنبرة متسلية فلم يكن وحده من يراقب المشهد العاطفي! أجل.. هناك خلف شجرة قريبة كانت صابرينة تختلس النظرات ساكتة ووقفتها المتخشبة تحمل رد فعل غامضًا!

تبًا! ألن تنتهي الألغاز في بيت الكرملاوي؟!

الغصن السابع

«يقولون إن «الذئب يتجاوز الشتاء لكنه لا ينسى الصقيع الذي عاشه».. وأقول لو كان الذئب كذلك فما بالك بالحملان؟!».

***

- صباح الخير.. قالوا لي إنك طلبت رؤيتي.

يقولها صفوان بنبرة محايدة وهو يقف ببهو بيت الكرملاوي محاولًا تجاوز ما رآه الليلة الماضية ليرمقه نعمان بنظرة متفحصة لم تخلُ من غضب وهو يتقدم منه هاتفًا:

- ألم أحذرك في أول مرة جئت فيها إلى هنا؟!

- لا أذكر أنني خالفت أي تحذيرات!

يهز بها صفوان كتفيه بينما يقف نعمان أمامه تمامًا وقد انعقد حاجباه بغضب أكبر:

- كيف تخرج بالصغير دون إذني؟!

- أخبرت أمه وهي وافقت.

- لا شأن لك بأمه.. أنا صاحب الكلمة الأولى والأخيرة هنا.

يزداد نعمان حدة بينما يزداد صفوان ثباتًا وهو يغرس نظراته الصارمة في عينَي غريمه ليفعل أكثر ما يجيده.. قلب الطاولة:

- عفوًا يا سيد نعمان.. أنا لا أراك اصلًا كي أخبرك.. أنت حتى لم

تسألني عن حال ناجي مرة واحدة منذ بدأ جلساته.

وقد أحسن عملًا إذ اتخذ نعمان موقع الدفاع:

- أنا لا أعترف بالخطوات.. النتيجة هي المهمة عندي.. حددت لك مهلة منذ البداية وأنتظر انتهاءها كي أحاسبك على عملك.

- طيب! وما دمت ترى أنه عملي لماذا تتدخل به إذن؟!

- ماذا؟! ماذا تقول أنت؟!

يصرخ بها نعمان بنبرة عصبية وقد ثار جنونه:

- تخرج بحفيدي وزوجة ابني وحدكما على الشاطئ وتستنكر تدخلي؟!

يحاول صفوان تجاوز غصة حلقه مع عبارة «زوجة ابني» التي وخزت قلبه بمشاعر متناقضة ليقول بثبات:

- لم نكن وحدنا.. كانت معنا الخادمة.

يصدر نعمان صوتًا ساخرًا مشحونًا بالغضب فيطرق صفوان برأسه للحظة ثم يرفع كفيه بوضع استسلام قائلًا:

- لا بأس.. وصلت الرسالة يا سيد نعمان.. اعتبرني معتذرًا عن عملي مع ناجي من الآن.. ولا مانع لدي عندما تستعينون بمتخصص آخر أن أساعده بما عرفته عن الحالة.

- صفوان!

هتاف أرجوان الملتاع يشق أذنيه وهو يراها تهبط الدرج بخطوات

شبه راكضة، ولم تكد تصل إلى نعمان حتى هتفت به برجاء:

- الأمر لا يستحق.. كل ما فعلناه كان لأجل ناجي.. ابني يتحسن معه.. صار ينطق بعض الكلمات.. سأجعلك تسمع بنفسك أنه...

- اسكتي أنتِ! لن أدع اسمي عرضة للقيل والقال لأجل تلك التفاهات.. لو كنتِ تهتمين بابنك كما ينبغي لما صار هكذا ولما احتجنا إلى كل من هب ودب ينهب مالنا بهذه التفاهات!

يضم صفوان قبضتيه وكل خلجة في خلجاته تنتفض بالغضب. ليس لأجل نفسه بل لأجل هذه الواهنة المستضعفة التي يحملها الجميع ذنوبًا لم ترتكبها.. لهذا تجاهل نعمان تمامًا ليوجه حديثه إليها هي هاتفًا بقوته التي تصب في منبع قوتها هي:

- لماذا تسكتين؟! لماذا لا تهتفين بالحقيقة التي يعرفها الجميع؟ مرض ناجي ليس ذنبك.. أنتِ لم تقصري في حقه.. أنتِ أكثر من يحمل همه ويكتوي بناره.. أنتِ صاحبة القرار فيما يخصه.. أنتِ أمه.. سنده الأول لآخر يوم في عمره.

تتألق عينا أرجوان للحظات بالوهج الذي يعرفه عندما يذكر ابنها فتبدو على وشك الثورة لكن هتاف نعمان القاسي يحسم المعركة لصالحه مخاطبًا صفوان:

- هي ساكتة لأنها أذكى منك.. هي تعرف من هنا السيد صاحب القرار.. فاعرف أنت الآخر.

يحدجها صفوان بنظرة مغتاظة تمزج شفقته بغضبه وهو يراها

تطرق برأسها مكتفةً ساعديها بعجز.. هل آن الأوان أن يعترف بفشل مهمته في بيت الكرملاوي؟! لا.. ربما لا يزال هناك بعض الأمل من حديثه مع راوية عندما يعود إلى بيتها، لهذا يتحرك بخطوات سريعة حاسمة مغادرًا المكان لكنه لم يكد يصل إلى الحديقة حتى فوجئ بصراخ ناجي خلفه، يلتفت ليجده قد أفلت من ذراعَي الخادمة ليركض إليه، يصرخ ويصرخ وهو يتشبث بذراعيه الصغيرتين بساق صفوان الذي وقف مكانه لا يعرف ماذا يفعل وهو يسمع نعمان ينهر الخادمة صارخًا بها أن تأتي بالولد الذي ساءت حالته وهو مستمر بالصراخ الهستيري مع تشبثه به هو، تحاول الخادمة حمله لكن الولد تتلاحق أنفاسه مع تشنجاته الباكية وهو يزداد تمسكًا بساق صفوان لا يفلتها...

صابرينة بملامح متوجعة تتساقط دموعها وهي ترجو نعمان أن يسمح لصفوان بالبقاء.. بانسيه تتقدم بكرسيها نحوهم، تستخدم إشارات كفيها ليفهم نعمان أنها تطلب منه نفس الطلب وملامحها تفضح تعاطفها.. أرجوان -للعجب- بقيت واقفة مكانها كصنم وجسدها المرتعش يكشف انفعالاتها المكتومة التي لو أطلقتها لانفجرت!

زمجرة نعمان الحادة تفضح توتره وهو يشعر بنفسه محاصرًا.. هذا الرجل لا يريحه بل إنه يبدو وكأنه يتحداه.. لكن ماذا عن ناجي؟! ألا يستحق تضحية كهذه؟!

لهذا يتقدم من صفوان الذي انحنى محاولًا حمل ناجي لكن الأخير كان رافضًا متشبثًا بساقه كأنه فهم بعقله الصغير ما يحدث، وأخيرًا

ينجح صفوان في رفعه إليه، يعانقه بقوة وهو يهمس في أذنه بما لم يسمعه أحد.. ليطلق نعمان صوتًا ساخرًا غارقًا بغضبه:

- على أساس أنه يفهمك!

لكن صفوان يتجاهله تمامًا وهو مستمر في التربيت على رأس الولد الذي بدأت صرخاته في التلاشي مستكينًا على صدره وإن كان جسده لا يزال مرتعشًا بنهنهة بكائه.

- تعاند جدك كأبيك.. بدأتها مبكرًا يا ابن آدم.

يشرها نعمان في نفسه بحسرة كادت تذيب ضلوعه، لكنها ناقضت التعبير الصارم على وجهه وهو يتقدم منهما.. ليصدمه الصغير وهو ينطق لأول مرة «أريد» مشيرًا بسبابته نحو صفوان!

تتبادل النساء النظرات بأعين دامعة عدا أرجوان التي لم يصدمها تطور ابنها بطبيعة الحال، لكن ما هزها حقًا أنها في هذه اللحظة كانت تشاركه نفس الأمنية.. الصغير نطق بما جبنت هي عن البوح به! كلاهما «يريده»!

تزداد ملامح نعمان صرامة لا تتناسب مع هذا الصراع داخله، وأخيرًا تخرج كلماته متغطرسة يطلب من صفوان البقاء!

لماذا فعلها؟! جزء أصيل من غروره يجيب بأنه لم يكشف السر الذي لأجله سمح لصفوان بدخول البيت من البداية.. لكن ذاك الجزء الدفين النازف بجرحه يعترف.. فعلها لأجل ناجي.. لم يحتمل أن يحرمه منه وقد رآه متعلقًا به إلى هذا الحد.. ألا يكفيه حرمانه من

أبيه؟!

***

يبدو الصباح كريستاليًا متلألئًا في كل مكان عدا بيت الكرملاوي! وبالذات حديقته التي يهيأ إليها أن أشجارها غاضبة.. دومًا غاضبة.. نبذت زهورها فصارت دونها كئيبة.. حتى زقزقة عصافيرها تبدو وكأنها شكوى صباحية مكررة تفتقد من يسمعها!

هكذا فكرت «تيوليب» وهي تغادر مسكنها في الملحق الخارجي ببيت الكرملاوي، تأخذ طريقها عبر حديقة البيت نحو الخارج، لو كانت تملك عينين في ظهرها لرأت عينَي صابرينة المتحفزتين بحقد.. وعينَي بانسيه اللامباليتين بزهد.. وعينَي أرجوان الحزينتين بوهن.. كلها ترمقها من بعيد كأنها ترى فيها نهاية هذا البيت.. وربما بداية جديدة له!

أما هي فكانت خطواتها تحملها نحو البئر القديمة.. عيناها ترمقانها بنظرة عميقة بين حنين وامتنان.. وعتاب!

تتوقف أمامها تتلمس حجارتها بنتوءاتها البارزة.. اعتادت حدتها فلم تعد تخزها.. متى زارت البئر أول مرة عندما عرفت أسطورته؟! ربما كانت في السابعة من عمرها.. كانت تريد حلوى وثيابًا لأجل العيد.. جاءت وبيدها زهرة ليلة اكتمال البدر وتمنت: «أريد مالًا».. وعندما فاجأها أبوها صباحًا بنقود «العيدية» وفستانًا جديدًا صدقت بأسطورة البئر!

كبرت قليلًا وعندما عادت إلى البيت ذات يوم وبيدها ورقة مالية

متوسطة القيمة أعطاها لها أحد مدرسيها إذ حازت على المركز الأول في الاختبار ضمتها إليها أمها وقبلتها بين عينيها قائلة: «ذكاؤك لا يُقدَّر بمال»، لكنها بقيت تداوم على المذاكرة فقط لأجل المزيد من الأوراق المالية، وعندما توقف المدرس عن إعطائها تعمدت أن تخطئ جواب سؤالين كأنما تعاقبه! أجل.. كان المال -ولا يزال- في عينيها غاية وليس وسيلة! «العين بصيرة والإيد قصيرة» صارت كابوس يقظتها ونومها! تزداد تفوقًا في دراستها لكنها تزداد فقرًا وعوزًا.. تهتف بها أمها بفخر وهي تجدل لها شعرها: «دكتورة تيوليب.. كم يليق بك الاسم.. أكاد أراه يلمع أمامي من الآن»، فتبتسم والفخر ينتقل منها إليها.. كل ما فيها متوسط القيمة عدا ذكاءها! هو الذي يضعها دومًا في المقدمة رغم أنف الفقر!

عندما مرضت أمها مرضها الأخير صارت تهتف بها بصوتها الشاحب: «الدكتورة تيوليب.. غدًا تكبرين وتعالجينني»، فكانت ترد ودموعها تسبقها: «تعدينني أن تنتظري؟!».. وقتها عادت إلى البئر من جديد بزهرة أخرى وتمنت نفس الأمنية: «أريد مالًا».. المال ساعتها لم يكن يساوي حلوى وثيابًا بل كان يساوي «حياة».. حياة أغلى من في قلبها! لكن أمها توفيت بعدها ببضعة أيام.. توفيت بين ذراعيها.. عيناها كانتا تنبضان بالحب والألم وما أقسى هذيْن عندما يجتمعان معًا.. وفي لحظة واحدة خبا كل هذا! كانت المرة الأولى التي تعي فيها كيف يمكن أن ينسدل جفنان فيُفتح بعدهما ألف باب للوجع لا تُغلق كلها أبدًا! ومع هذا بقيت تصدق أسطورة البئر.. فقط اتهمت سوء حظها بأن أمنيتها لم توافق ليلة اكتمال البدر!

كبرت في كنف أب لم تكن تراه إلا لمامًا، يعمل ليل نهار منفقًا عمره كي ينفق عليها هي المال، كم قضت الليالي الطويلة وحدها تردد: «أريد مالًا»، وتلك المرة كانت لأجل أبيها! لأجل أن يستريح فتتنعم بقربه! المال وقتها كان يساوي «حنان أب»!

كبرت أكثر وتمنت لو تدرس الطب كما تمنت أمها لكن مصاريفه كانت باهظة لفتاة بظروفها.. عادت إلى البئر تردد: «أريد مالًا».. المال وقتها كان يساوي «حلم الماضي وأمل المستقبل».. انهيار بيتهم القديم، انتقالهم إلى آخر أكثر ضيقًا وحقارة، تدهور صحة والدها، تهديد المالك بالطرد، كل يوم تزداد قيمة المال في عينيها وقد صار يساوي «الستر»!

لم تعد تصدق بأسطورة البئر لكنه بقي رفيق طفولتها وصاحب سرها.. كانت تكبر وتكبر ويكبر معها حب المال، أعجبت بزميل دراستها الثري وعندما لمَّح لها برغبته في الزواج بها رفض أبوها بملامح منكسرة. لم تفهم سبب ما فعله وقد كان حلم عمرها أن ترتبط بواحد من الأغنياء حتى جاء ذاك اليوم الفاصل، كان زميلها قد دعاها لتناول الطعام معه في أحد المطاعم الفاخرة، ترددت في قبول دعوته لكن طموحها الجامح لتجربة رفاهية كهذه أغواها، ذهبت دون علم أبيها وقد عاقبها القدر بأقسى ما يكون!

فهناك في المكان الفاخر وقد تدلت الثريات الضخمة وبُسطت الفرش المنعمة وفاضت رائحة الثراء التي طالما اشتاق إليها أنفها رأت أباها! رأته وقد انحنى ظهره في زاوية تليق بوضع عامل بسيط يؤدي عمله آخر الليل بمشقة لا تناسب عمره!

لم تشعر بنفسها ساعتها إلا وهي تترك زميلها لتهرع إلى أبيها، تسنده كي يستقيم جسده وعندما التقت أعينهما أدركت لماذا كان يرفض هذه الزيجة! ساذجة كانت عندما ظنت أن الحلم ينبت لنا أجنحة! ما عسى يجديه الحلم لو كانت أقدامنا مقيدة بحجر في قاع الواقع!

تتوقف ذكرياتها عند هذا الحد، كأنها خافت أن يجرفها الطوفان الأقسى! كانت تظن أنها حتى وقتها عاشت أصعب أيامها، لم تكن تعلم أن خزائن الغد تتوعدها -متى فتحتها- بالأصعب!

- أيتها البئر العزيزة! كم من الزهور استقرت في قاعك وشهد عليها القمر ليلة اكتماله! كل زهرة تساوي أمنية.. تحققت أو لم تتحقق.. قد تكونين أنت خرافة لكن الأسرار التي يحويها باطنك حقيقة.. آلام أصحابها حقيقة.. وجع قلوبهم حقيقة.. رغباتهم حقيقة.. وخيبتهم حقيقة!

تقولها لتتبعها بزفرة عميقة.. الحزن يحفر خندقًا عميقًا في عينيها يجاوره آخر من طموح وآخر من وعيد.. لكنها اعتادت سكنى خنادقها العميقة منذ زمن! لا تزال تزور البئر القديمة ولا تزال تتمنى نفس الأمنية: «أريد مالًا».. والمال هذه المرة لا يساوي ما ستحصل عليه بل ما دفعته سابقًا.. المال هذه المرة ليس ثمن الغد بل الأمس.. والعدل يقول أن تحصل عليه كاملًا.. كاملًا دون نقصان!

***

تتقدم «بانسيه» بكرسيها المتحرك، تدفع الباب الخشبي الخارجي

لبيت راوية والذي كان مواربًا، تأخذ نفسًا عميقًا من رائحة حديقتها المعبقة بالزهر والتي تصنع مع رائحة الصباح مزيجًا مدهشًا لأنف حساس كأنفها.. كم تختلف حديقة راوية عن حديقة بيت الكرملاوي.. زهورها يانعة تعددت ألوانها لكنها جميعها تحظى بنفس الروح.. روح الأمان، الحرية، العدل والتي لا يدركها إلا سجين مثلها هي!

تتقدم أكثر نحو البيت الداخلي الذي بدا رغم بساطة حاله مشعًا بدفء صاحبته، تطرق الباب فلا يرد أحد، تتردد قليلًا في المغادرة فكم تحتاج الحديث الآن مع راوية! ظلم «نعمان» يزداد يومًا بعد يوم وآخرها موقف صفوان الذي كاد يطرده بالأمس لولا أن ساءت حالة الصغير! هل يمكنها الاعتراف أنها وهي تسمع ناجي يصرخ ساعتها كانت تغبطه! تغبطه لأنه فقط يمكنه التعبير عن ألمه ولو بالصراخ! كم تود هي الأخرى الصراخ بخبايا الماضي لكن ماذا يفيد؟! هل يعيد لها هذا حقها؟! حبها؟! عمرها؟!

تتنهد بحرقة عند الخاطر الأخير وهي تتراجع نحو حوض زهور من البانسيه زرعتها راوية خصيصى لأجلها، تبتسم بشحوب وأناملها تمتد إلى إحداها بشكلها المميز من ثلاث بتلات حمراء منحتها اسمها المميز «زهرة الثالوث».. يسرح خيالها في ذكرى أول مرة في طفولتها سألت أباها عن معنى اسمها فلوّح بيده دون اكتراث بينما كان منشغلًا مع نعمان بالحديث، سألت نعمان هو الآخر فهز كتفيه بجهل ثم طلب منها أن تذهب إلى أمهما، ركضت إليها تسألها لترد الأم بحنان بدا لها دومًا غير كافٍ ربما لأنه كان دومًا مغلوبًا على أمره

يفتقر إلى قوة تحميه: «ومن يهتم بمعاني الأسماء؟! هو اسم زهرة جميل تستحقينه». ذهبت لتقرأ بعدها وتعرف ما يعنيه اسمها فكان درسها الأول أن «لا أحد يهتم! ما تريد أن تعرفه يجب أن تعرفه بنفسها».

- أمي في السوق.. أتيتِ لأجلها؟!

الصوت الرجالي خلفها يجفلها قليلًا فتلتفت بحدة لترتخي ملامحها وهي تميز ملامح «غيث».. ابن «الست راوية» الذي رأته مرات قليلة من قبل في زياراتها هنا وقد كانت تتعمد الحضور في أوقات غيابه وما أكثرها! أجل منذ قرر الدراسة والعمل في العاصمة وقد كان وجوده هنا هو الاستثناء، لكن يبدو أن الأمر تغير منذ وصول صفوان صديقه إلى هنا.. شاب مهذب يبدو لطيفًا كأمه يصغرها ببضع سنوات ربما لهذا لا تنكر شعورها بأمان عجيب معه الآن وهي تلوح له بأناملها بما يُفهم أنها ستأتي لها فيما بعد.

تهم بالمغادرة لكنها تُفاجأ: «لا داعي لهذا.. أنا أعرف أنه يمكنك الكلام».

ترفع رأسها إليه بحدة هاتفة دون وعي: «بالطبع! صاحبك فضح السر.. هل أخبرك أنه يمكنني الحركة أيضًا؟! كان ينبغي أن أفهم هذا.. ليس كل الناس يحفظون السر كأمك!».

- لم يخبرني صفوان بشيء.. هل يمكنك الحركة فعلًا؟!

الحيرة الصادقة على ملامحه تمتزج بفرحة لم تفهمها، تشيح بوجهها دون رد لاعنةً تسرُّعها بينما يردف هو بصوته الدافئ:

- سمعناكِ مصادفةً تتحدثين مع أمي يومًا ما.. لم يكن الأمر مخططًا صدقيني.. لا أمي ولا صفوان فضحا سرك.. وأنا لن أفعل.. أعدكِ.

لا يزال شيء ما في نبرة صوته يغذي الأمان بين ضلوعها فتطرق برأسها صامتة لتمنحه دون قصد فرصة تأملها بهذا القرب.. لا تزال بعينيه كما رآها أول مرة «حورية البحر المسترجلة».. شعرها القصير بقصّته الرجالية، قميصها البسيط بلونه رمادي الذي شمرت ساعديه عن بشرتها القمحية مع سروال واسع بلون أفتح قليلًا.. ملامحها الجذابة الغارقة في مزيج متوازن بين حزن وسخط.. وأخيرًا صوتها الذي يبدو على عكس ذلك وكأنه يحمل أنوثة الدنيا كلها!

والآن تزيد الأمر سوءًا وهي ترفع إليه عينيها فتبدوان تحت ضوء الشمس كحبيبات قهوة داكنة تجبرك على الانتباه وتعدك رغم مُر المذاق بانضباط المزاج!

آه لو سمع صفوان صوت أفكاره! سيظل يخبط رأسه نفسه في الحائط حتى يفيق من جنونه، لكن من قال إنه سيسمع له هذه المرة؟! هذه المرة لا تشبه سابقاتها! لو كان هذا جنونًا فمرحبًا ألف مرحبٍ بالجنون! ثم إن له حسابًا آخر معه عندما يراه.. كيف يخفي عنه أنه يمكنها الحركة؟! كيف يحرمه هذه الفرحة؟!

يفيق من شرود أفكاره وهو يراها قد تحركت بالفعل لتغادر البيت دون المزيد فتتأهب حواسه وهو يفكر في أي سبب يتذرع به ليبقيها لكنه يعجز فيقف مكانه.. يتمنى لو تحدث أي معجزة الآن تجعلها

تتوقف لتتكلم معه.. أي كلام.. هو راضٍ!

عفوًا! يبدو أن المعجزة حدثت حقًّا! ها هي ذي تتوقف بمجرد مغادرتها للباب الخارجي للبيت، تتجمد مكانها كأنما رأت شبحًا! قبل أن تحرك كرسيها بسرعة لتعاود الدخول، تختبئ قرب حوض زهور البانسيه من جديد، فلا يحتاج كثيرًا من الذكاء ليدرك أنها رأت أحدهم بالخارج.. شخصًا لا تحب أن تراه.. أو أن يراها!

في ظروف أخرى كان ليرضخ لأبسط قواعد الذوق فيتركها لشأنها دون تدخل، لكن وهي هي، وهو هو.. فليذهب الذوق إلى الجحيم!

يهرول نحوها ليتخذ مخبأه هو الآخر أمامها، يجلس متربعًا على الأرض في وضع عفوي سرق من شفتيها ابتسامة اختفت سريعًا وهي تمد رأسها نحو بقعة بعينها عبر السور الخشبي للحديقة تراقب الطريق خارج البيت وجسدها يرتجف انفعالًا.. هل مضى لشأنه أم لا يزال هناك؟!

- مَن ذاك المأسوف عليه؟!

سؤاله يجعلها تلتفت إليه ومن جديد تكتم ابتسامتها وهي تشعر بدفئه المرح يزرع داخلها شعورًا أشبه بالـ...! الأمومة مثلًا! لا ريب أنه كذلك فهو يصغرها ببضعة أعوام.. تشرد ببصرها وهي تفكر.. لو كان هذا الشاب الناضج يصغرها هكذا فكيف صار شكلها هي في أعين الآخرين؟! في عينيها هي الجواب معروف! عمرها توقف عند يوم الحادث!

- من كان هذا؟! هذا الذي جعلك تعودين؟!

يكرر سؤاله بإلحاح لترفع إليه عينين ضائقتين:

- لا أحد.

- المرء لا يهرب هكذا من «لا أحد»!

- أنا لا أهرب منه.. أنا أهرب من شعوري عندما أراه!

تهمس بها بانفعال هاجت معه ملامحها ليمد بصره حيث تنظر فيرى الرجل الذي تعنيه يقترب غافلًا عنهما، يستوقفه أحدهم لينخرط معه في حديث ما.. شديد الوسامة بالغ الأناقة حديث الطراز في ملابسه رغم سنوات عمره التي تبدو وكأنها تخطت الأربعين بعدة سنوات، كأنه نسخة مشابهة من نعمان ليس شكلًا بل طبعًا! من هذا؟! حدسه يخبره أنه حبيبها القديم مما يذكره بعمرها الحقيقي الذي لا تُظهِره بنيتها الضئيلة وملامحها الطفولية! ضيق غريب يجتاحه ويجعله يسألها دون تحفظ:

- تكرهينه لهذا الحد؟!

تكاد تتشبث بسكوتها وقبضتاها تعتصران مسندَي كرسيها لكن مشهد ناجي وهو يصرخ وغبطتها له ساعتها يجعلها ترغب في الصراخ الآن هي الأخرى! لا يمكنها الصراخ؟! طيب! يكفيها الكلام.. مجرد الكلام حتى لو بهمس خفيض كهذا! حتى لو لم يفهم هو ماذا تعنيه! ومن تعنيه! فلتتكلم! فلتتكلم فحسب!

- بعد الحادث كنت أكره عجزي في عينيه، بعدها كرهت شفقته التي كانت تصرخ بي دون كلام أنني تحولت من «حبيبته» إلى

«ورطته»، ثم كرهت غدره الذي جعله يتجاوز ما بيننا بمبررات واهية ليست عائلته أولها ولا آخرها، ثم كرهت نفسي لأنني كنت عاجزة عن فعل المثل، عن تجاوزه كما تجاوزني، ثم كرهت الماضي الذي جعله في طريقي، تمنيت لو أنسى لكن الظلم يترك في الروح ندبة لا تبرأ.. الظلم يهوِّل الابتلاء.. يزيد جرحه ملحًا.. وأنا اكتفيت من كليهما!

- كيف صار الحادث؟!

يهمس بها بخفوت بالغ كأنه يخاف أن تنتبه فلا تبوح.. شيء بداخله يخبره أنها ليست في حالتها الطبيعية.. وقد صدق ظنه إذ بدا أنها لا تسمعه:

- خمسة عشر عامًا مرت على الحادث.. ربما أكثر.. لكنني أشعر أنها كانت فقط بالأمس.. يومها تأخر نعمان في الحضور إلى البيت.. كنت أريد الحديث معه لأمر مهم.

تزدرد ريقها كاتمةً ماهية الحديث المهم.. زواجها بعاشقها المنتظر.. لتردف:

- ذهبت إلى المصنع الذي صار يديره بعد أبي.. رأيته يغادره ولم أدركه حتى ركب سيارته.. كان يمكنني أن أنتظر عودته إلى البيت لكنني كنت متلهفة للحديث معه قبل أن يصل خبر ما إلى أبي.. لهذا ركبت سيارة أجرة وتبعت سيارته التي كان يتوقف بها تباعًا كي يحمل واحدًا من أصحابه.. لا بد أنهم في طريقهم لسهرتهم ككل ليلة كما سمعت من أحاديث متناثرة تناقلها البعض ونفاها والداي بشدة فنعمان لا يخطئ وإن أخطأ فهو دومًا مجبور وغيره هو من يجب

أن يدفع الثمن. ومن جديد كان يمكنني التوقف هناك والعودة إلى البيت.. لكنني أردت أن أعرف أين يقضي نعمان لياليه.. أبواي كانا يفتخران به كثيرًا.. كانا يقولان إنه وهب نفسه للعائلة.. حتى زواجه بابنة عمنا كان في نظرهم «بطولة» تستحق الإشادة.. ضحى بنفسه منذ صغره كي يلم شملنا جميعًا.. كان دائمًا هو السيد لأنه الذكر.. كل أفعاله مبررة منطقية حتى قسوته كانت تستدعي الفخر لأنها تعني القوامة.. ربما لهذا وجدتني مدفوعة ليلتها أن أتبعه.. شيطان صغير داخلي كان يريد التيقن من شكوكي.. نعمان ليس ملاكًا كما يصورونه.. ربما لو اعترفوا أنه يخطئ مثل الجميع.. لو انخفضت كفته قليلًا وارتفعت كفتي المخفوضة قسرًا ربما ساعتها يمكنهم أن يروني أنا.. أن يشعروا بي أنا.. أن تتساوى كفتانا في ميزان العدل كما ينبغي أن تكون.. أن يسمحوا لي أن أكمل دراستي.. أن أسافر إلى العاصمة.. أن أتزوج بمن أختار.. أن أعيش كما أحب.. لهذا كنت مستعدة لدفع أي ثمن كي أجد له خطأً.

- وهل وجدته؟!

- وجدته.. لكن.. لكنني كنت حمقاء.. حمقاء حقًّا.. ليلتها وجدتهم جميعًا يذهبون نحو خيمة راقصة المولد الذي يقام في أطراف مدينتنا.. جزء بداخلي كان منتشيًا ظافرًا لأنه عثر على زلة نعمان وجزء آخر كان يشعر بالاشمئزاز من المكان الذي وجدتني فيه، وبينهما جزء يسأل ماذا بعد؟! هل أستغل الموقف لصالحي؟! هل أبتز نعمان ليقف جواري ويقنع أبي بزواجي بمن أحب.

- وأي جزء انتصر؟!

تضحك بهستيرية خافتة تقلقه لتجيب:

- لم أجد الفرصة لأعرف.. كل شيء انقلب في لحظات.. خرجوا من الخيمة قرب الفجر وركبوا سيارة نعمان الذي كان مخمورًا فترك القيادة لصاحبه، كنت أشعر بالخوف في مخبئي بين أشجار الطريق وعاجزة عن الرجوع وحدي، اضطررت إلى الظهور فجأة امام السيارة أطلب منهم الوقوف كي يصطحبوني معهم.. ثم...

- ثم؟!

يطول صمتهما المشحون معًا بعدها لدقيقة كاملة قبل أن تغمض عينيها:

- أفقت من غيبوبتي لأدرك أن صاحبه صدمني بالسيارة إذ كان يقودها بسرعة جنونية، الحادث تسبب بضرر بالغ أدى إلى فقداني القدرة على الحركة، سمعت الخادمة تقول إن سقطتي من فوق سطح البيت كانت قوية، أي سطح بيت؟! أنا صدمني فاسق متهور بسيارة أخي! التفتُّ لوالدي باستنكار ليهمس أبي في أذني ألا أقول الحقيقة.. ليظن الجميع أنني سقطت من سطح البيت لكي لا ينال نعمان أذى.. كي يبقى في أعين الجميع ملاكًا لا يخطئ حتى لو دفعت أنا الثمن هذه المرة، ولما التفتُّ لأمي بنظرات راجية وجدتها تؤازر أبي في موقفه، ومن خلفهما كان نعمان يقف بنظرات غاضبة أبعد ما تكون عن الندم كأنه يتهمني أنا بكل الذي صار، عرفت بعدها أن صاحب نعمان قائد سيارته كان يهدد بالفضيحة وكشف مكان وجودهم تلك الليلة لو ذكرت أنا الحقيقة.. إذن لا بأس من أن يضيع

حقي كما ضاع طوال عمري ما دام نعمان هو المستفيد.. يا فرحتي! حتى عندما وجدت زلة نعمان كان الثمن سقوطي أنا! ساعتها قررت أن ينخرس صوتي إلى الأبد.. بإرادتي هذه المرة! وبقيت في أعين الجميع مجرد جثة متحركة على كرسي.

يطغى التعاطف على ملامحه لكنه يخشى أن يجرحها بشفقته، فيزدرد ريقه ليشير بعينيه نحو الرجل الذي بقي غافلًا هناك منشغلًا مع محدثه:

- وهو تخلى عنك بعد الحادث؟!

تهز رأسها بما يشبه الجواب لتعاود همسها:

- سمعته خلسة في بيتنا يتكلم مع نعمان قبل زواجه، يخبره أنه يحبني لكنه لا يستطيع أن يكمل طريقه مع امرأة بظروفي، وافقه نعمان بتفهم كأنما هذا هو الوضع الطبيعي، لكن ما شق صدري حقًّا أنه حضر زفافه! تخيل أن تراقب امرأة أخاها وهو يتأنق في غرفته لحضور زفاف حبيبها الذي فقدته بسببه!

تقطع همسها فجأة بشهقة خافتة قصيرة وهي تتلفت حولها، كأنما انفك سحر اللحظة بينهما! تبدو عيناها مرتبكتين ومربكتين لقلب كقلبه.. ترفع كفها إلى شفتيها كأنها لا تصدق:

- هل تكلمت حقًّا؟!

يتنهد بحرارة وهو يتفهم شعورها في هذه اللحظة، بينما تلتفت هي نحو المكان المنشود فتجد الغادر غير موجود، ترمق «غيث»

بنظرة مصدومة عجيبة.. ويبدو أنه قد قرأ أفكارها:

- لم تتحدثي هكذا لأحدهم منذ زمن؟!

حمرة طفيفة تلون وجنتيها وهي تود لو تخبره أنها نسيت معنى الكلام.. تناست حتى نسيت!

- الست راوية فقط.

- ولماذا أمي بالذات؟!

- كانت صديقة أمي منذ سنوات رغم اختلاف تفكيرهما.

- ماذا تعنين؟!

- بالطبع يختلف! أمك أخبرتني أن أباها كان يفخر بها كثيرًا.. كان لديه مقهى في وسط المدينة وعندما أنجبها غيَّر اسمه إلى «أبو راوية».. ورغم أنه رُزق بعدها بثلاثة ذكور جعل كنيته على حالها وبقي على فخره بها وسط الجميع.. كان دائمًا يدعوها «أول فرحتي! راوية من تروي القلب والعين».

ابتسامة واحدة تبدو وكأنها انقسمت على شفتيهما بالتساوي وهما يتشاركان الذكرى الحلوة.. لتجد نفسها تتمتم بمزاح يرتدي مرارته ببراعة:

- طالما تساءلت لماذا أسموا عائلة الكرملاوي بهذا الاسم.. الآن فقط يخبرني حدسي ساخرًا.. النساء قطع سكر.. الحب قطع سكر.. العطاء قطع سكر.. وهم يحرقون السكر! يحرقونه زاعمين أنه يمكنهم بعدها التمتع بمذاق أفضل لـ «الكراميل»!

تغمرها نظرته بفيض من عاطفة، بينما تستطرد هي بشرود:

- عندما تُسقى المرأة الحب منذ طفولتها تكون قادرة على منح السقيا بدورها عندما تكبر.. تصبح كأمك «راوية».. تروي وتروي دون أن تسأل عن مقابل أو نتيجة.. حتى عندما توفي والدك في سن صغيرة لم تنضب بئرها بل فاضت أكثر.. أشجارها بقيت ثابتة الجذع مهما اهتزت الغصون وتساقطت الأوراق.. طاب الغرس فطاب الزرع والثمر.. ربما لهذا السبب تنبت الزهور في حديقتكم وتخاصم حديقتنا.

- يومًا ما ستكون حديقة الكرملاوي كحديقتنا وأجمل.

- متى؟!

- عندما تقررين أن تعودي إلى الكلام.. عندما لا تهربين من «لا أحد» بل تكملين طريقك وتتجاوزين.. عندما تدركين أن «البانسيه» ليس رمز «التخلي» بل «الحكمة».

عبارته الأخيرة تجعلها تدرك أنه سمع كلامها مع راوية آخر مرة فتشعر بخفقات قلبها تتزايد مع مزيدٍ من الألفة الغريبة نحوه، هل هي صلته براوية أم بدافع ما شاركته إياه من ماضيها؟! ما هذا الارتياح الذي تشعر به هذه اللحظة على عكس كل مرة ترى فيها «الغادر» يتبختر بسيره في المدينة فتختبئ كي لا تراه؟! هل هي الراحة التي يمنحنا إياها البوح؟!

- إحم! هل جئت في وقت غير مناسب؟! أمشي والله!

ساحر الكتب

النبرة الساخرة للصوت المألوف تجبر كليهما على الالتفات إلى صفوان الذي يرمق غيث الجالس القرفصاء بنظرة مغتاظة وقد أدرك الشرارة المعهودة ليردف بنفس النبرة:

- ما لك تجلس هكذا كالرجل المرسوم على ورقة المائتي جنيه؟! هل قررت التسول في حديقة بيتكم أم تمارس اليوجا فجأة على كِبر؟!

ينهض غيث بسرعة ليلكزه في كتفه كي يتوقف عن مزاحه السخيف فيما تزفر بانسيه لتتحرك بكرسيها نحو مدخل البيت فتستقبلها راوية التي أتت لتوها بابتسامة حنون، تدعوها للدخول من جديد لكنها تصر على المغادرة.

- أحرجتها يا «...»!

يتبعها غيث بسبة خافتة فيضحك صفوان وهو يشد أذنه بعتاب مرح:

- على ماذا اتفقنا نحن؟! هه؟! قلبك هذا لم يخترعوا له فرامل بعد؟!

- ماذا يحدث؟!

تسألهما راوية ببراءة فيزفر غيث ثم يحكي لها عن زيارة «بانسيه» محتفظًا ببعض التفاصيل لنفسه، لتهز رأسها وهي تسأله ببعض الدهشة:

- بانسيه تكلمت معك؟! قالت كل هذا؟!

- سحر ابنك يا ست! سارق قلوب العذارى!

يطلقها صفوان بتهكم فيهتف غيث مغتاظًا:

- اخرس! لا تتكلم عنها هكذا!

ينخرط كلاهما في مزاحهما المعهود تراقبهما راوية بابتسامة حذرة وقلبها يخبرها أن شيئًا ما يولد في قلب ابنها.. لكن.. بانسيه؟! معقول؟!

تكاد تتركهما لمزاحهما المعهود وتدخل البيت لكن صفوان يستوقفها وهو يتبادل مع غيث نظرة ذات مغزى ليقول بحسم:

- كنتِ تريدين معرفة السر الذي جعلني أدخل بيت الكرملاوي؟!

ترمقه بنظرة حذرة وهي تهز كتفيها فيتنهد بحرارة مستجمعًا نفسه ليبدأ في الحكي لها.

تتبدل انفعالات وجهها مع كل كلمة يحكيها! يا الله! أي سر يخفيه هذا الشاب بين ضلوعه يحترق به وله! لا تلومه على ما فعل ولا ما سيفعل.. آه يا نعمان! كثرت ضحاياك وقلت فرصك!

لهذا لم يكد ينتهي حتى مسحت خيط الدموع الذي سال على وجنتها لتسأله بتعاطف:

- إذن أنت لا تريد إلا الحقيقة؟! من تكون صاحبة الوشم المقصودة؟!

يهز رأسه برجاء وأنامله تتحسس وحمة وجنته فتغمغم بتردد:

- لا يمكنني كشف سر ائتمنتني عليه إحداهن...

- أحترم هذا لكن.. أريد فقط خيطًا.. مجرد خيط يوصلني إلى الحقيقة.. أرجوكِ.

تزوغ عيناها بتفكير عميق للحظات كأنها تزن الأمور في رأسها قبل أن تحسم أمرها لترد:

- لن أبوح بالمزيد.. كل ما يمكنني قوله إن غايتك في «تيوليب».

ساحر الكتب

أنا المتربص

أنا آدم نعمان الكرملاوي.. لماذا أذكر اسمي كاملًا؟! لأنه ببساطة مصنعي! أجل.. أنا صنيعة نعمان وعائلة الكرملاوي كلها من قبله! قطعة «ماتريوشكا» رغبت يومًا في الخروج من اللعبة الأم لكنها وجدت نفسها أضعف من أن تفعل فعادت مكانها صاغرة!

هم علموني أن أرتب الأمور جميعها بحيث أكون دومًا في المقدمة.. أنا السيد فقط لأنني الذكر.. كل النساء في غُرف عائلة الكرملاوي لسن سوى أدوات لرسم لوحة الذكور.. وعندما تتوهج اللوحة بالألوان نحصد نحن الفخر ويحصدن هن بقع الأيدي!

لا تختلف في ذلك زوجة عن ابنة عن أخت.. تاء التأنيث مغلقة كقيد حول رقابهن.. هن خُلقن من ضلعنا الأعوج ووجب عليهن طوال أعمارهن أن يدفعن ثمن هذا العوج!

كان من الطبيعي عندما تتعدد زيجات نعمان بعد أمي أن أتكيف مع الوضع أو على الأقل أتقبله.. لكنني لم أتكيف ولم أتقبل.. بل صرت أتربص! خلقت لنفسي حائطًا غير مرئي أتوارى خلفه منتظرًا ثغرة ينفذ من خلالها انتقامي العادل.. نجحت كثيرًا في إفساد علاقاته ببعض زوجاته.. وأعترف أن البعض الآخر فسد دون تدخل مني.. لكنني أعرف أن الله معي.. يساندني.. ويأخذ لي حقي.. لهذا سأزعم أنني سبب فسادها كلها إما بيدي وإما بيد القدر!

ومع هذا أجدني شديد الترقب هذه المرة.. ما الذي يدبره نعمان مع تلك المرأة التي دخلت حياته مؤخرًا؟! ولماذا أشعر أنها مختلفة؟! بل

إنها ستغير حياتنا كلها؟! ترى لأنها تعجبني أنا الآخر؟!

ضحكة منتشية تملأني مع الخاطر الأخير.. إنها المرة الأولى التي يتفق فيها ذوقي مع نعمان! كم سيكون رائعًا لو أدخل معه السباق هذه المرة لأرى من منا يفوز.. لا أبالغ لو قلت إنني سأستعين بكل أسلحتي فقط لأذيقه مرارة الهزيمة.. أرجوان؟! ماذا عنها؟! وما دخل علاقتي بأي امرأة بها هي؟! أي امرأة تلك التي قد تُقارن بها أو تقارب مكانتها في قلبي؟! أغضب عليها أحيانًا.. أثور عليها أخرى.. لكنني أعترف دومًا أنني لا أخرج منها إلا لأدخل إليها.. أما هذه «الوافدة الجديدة» فهي ستكون وخزتي لكتف نعمان لعله يلتفت إليَّ.. لعله يشعر كم آذاني ولا يزال.. فلأبقَ أنا متربصًا خلف جداري حتى يحين الوقت.. ساعتها سأخطو خطوتي الفاصلة التي ستقلب الأوضاع كلها!

الغصن الثامن

يروقني أحيانًا أن ألدغ من نفس الجحر مرتين.. إن كنت في الأولى كابدت أثر السم فلعلّي في الثانية أختبر جودة الترياق.

جُرحت فقاسيت الوجع.. تعلمت فمرحبًا بالخبرة!

***

- منذ متى يأكل ابنك معنا؟!

يهتف بها نعمان بحدة تجيد إخفاء عاطفته وهو يرى أرجوان تحاول السيطرة على حركات الصغير -غير المنضبطة- على مائدة الطعام في صالة بيت الكرملاوي، تضم أرجوان الصغير إليها تتلعثم بجوابها:

- صفوان قال إن هذا مهم لتعديل سلوكه وتنمية تواصله معنا.

- وهل سيعلمني صفوان هذا كيف يأكل أهلي في بيتي؟!

تتزايد حدته مع احمرار وجهه المنفعل ولم يكد ينتهي منها حتى أطاح الصغير بطبق الحساء بحركة سريعة مفاجئة ليسقط منكسرًا وتتبعثر محتوياته في المكان.

يصرخ نعمان مناديًا الخادمة وهو يرى الولد قد تفلت من ذراعَي أمه ليركض بخطواته الطائشة في كل مكان مكررًا صرخات قصيرة وهو يخبط براحتيه الصغيرتين على جانبَي أذنه، تدركه أرجوان محاولةً ضمه إليها لتأتي الخادمة فيصرخ بها نعمان:

- خذيه من هنا.. لا أريد أن أراه هكذا!

فتستجيب لأمر نعمان بأخذ الولد إلى غرفته يلاحقه صدى صرخاته القصيرة غير الواعية.. بينما يتهاوى نعمان على كرسيه مغلقًا عينيه على وجع لا يريد له الظهور! خفقات قلبه تعوي داخل صدر صلب يتقن حبس الألم وإن كان يتفتت! أخبروه في طفولته أن الرجل لا يبكي، لا ينهار، لا يخشع، الرجل يستمد رجولته من صلابته ويفقدها يوم يلين، ها هو ذا بعد كل هذه السنوات لا يزال تحت قيد وصاياهم، قطعة ماتريوشكا أخرى تظن نفسها منفصلة لكنها تعود صاغرة لتأخذ مكانها في الفراغ المخصص لها في الكيان الكبير!

كيف يعترف أنه في خياله يتحرر، يأخذ ناجي بين ذراعيه، يلصقه بصدره حتى يكاد يصير جزءًا منه، يعتذر منه لقسوته، يقبِّله من رأسه حتى أصابع قدميه، يحول كل صرخاته هذه إلى قهقهات، لكنه مضطر أن يقهر كل هذا، أن يفتح عينيه مذيبًا خيالاته كي يعيش دوره الذي ارتضاه، دور نعمان الكرملاوي!

تعود أرجوان إلى المائدة منكسة الرأس ليصلها صوت نعمان الصارم:

- ليس معنى أنني سمحت لصفوان ذاك بالبقاء أنني سأرضخ لكلامه الفارغ.. بقي له عندي القليل وبعدها لو لم تعجبني النتيجة فسأطرده من هنا شر طردة ولن يعنيني ساعتها أي شيء.. تفهمين؟!

تومئ برأسها في خنوع مثير للشفقة بينما يجلس نعمان على رأس المائدة يراقب الجالسات بنظرة ثاقبة، أرجوان بشعرها الكستنائي

ذي الشرائط الذهبية، بانسيه بشعرها القصير ذي القصة الرجولية، صابرينة بشعرها الأسود الناعم الطويل الذي يعرف سر خصلة شيب واحدة جاءت مبكرة جدًّا وتخفيها هي بتصفيفة معينة تسدل فيها بقية شعرها عليها، وأخيرًا تيوليب بشعرها المموج الثائر الذي يلتف كغابة جذابة حول وجهها. لماذا تعلق بصره بشعر كل واحدة منهن بالذات؟! طالما ظن أن شعر المرأة يحكي تاريخها ويفضح حاضرها، ولا أصدق مِن ظنه هذا الآن! ترى هل تخفي إحداهن السر الذي يظنه؟! أم أنه فقط يتوهم؟!

وعلى كراسيهن كانت كل واحدة هائمة في واديها، كل مرة تتناول فيها إحداهن الطعام تحمل لها ماضيًا بنكهة الوجع.. صابرينة التي كانت تشعر كل مرة تتناوله فيها أنها لا تزال تدفع ثمنه بجسدها، فعلتها مرة في طفولتها رغمًا عنها ولا تزال تفعلها بإرادتها مع زوج كنعمان لا يقدِّر فيها شيئًا قدر جسدها.

بانسيه التي صارت لا تحب الطبخ، في مراهقتها كانت عكس ذلك تمامًا، كانت تحب التفنن في تحضير الطعام لأجل والديها ونعمان، كانت تفعلها بحب لأجل نظرة تقدير منهم، حتى أخبروها أنه لا داعي لأن تستكمل دراستها بالسفر كما تريد، «الست مكانها المطبخ» التي قالها نعمان وقتها بمرح أشبه بالسخرية كانت أشبه بطعنة في ظهر حبها له! لم تدخل المطبخ بعدها قط، بل صارت زاهدة في كل ما يُطبخ تعتمد في طعامها غالبًا على الخبز والألبان والمعلبات.

- تذكرين أنكِ كنتِ ماهرة جدًّا في صنع هذا؟!

يقطع بها نعمان أفكارها وهو يحدثها بنبرة عجيبة هي مزيج من الندم والغضب وطيف شاحب من الود بينما يشير إلى أحد أصناف الطعام، فترفع عينيها إليه، تلوح بكفها في إشارة تعني: «كنت!».

تراقبهما أرجوان بنظرة خاوية وهي تتظاهر بتناول الطعام، منذ صغرها وهي لا تستطيع تناول الطعام منفردة، لا تستطيع فعلها إلا مع من تحب، أمها، صابرينة، آدم، وأخيرًا ناجي، لهذا تتظاهر بتناول الطعام معهم حتى ينتهي المشهد ثم تعود إلى الصغير كي تأكل معه...

تقطع خواطرها ذكرى «قطع البطيخ دون بذور» فترتجف شفتاها بابتسامة باهتة، يومًا ما استجابت للأكل مع صفوان، لكن ما يعنيه هذا؟! هل يقرِّب بعيدًا أو يقصِّر مسافة؟!

تغمض عينيها على يأسها وهي تشعر بدبلة آدم كطوق من نار حول إصبعها وقلادته بصورته المخدوشة أنشوطة حول عنقها، أين المفر؟!

تيوليب؟! منذ قدومها إلى البيت ونعمان يصر على أن تتناول الطعام معهم يوم إجازتها من المصنع، تحس بمشاعرهن المتحفظة نحوها وبالذات صابرينة التي تكاد تقتلعها من مكانها بنظراتها لكنها تتجاهل، ماذا عن علاقتها بالطعام؟! تتناوله دومًا بشراهة مثيرة للعجب! هل تعوض بهذا حرمان طفولتها؟! هل صارت هي عادتها في اكتناز كل ما يمكن أن تناله يداها؟! هل تبحث عن مذاق جديد يمنحها الشعور بالشبع الذي لم تعرفه في حياتها قط؟! ربما لو شبعت لعادت تذكر ملامح أمها التي تشوشت في ذاكرتها؟! لتناست سقوط

والدها ميتًا في واحدة من نوبات عمله ليعودوا لها بجثته بدل المال الذي كان يجاهد ليجلبه لها؟! لمضغت كل الحرمان الذي أجبرت أن تقهر به طموحها راضيةً بالفتات!

«طامحة»، «طامعة».. الفارق بينهما حرفٌ وجبلٌ شاهق من الظلم والتنازلات، ومع هذا صارت عاجزة تمامًا عن التفرقة بينهما!

كل ما يعنيها الآن أن تنال مرادها.. بيت الكرملاوي بكل ما فيه ومن فيه!

***

- ماذا تفعلين هنا؟!

تسألها أرجوان وهي تفتح غرفة ناجي النائم فجأة لتجد تيوليب تجلس على الأرض جوار فراشه وكفها على صدره في وضع مريب خاصة والأخيرة تتلجلج حروفها بفعل المفاجأة بينما تقف مكانها بجوابها:

- سمعت صوته.. عرفت أنه مستيقظ وليس معه أحد.. جلست معه حتى نام.

ترمقها أرجوان بنظرة مكذبة وهي تركض نحو ناجي تتفحصه برفق خشية إيقاظه، لترفع عينيها إليها بنظرة مشتعلة نادرًا ما يحملها وجه خانع كوجهها، وهمسها الحاد رغم خفوته يكاد يحرق من أمامها:

- ما الذي جاء بكِ إلى هنا من الأساس؟!

- نعمان كان يريدني في غرفة مكتبه.. كنا ننجز بعض العمل.

تشير بها تيوليب نحو الخارج حيث الغرفة المجاورة لينعقد حاجبا أرجوان بانفعال صارخ غريب.. لم تتعجب من ذكرها «نعمان» هكذا دون ألقاب! يمكن لأنها تعمل معه منذ زمن بعيد في المصنع قبل أن تختفي فجأة لتعود إلى حياتهم بل وتسكن هنا معهم! لكن انفعالها لم يلبث أن هدأ وصوتها يحمل مزيجًا أغرب من ندم وغضب:

- أعتذر لحدتي لكن.. لا أحب أن يقترب أحد من ابني.

وكأنه كان الوقت لتتبادلا الأدوار ويشتعل وجه تيوليب هذه المرة بالغضب الأسود:

- وكأنني سأؤذيه مثلًا؟!

تتناطحان نظرات غامضة وقد بدت كلٌّ منهما وكأنها غريمة الأخرى، لكن مع هذا تراها صورتها المنعكسة فلا تدري هل تحقد أم تشفق عليها!

صمت قصير يبتلعهما تقطعه تيوليب وهي تلتفت نحو ناجي النائم بنظرة غامضة قبل أن تغادر الغرفة بخطوات شبه راكضة، فتتنهد أرجوان وهي تميل على وجه الصغير، تربت وجنته بنعومة هامسة:

- أي رابط غريب هذا الذي بيني وبينك؟! كنت في عز النوم وفجأة شعرت أن أحدهم يأخذك مني، استيقظت مذعورة وركضت لأجدها هنا معك! ليست المرة الأولى! كم تكرر الموقف فيشعر قلبي بك وإن بعدت بيننا المسافات! هل هي الأمومة؟! لا أظن كل الأمهات يمتلكن

ملَكة كهذه! أنت عندي لست مجرد ابن.. أنت قطعة من روحي بل أنت روحي كلها.. أنت عوض عمري الذي ضاع ولا يزال يضيع في هذا البيت.. شجرتي التي آمل أن تكبر يومًا فتظللني غصونها.. أنا عشت عمري كله أفتقد ظل حبيب.. فكيف بك وأنت أغلى حبيب؟!

تقبِّل الصغير بحنان ثم تغادر الغرفة وقد اختنقت أنفاسها لتأخذ وجهتها نحو الحديقة، وبالتحديد نحو شجرة بعينها، تتلمس أصابعها جذعها وهي تتذكر، ذات يوم صنع لها آدم هنا أرجوحة علقها بين الغصون، كانت أبسط وأجمل أرجوحة رأتها، كيف تصف شعورها عندما كانت تركبها فيدفعها بعيدًا لتعود إليه فيهديها قبلة على وجنتها! هكذا كانت علاقتهما دومًا، يدفعها، تعود، يكافئها بقبلة ترفعها فوق غيمة حب وردية، لكنه يعود ليدفعها بعيدًا!

هل آن الأوان أن تعترف أنه لم تعد ترضيها قبلة؟!

انكسرت الأرجوحة فجأة، الغريب أنها انكسرت ليلة عيد ميلاد ناجي السابق الكارثية والتي تبعثر بعدها بيت الكرملاوي! هل كانت نبوءة أن علاقتها بآدم ستنتهي! وهل يمكن لعلاقتهما أن تنتهي؟! كيف ولا يزال هو...

- كانت هنا أرجوحة!

تنقطع أفكارها وهي تلتفت إلى صاحبة الصوت بشعرها الغجري الذي بدا تحت ضوء القمر كأنه أفاعٍ تهم بنهشها! «ميدوسا» مرعبة تكفي نظرة واحدة لعينيها كي تستحيل حجرًا! ومع هذا تشعر بنفس الشفقة نحوها!

- مَن أخبرك؟!

تسألها بصوت مبحوح لترد تيوليب وهي تداعب ياقة قميصها لترد بشرود:

- زرت الحديقة مرة منذ سنوات.. نعمان أخبرني عن قصة الأرجوحة التي صنعها لك آدم.

مزيج من خجل وغضب من اختراق خصوصيتها يجعلها تشيح بوجهها دون رد فلم تلحظ نظرة تيوليب لقلادة عنقها هي ودبلة آدم في إصبعها، نظرة ترجمتها كلماتها الساخرة بمرارة:

- المدينة كلها تتحدث كم أحبك آدم منذ طفولتكما.. رغم شجاراتكما المتكررة.. رغم قسوته معك.. رغم تسلطه عليكِ.. رغم تسفيهه من شأنك.. رغم.. ورغم.. ورغم...! كل هذا يجعلني أسأل: ماذا يعني الحب في عُرفهم؟! هل أحبك آدم حقًّا؟!

تتكدس الدموع في عينَي أرجوان دون أن تسقط وما زالت متجمدة أمام نظرة «ميدوسا» التي أطلقت ضحكة ساخرة وهي تشير بعينيها نحو مكان الأرجوحة الخالي:

- على أي حال.. لقد انكسرت الأرجوحة.

تقولها لتغادرها بنظرة غريبة بين شفقة وتشفٍّ تلاحقها نظرات أرجوان التي كان جسدها يرتجف وهي تود الصراخ بالحقيقة! الأرجوحة لم تنكسر! على الأقل في قلبها هي! ليتها تنكسر.. ليتها!

أنا الخائن

أنا آدم نعمان الكرملاوي! صرت خائنًا! تزوجت تيوليب! لم يجرِ بخلدي قط أن أفعلها! لكنه كان السبيل الوحيد لمنع نعمان من فعلها!

تيوليب هي أول انتصاراتي على نعمان في مضمار كهذا! عرفتها منذ مدة كموظفة معنا في المصنع، جميلة، جذابة، طموحة، ذكية وفقيرة!

كانت الأعين تلاحقها أينما ذهبت لكنها لم تبد امرأة لعوب بل كانت تغيظني بنظرتها المستفزة، نظرة لو نطقت لقالت: «أنا أستحق الأفضل، وسأناله!».

لم أتعجب انجذاب نعمان إليها فهو طبعه على أي حال، ولا انجذابها هي إليه فربما وجدت فيه «العريس اللقطة» كما يقولون، لكنني تعجبت انجذابي أنا نحوها! ربما لأنها أول امرأة تصفعني!

أجل! الحمقاء فعلتها ذات مرة بينما كنت أستقل معها المصعد! زر قميصها المفتوح، عطرها الجذاب رغم رخصه، شعرها الغجري الذي يتطاير حولها بتحدٍّ يشبه نظرتها، وأخيرًا سروالها الضيق الذي يفضح أكثر مما يستر! أليست كل هذه دعاوى للمغازلة بل للمس؟!

ما الذي تعنيه حواء بهذا لو لم تكن تريد الصراخ بآدم أنها -مهما ادعت الغضب- ترحب باقترابه بل والتصاقه!

فعلت ما أملاه عليّ شغف رجولتي حينها لتفاجئني بصفعة! كدت أردها بمثلها لكن المصعد انفتح فجأة لتدفعني هي وتغادر، لكنني

أقسمت أن أرد لها صفعتها وألا أغادر حياتها أبدًا إلا ببصمة لن تزول.

كان هذا لقاءنا الأول ولم أعرف أنها ستكون طريدتي العنيدة فيما بعد! لم تكن طريدة سهلة لكنني أنا الآخر لست بصياد ساذج!

المشكلة أن الطُّعم المناسب للطريدة هذه المرة كان الزواج! لا أحب الاعتراف بأخطائي لأنها -دائمًا- نتاج أفعال الآخرين، لكن هذه المرة لا يمكنني تجاوز الغصة في حلقي وأنا أشعر بخيانتي لأرجوان.. علاقاتي مع النساء من قبل كانت مجرد نزوات عابرة دون أي رباط.. لكن هذه المرة مختلفة ربما لهذا أعتبرها خيانة.. لا.. لا.. لعلها ليست خيانة! لعلها فقط مجرد وسيلة تفضي إلى غاية.. ألا تستحق الغاية؟! بالتأكيد تستحق!

اليوم تزوجت تيوليب بعدما وفرت لها سكنًا في مدينة أخرى بعيدًا عن نعمان! انتزعتها من يديه إلى الأبد، وحانت فرصتي لأرد لها صفعتها الأولى لي بمثلها وأكثر!

الغريب أنها -رغم إتقان تمثيلي- تشعر أنني لا أحبها كما ينبغي، تسألني عن علاقتي بأرجوان فأخبرها أنها مجرد حب طفولة تورطت فيه وصار من الصعب التخلص منه، تنظر في عينَي وترمقني بنظرة شك فأعذرها، أنا نفسي عندما أنظر إلى صورتي في المرآة أكاد أرى أرجوان عروسًا في حدقتَي، ملكة لا تترك مكانها لسواها من الجواري، لكن تيوليب يجب أن تصدق، على الأقل لبعض الوقت حتى أستمتع ببقية اللعبة!

أرجوان؟ لن تشعر بشيء! غدًا أعوضها! أجد طريقة وأهرب بها

خارج بيت الكرملاوي لليلة واحدة فقط، آخذها إلى البحر الذي تحبه، إلى البيت الذي تحبه والذي قضينا فيه أجمل أيام حبنا، أبادلها الغرام تحت ضوء القمر، أقسم لها -غير حانث- إن قلبي لا يرى سواها، أدللها حتى تنسى ما كان من جفوتنا وكيف وصلنا إلى هذا الحال.

لن تشعر بشيء.. ستصدقني.. لن تشعر بشيء.. ستصدقني وتستجيب كالعادة.. لن تشعر بشيء.. ستصدقني وتستجيب كالعادة ولن يتغير حالنا أبدًا.. لن تشعر بشيء.. لن تشعر بشيء وقريبًا جدًّا أحتفل بانتصاري على نعمان ليعرف بحقٍّ مَن فينا سيد بيت الكرملاوي.. لن تشعر بشيء.. لن تشعر بشيء...

***

- شكرًا لأنك بقيت رغم كل شيء.

تهمس بها أرجوان لصفوان في غرفة الحديقة بينما تراقب ناجي ينجح في توصيل بعض الأشكال المصورة بأسمائها، تقدُّمٌ آخر جديد في حالته تريد شكر صفوان عليه، لكن هل يكفيه شكر؟! لا تجرؤ على النظر إلى عينيه خاصة بعد اعترافه الأخير لها ذاك اليوم، لكن لما طال صمته دون رد، رفعت عينيها إليه ليجرفها طوفان عاطفة في عينيه وإن جفت كلماته إلا عن: «لا أحد يُشكر على عمله، أتقاضى أجرًا على أي حال!».

خشونته المستحدثة تغرس غصة في حلقها، تلهب الدموع في عينيها لتجد نفسها تهمس دون وعي: «لا تعاملني بهذه الطريقة.. أنت بالذات.. لا تعاملني هكذا».

تخز عبارتها صدره بمدلولها خاصةً وهي تستطرد بابتسامة كالبكاء: «أعرف أن الجميع يعاملني بدونية، يستهينون بي، يلقونني في زاوية مستضعفة، أقبل هذا دومًا لكن.. منك أنت لا أتقبله».

- ولماذا أنا بالذات؟!

تغمض عينيها على سيل دموعها التي فاضت ليرق قلبه لها حتى مع تجاهلها جواب سؤاله بينما تردف كأنها فقط تفضفض لا تحاور:

- مجرد بكائي هذا الآن نعمة كنت محرومة منها، منذ ليلة عيد ميلاد ناجي السابق وما حدث فيها.. كنت أقول لنفسي حتى دموعي تجاهلتني، زهدت فيَّ، كنت أشعر دومًا أنني لا أستحق.. حتى أتيت أنت.. لا أعرف أي سحر حملته كلماتك لكنها أيقظت داخلي شيئًا.. لا! «أيقظت» ليست اللفظ الصحيح.. بل «خلقت».. خلقت شيئًا لم يكن موجودًا من قبل.. شيئًا جعلني لأول مرة أحب نفسي.. أحترمها.. شيئًا ليس سهلًا أبدًا أن يمنحه لك أحدهم.. أقولها وأنا أعرف جيدًا ما أقول.

- ومع هذا تحرمينني الفرصة؟!

غضبه يمتزج بعتاب عاشق لتطلق زفرة عاجزة وهي ترفع رأسها إلى أعلى، أناملها تتلمس قلادة عنقها المخدوشة والدبلة العاصرة لبنصرها وهي تهمس بوجع أحرقهما معًا:

- لا أريد أن أمنحك بكلامي أملًا.. أنت تعرف جيدًا ما يقف بيننا.. آدم لن يتركني أبدًا مهما ظن الجميع غير ذلك.

- اتركيه أنتِ.

- ليتني أستطيع!

تنكس بها رأسها كأنها تقطع الخيط الرفيع بينهما، فتنفلت منه زفرة ساخطة قبل أن يشيح بوجهه عنها، يتحكم في نبرة صوته ليخاطب ناجي بقوله وبكلمات تناسب فهمه:

- أحسنت.. تستحق مكافأة.. اليوم سنتعلم ركوب الدراجة.

تبتسم رغمًا عنها وهي تراهما يغادران الغرفة، تلحق بهما لتراقبه وهو يساعد الصغير في ركوب الدراجة، ناجي صار يطيع أوامره، يستجيب لهذا المزيج الآسر من الحزم والحنان، كأنه -مثلها- محروم متعطش لوجود أب، لن تظلم آدم فتقول إنه لا يحب ابنه، لا.. لقد أحب ابنه حقًّا لكن كما أحبها هي! هذا الحب الذي يُغرق ولا يروي، يحرق ولا يدفئ، فيضه خسارة وعطاؤه عدم!

تنقطع أفكارها على ضحكات الصغير التي تحولت إلى صرخة وجسده الصغير يميل يكاد يسقط بالدراجة، يسقط فعلًا لكن صفوان يضمه ليحمي جسده فيتلقى هو أثر الصدمة على الأرض.

- جرحت يدك؟!

لهفتها الحقيقية تنعش روحه وهو يراها بعد اطمئنانها على الولد تنادي الخادمة تطلب منها تبديل ثياب الصغير وضمادة لجرحه هو.

ها هي ذي تطهر جرحه ثم تضع عليه ضمادته، همسه ينفذ من قلبه إلى قلبها دون محاذير:

- ليتني أستطيع فعل المثل معك.. ليتني أضمد جرحك.

ترفع عينيها إلى أعلى هاربة، تنتبه أنهما واقفان تحت نفس الشجرة التي صنع لها آدم عليها أرجوحته، سقطت الأرجوحة يومًا وتركت مكانها غصنًا ضعيفًا يوشك أن ينكسر، هذا الذي يقف عليه الآن عصفور يبدو حائرًا، يتلفت يمنة ويسرة، يلتقط صفوان المشهد ذاته فيهمس لها:

- تظنينه يقع لو انكسر الغصن؟!

- طبعًا لا.. سيطير!

- هذا بالضبط ما أردتك أن تفعليه، ثقي بقدرتك على التحليق مهما بلغ ضعف الغصن، من كانت قوته تنبع من صدره فلن يحرمه منها أحد، سيحلق ولو انكسر تحته ألف غصن.

تبتسم وهي تركن بعينيها إلى عينيه هذه المرة دون هرب، ابتسامتها التي بدت وكأنها توقظ شمسًا أخرى بصدره لا تغرب أبدًا.. ربما هذا ما شجعه ليهمس بجرأة:

- جميلةٌ أنتِ.. وبعض كلامي يزيد جمالك.

تحمر وجنتاها وهي تشعر أنها تلبّستها روح أخرى، تسأل كمسحورة:

- هل تراني حقًّا جميلة؟!

طقطقة شفتيه تعطي جوابًا بالنفي فتعبس ملامحها للحظة، قبل أن تنتقل ضحكته منه إليها وهو يقترب بوجهه من وجهها:

- بل كأن الجمال قبلك كان يجرب ويتمرن حتى إذا سكنكِ احترف وأتقن.

خفقاتها تتقافز حد الجنون وهي تحاول استيعاب فرحتها بكلماته، بينما يحك هو مؤخرة رأسه بحيرة ليردف بصدق مسَّها:

- لم أكن يومًا عاشقًا ولم أتقن ما يسمونه بالغزل، حقيقةً لا أعرف من أين تأتيني هذه الكلمات في حضورك، وكأنها نبتت فجأة على لساني لأجلك وحدك.

تنفلت منها ضحكة قصيرة مكتومة تغطيها بشفتيها كالعادة، ليفاجئها سؤاله:

- لماذا تغطين شفتيك دومًا عندما تضحكين؟!

تتبدل ملامحها ليبتلعها شرودها من جديد، يومًا ما كانت تحب ضحكتها، شعرها المنسدل حرًّا، ملامحها ذات الحسن، حتى أقنعها آدم أن ضحكتها تُظهِر عدم انتظام أسنانها، وأن شعرها باهت يحتاج إلى شرائط ذهبية كي يبدو أفضل، وأن جمالها يحتاج إلى مرآته هو فقط كي يُرى، أقنعها أنها قمر معتم يحتاج إلى شمسه هو كي يبدو انعكاسها عليه فيظهر نوره، أقنعها وهي صدقت!

- أحب ضحكتك.. أحب رؤيتها كما أحب صوتها...

همسه الهائم يزيد ارتباكها فيعود إليها شعورها بالزمان والمكان.. ماذا دهاها؟! كيف نسيت نفسها إلى هذا الحد؟! تقف هنا في حديقة الكرملاوي.. تحت شجرة أرجوحة آدم.. لتسمع غزلًا من سواه؟!! لو

علم آدم فسيقتلها!

تنقبض أناملها على صدرها عند الخاطر الأخير وهي تتلفت حولها، تبتعد عدة خطوات تعود معها ملامحها إلى صقيعها الخانع.. هل صدقت حقًّا هدنة القدر بغياب آدم؟! هل يمكن أن تكون لها فرصة أخرى مع سواه؟!

- أرجوان.

يهمس باسمها بمزيج من ضيق ورجاء وقد قرأ مشاعرها كاملة لتستمر في الابتعاد بظهرها ببطء نحو باب البيت قائلة:

- لو كنت أنهيت عملك اليوم يمكنك الرحيل.

- لا.

حزمه الرفيق يحيرها مع عناد بمذاق الاحتواء وهو يردف بنبرة ذات مغزى:

- لم أنهِ عملي.. ولن أرحل.

تتصنع جهلها بما يقصده، تنادي الخادمة لتعود بناجي إليه، لكنها لا تملك المزيد من الطاقة لتبقى معه في نفس المكان، تتحرك نحو باب البيت ولم تكد تقع عيناها على البئر القديمة حتى تصلبت مكانها.. آدم عاد من جديد.

يشير إليها خفيةً أن تأتي فتتلفت حولها بخوف قبل أن تركض مغادرةً البيت نحوه، هل رآها مع صفوان؟! ينقبض قلبها بمزيدٍ من الخوف لكنه يجذبها خلف السور القصير جوار البئر والذي كان قد

مهد لها فوقه مجلسًا، تفاجأ بالوجه العاشق الذي افتقدته منه، يضمها مغرقًا وجهها بقبلاته فيلين جسدها بين ذراعيه، تمتزج دهشتها بتوجسها ليفاجئها بما يريده منها.. ستطيعه! ستفعل ما يريد!

لا يزال آدم يجيد السيطرة عليها.. لا يزال يجيد الحصول على ما يشاء!

***

- أين تيوليب؟!

يهتف بها نعمان بلهفة غاضبة وهو يدخل عليها المطبخ الذي قلما تدخله في ظل وجود الخادمة، لترد صابرينة ببرود:

- وما شأني أنا؟! ليس لدي «دفتر حضور وانصراف» لعائلة الكرملاوي.

يطلق زمجرة غاضبة وهو يندفع نحوها، يكاد يعتصر ساعدها بقبضته ونظرته المشتعلة تحاصرها، لكنها كعهدها تجيد احتواء غضبه، تحتضن خده براحتها وهي تزرع نظرتها المغوية في عينيه:

- تعرف ماذا أطهو لك؟! «ورق العنب» الذي تحبه.

تقولها لتضمه إليها بذراعها الحرة، تلقي رأسها على كتفه ولا تزال تحيط وجهه بكفها، ورغم تأثره الذي بدا ظاهرًا على قسماته فإنه دفعها ببعض العنف هاتفًا بصوت متحشرج:

- لا وقت لدلعك هذا!! أريد تيوليب حالًا.

يقولها ليخطو بضع خطوات في طريقه للخروج من المطبخ، لكن سؤالها المفاجئ يجبره على التوقف:

- لماذا تزوجتك يا نعمان؟!

يتجمد مكانه للحظات ثم يلتفت نحوها برأسه ليقول من خلف كتفيه بنزق ساخر:

- ألا يفترض أن يكون السؤال لماذا تزوجتك أنا؟!

لكنها تقترب منه بتمهل، تغرس نظراتها القوية في عينيه، تقف أمامه قائلة بثبات من تعرف ماذا تريد:

- أنا أعرف لماذا تزوجتني.. في الواقع كلهم يعلمون.. تزوجت العديد من النساء وكانت الإجابة هي هي كل مرة.. ولا أملك الغرور الكافي لأظن أنني استثناء.. لكن سؤالي.. هل تعرف حقًّا لماذا تزوجتك أنا؟!

- مالي.. نسبي.. سطوتي.. وجاهتي.. كما أنني كنت أمنحك فرصة لتكوني جوار صاحبتك.

- بالزواج مِن حميها؟!

سخريتها لم تكن لاذعة بقدر ما كانت مريرة، لهذا انعقد حاجباه بقوة وهو يزفر صارخًا بنفاد صبر:

- هل تذكرت الآن بعد ست سنوات أن تخبريني لماذا تكرمت ووافقت بالزواج بي؟!

- أنا لم أنسَ كي أتذكر.. لكن يبدو أنك أنت من نسيت وتحتاج أن تتذكر.

- لا وقت لدي لألاعيب النساء تلك!

يكاد يدفعها من جديد ليغادر لكنها تتشبث بقبضتيها في ساعديه، أظافرها تكاد تخدش بشرته، زرقة عينيها تبدو له كبحر يهدد بابتلاعه، لكنه -للعجب- ينعشه، يعده بسحر يشبه سحرها:

- تزوجتك لأني أردت أن أحبك.. صدق أو لا تصدق لكنها الحقيقة.. أنا لم أعرف لي أبًا.. وعندما رأيتك أول مرة قلت لنفسي: «هذا سيكون سندك، سيعوضك عن فقد الأب، سيكون لك أبًا وزوجًا وحبيبًا بل وابنًا».. تذكر عندما فقدنا ابننا يا نعمان؟! تذكر ماذا قلت لك؟!

يغلق جفنيه بقوة عن حسرته وهو يتذكر يوم فقدت جنينها منذ سنوات في أول زواجهما وهي لا تزال في أول الحمل.. يومها بقي مقهورًا لا يعرف هل يواسيها أم يواسي نفسه.. لكنها ساعتها مسحت دموعها بسرعة، ألقت رأسها على صدره، تشبثت بكفيه، همست بما لا يمكن إلا أن يكون صادقًا لأبعد حد:

- أنت أبي وزوجي وابني وكل عائلتي.. أنا لم أطلب يومًا مالًا ولا أملاكًا.. أنا لم أرجُ سوى عائلة.. عائلة تقبلني وسطها.. وأنت جئتني بكل هذا.. لهذا أحببتك وسأبقى أحبك.

ها هي ذي تكررها الآن كما قالتها يومها، بنفس الصدق والإحساس الذي اخترق صدره الصلد، وجعل صدره يعلو ويهبط كأنه كان يعدو

لساعات، لهذا السبب ربما لا تزال «قطعة اللادن» ملتصقة بسقف حلقه لا يمكنه التخلص منها!

- لماذا تقولين هذا الآن؟!

يخفت بها صوته المتحشرج وهو لا يقوى على الفكاك من أسر عينيها لتهز رأسها بجوابها:

- كي تهدأ.. تحتاج إلى سماع هذا الآن كي تهدأ.

- ماذا تعنين؟!

- لا شيء.. أشعر أنك ثائر ساخط دومًا هذه الأيام.. والواحد منا في هذه الأوقات يحتاج إلى من يخبره أنه يحبه.

ثمة نبرة غامضة في صوتها تحيره، خاصة وهي من تعطيه ظهرها هذه المرة لتتحرك نحو القِدر على الموقد، ترفع غطاءها لتتناول واحدة من أصابع المحشي، تنفخ قليلًا لتبردها، تتذوقها بتلذذ ثم تستدير نحوه من جديد هامسة:

- تمامًا كما تحبه!

للغرابة يبتسم! ابتسامة حقيقية صاحبت تنهيدة وهو يعود إليها، يضم ظهرها إلى صدره مخفيًا جبينه في كتفها من الخلف كأنه يجبن عن مواجهتها، لكنها تستدير لتقبل جبينه بحنان حقيقي لا تدعيه، تهمس بعذوبة:

- حِملك ثقيل لكنني أثق أنك قادر عليه.. ابقَ معي.. يدك في يدي.. لا تفلتها.

كنصيحة أو كرجاء أو كمثلهما معًا قالتها لتتسع ابتسامته رغمًا عنه رغم شرود نظراته...

- آه.. قل لي.. لماذا كنت تسأل عن تيوليب؟!

خبثها البريء ينتزعه من شروده ليلوح بكفه قائلًا:

- لم تأتِ إلى المصنع اليوم.. لم أرها منذ البارحة.

- لا تقلق.. لا أظنها من النوع الذي يُخشى عليه.

تنفرج شفتاه وكأنه على وشك نطق شيء ما لكنه يعاود إطباقهما قبل أن يغادر المكان بسرعة كأنه يهرب من المزيد من البقاء معها، بينما تتنهد هي بحرارة وهي تغلق الموقد، تغادر هي الأخرى نحو غرفتها تغلق بابها خلفها، تستخرج دفترها من مخبئه، لتكتب:

«ابني الذي لم أنجبه بعد...

اليوم أخبرت نعمان لماذا تزوجته، تظنني كذبت عليه؟! تظنها قصة تقليدية لفتاة فقيرة تزوجت رجلًا في عمر أبيها طمعًا في ماله؟! لا يا ابني.. أنا أعرف كما يعرف هو أنني حقًّا أحببته.. لا تسألني كيف! عندما يعاني المرء من حب أول مشتعل جارف، يبحث في حبه الثاني فقط عن الهدوء، الأمان، البقاء، وأنا لا أريد من نعمان إلا هذا.. أن يبقى.. فقط يبقى.. هل هذا كثير؟!

آه لو تعرف كم عانيت قبله؟! كلمة «بنت حرام» التي كانوا يقذفونني بها في وجهي، يجملونها أحيانًا فيقولون «لقيطة»، لكنني كنت أشعر بغمزاتهم الخبيثة ومصمصات شفاههم المستنكرة خلفها،

وكأنه كان ذنبي! «العِرق دسَّاس» التي كانوا يبررون بها نظراتهم المحتقرة نحوي كانت تذبحني، ينتظرون مني أي لفتة أو خطأ ليبرهنوا على سوء ظنونهم وأنتظر منهم أي بادرة تقدير كي أثبت أنني لست بهذا السوء!

جمالي الصارخ كان نقمة عليّ، كيف لا وهو يذكرهم كل مرة أنني -مع ظروف نشأتي- متاحة.. مستباحة.. غنيمة باردة لا تستوجب سوى يد تمتد!

تعرف يا بني؟! عندما تعلمت الصلاة كانت أول دعوة طلبتها من ربي عندما أرى أبي وأمي في الآخرة أن يخبراني أنني «بنت حلال»! أن آخذ حقي من كل من قذفني في عِرضي دون سبب!

طالما دار بذهني أن نعمان تزوجني ليعاقب بي آدم! ليساوي «عديمة نسب» مثلي بأمه سليلة بيت الكرملاوي! لم يغِب هذا عن بالي يومًا لهذا كنت أجتهد في إحكام خيوطي حول نعمان، وأظنني حتى اليوم قد نجحت!

تعرف يا بني أنني كثيرًا أصحو من نومي مذعورة لأتفقده جواري، أبسط راحة كفي أمام أنفه أتأكد أنه ما زال حيًّا، ساعتها آخذ نفسًا عميقًا وأدس رأسي في كنفه، تسألني كيف وهو يسيء معاملتي وأجيبك بثقة امرأة تعرف كيف يفكر رجلها: «هو فقط يخاف تعلقه بي وهو الذي اعتاد تبديل النساء كما يبدل ثيابه، هو نفسه لا يفهم سبب تمسكه بي طوال هذه السنوات ولا يريد الاعتراف أنه حب!».. مغتاظٌ أنت مني؟! معطوبة؟! تراني صرت معطوبة حقًّا؟!! أن أحب

رجلًا في مثل هذا العمر؟! لن ألومك لو فكرتَ هكذا، أنا نفسي أشعر كثيرًا بغرابة الوضع، لكن ما أوقن به حقًّا أن نعمان غالٍ عندي غلوَّ الحياة نفسها.. هو منحني بيتًا وعائلة، صحيح أنه عجز عن منحي طفلًا لكنه ليس ذنبه، وأنا انتقمت ممن فعلها.. لا تسألني عن هذا الأمر تحديدًا، فأنت بالذات لا أجرؤ على ذكر هذا أمامك! كل ما أريدك أن تعرفه أنني حقًّا أحببت نعمان، وأتمنى عندما تأتي أنت أن يكون هو والدك!

أراك تتنهد باستسلام، كم تشبه تنهيدتك خاصتي! سلامتك من التنهيد يا قلب أمك! ليت قلبك لا يشبه قلبي عندما تتنهد!

تسألني كيف تزوجت نعمان؟! بدايتنا كان تقليدية حقًّا.. هو اشتهى جمالي وأنا اشتهيت أمانًا في بيته.. خالتك أرجوان لم توافق أول الأمر، من ناحية كانت تخاف عليّ من نزواته وطبعه النزق، ومن أخرى كانت تطمع لي بالأفضل، ومن أخرى كانت تطيع زوجها كعهدها والذي كان يرفض ارتباطي بأبيه، لكنني فعلتها! أقنعت خالتك أنني حقًّا أحتاج رجلًا مثل نعمان فدعمتني ووقفت جواري، زوجها الغبي اعتبر ذلك خيانة له! اعذرني لو شتمته أمامك لكنه هو فعلًا يستحق الشتم! لا يكفي أنه دمر حياة خالتك بل وحياته هو، كان يريد التحكم في حياتي أنا أيضًا!

تعرف أنه أسداني معروفًا برفضه زواجي بأبيه؟! لا أعرف أي ذنب فعله وجعل نعمان يسخط عليه حد أنه جعلني أسكن هنا في بيت الكرملاوي الذي كان محرمًا على كل زوجات نعمان قبلي، فعلها نعمان ليعاقبه على شيء ما لا أثق أنني أعرفه بالضبط، لكنه كان

كفيلًا أن يتوقف نعمان عن احترام مشاعره بل ويسمح لأخرى أن تدخل غرفة أمه!

أجل.. أنا كنت أول زوجة تدخل بيت الكرملاوي بعد أم آدم، وسأسعى أن اكون الأخيرة، والفضل لآدم!

أنا أكره هذا الرجل يا بني.. وأحمد الله أنه خرج من حياتنا ولن تراه عند قدومك.. لكنه لا يزال يسيطر على خالتك رغم كل شيء.. لا تقلق.. أمك قادرة على تخليصها منه وقريبًا جدًّا سيختفي كل أثر له إلى الأبد!

لا تتعجب قسوة وعيدي، أنت لا تعرف ما فعله بي.. بل وبك أنت! تخيل أنه آذاك وأنت لم تأتِ بعد! حرمك من كنت ستدعوه «أخي»! حرق قلبي عليه وهو لا يزال في بطني، تعرف ماذا قال لي عندما واجهته بفعلته؟!

قال لي إن «عديمة نسب» مثلي لا تستحق أن يكون لها ابن من نسب الكرملاوي.. انتقمت منه حينها لكن، لم يشفِ غليلي، آه لو يمكنني فعل المزيد!

أعتذر يا حبيبي لو كان كلامي هذه المرة سوداويًّا، أنا فقط أمهدك لما ستلاقيه في هذا العالم، لكن اطمئن، أمك في ظهرك، لن تتخلى عنك أبدًا، قريبًا أحملك بين ذراعيّ، أشم رائحتك التي لا تشبهها رائحة، أصالح بك الدنيا كلها وأعفو بك عن كل من ظلمني، أنا راضية بك أنت وحدك عوضًا عن كل ما لاقيته، لكنني أخشى أن تحرمني منك ذنوبي!

أمك صابرينة

أو صبارة كما كانوا يدعونها وكما صدقت أنها قد تكون!».

الغصن التاسع

أنا التي نذرت عمري كي أنسج لك معطفًا يقيك البرد.. وأنت الذي أصررت أن تكون دومًا مجرد بقعة على معطفي أنا!

***

أنا الفائز

أنا آدم نعمان الكرملاوي.. لماذا يصر الجميع أن يهين ذكائي؟! لماذا لا يقدرون الفارق بين حجمهم وحجمي؟! عقولهم وعقلي؟! أغبياء!

لا. لا.. غباؤهم لا يضايقني بل على العكس يسليني! يشعرني أنني في لعبة مضمونٌ فيها الربح! أنا دومًا الفائز!

كلهم دُمى خيوطها في يدي! تيوليب التي كانت تظن أنها بزواجها بي قد نالت الدنيا وما فيها، نعمان الذي لا يزال يتخبط متأثرًا بخساراته وأعظمها أنا.. ابنه الوحيد، صابرينة التي تخطط لتنجب طفلًا من نعمان بأي طريقة، الحمقاء -عديمة النسب- تلك تظنني سأسمح لها أن تدنس نسب عائلتنا بطفلٍ منها، لم أسمح لسواها فكيف بها هي؟! كم أمقتها هي بالذات وقد عاقبني نعمان بإدخالها بيت الكرملاوي بل وغرفته هو التي كان قد حرمها على أمي! صبرًا.. صبرًا.. حسابي معها هي بالذات سيكون قاسيًا بقسوة شعوري وأنا أراها تحتل المكان الذي لم تكن تستحقه إلا أمي!

بانسيه، تلك المرعبة التي يخيفني صمتها بقدر نظراتها، المخادعة التي لا يعرف أحد لماذا تخفي عنا قدرتها على الحركة، هي تدبر للثأر من نعمان وأنا سأكون هدفها، أشعر بهذا منذ زمن بعيد لكنني صرت واثقًا بمخططاتها، صبرًا يا عمتي الغالية، سيكون عقابكِ أنت مختلفًا، لن أقسو عليكِ كثيرًا فأنا أتفهم غضبك المكبوت، ومن مثلي يشعر بكِ؟! لكنني سأنتزع أنيابك كي لا تكوني قادرة على إيذاء أحد.. أي أحد!

بقيت أرجوان! آه منك يا أرجوان آااه! نفد رصيدك عندي وهذا ما كنت أخشاه!

لم تنتهِ علاقة أرجوان بذاك الطبيب كما توقعت.. أنا رأيتهما معًا.. كانت بين ذراعيه.. العاهرة كانت تنظر إليه بنفس النظرة التي كانت تخصني بها! كانت عيناها تلمعان! اللمعة القديمة التي أسرتني يومًا والتي انطفأت رويدًا رويدًا كلما كنا نكبر معًا!

كانت تكذب عليّ! زعمت أنها أخرجته من حياتنا لكنه لا يزال يحوم حولها.. تظنني مغفلًا؟! لا..لا.. لقد صبرت كثيرًا وآن أوان الثأر!

طالما مجّدتُ وحدي إنجازاتي التي لم يصفق لها أحد.. لكن هذه الليلة سيصفق الجميع رغمًا عنهم!

لن أتوعد بانتقام فقد فاق الأمر كل هذا.. هذه المرة سأقتلهما معًا!

***

- سلامتك! ماذا بك؟!

تقولها بانسيه بقلق وهي تدفع كرسيها المتحرك تدخل بيت راوية التي ما كادت تلمحها حتى تهلل وجهها بحنان ناقض هتافها المستنكر بصوت مبحوح:

- أخاف عليكِ من العدوى.. ليتكِ ما جئتِ.

تنتهي جملتها بسعالها والتعب يبدو على محياها لتبتسم بانسيه وهي تتقدم بكرسيها أكثر قائلة بعاطفة ممتزجة بالقلق:

- أيعقل ألا أزورك؟! ماذا بك؟! أنا جئت فور ما سمعتهم يقولون إنك مريضة.

- تعرفين حساسيتي لتغير الفصول.. صدري ضاق فجأة.. يبدو أن صحتي لم تعد كالسابق.. لا شيء يجدي.

- لا تقولي هكذا.. أعرف واحدة ممتازة تحضِّر وصفات فعالة للسعال.. كل المدينة تقصدها للتعافي بالأعشاب الطبيعية.. اسمها «الست راوية».. نذهب إليها؟!

تقولها بمرح لتبتسم راوية وهي تقرص وجنتها بمودة فتتأوه بانسيه ضاحكة وهي تغلق باب البيت الداخلي لتقف على الأرض، تفرد ظهرها بارتياح وهي تعود به إلى الخلف، تتمطى ثم تفتح ذراعيها كأنها تعانق حرية مفقودة، تغمرها راوية بنظراتها الحنون وهي تراها تقترب منها لتدفعها نحو غرفتها بقولها: «تعالي.. استريحي في غرفتك»، ولم تكد تستقر جوارها على طرف الفراش، حتى مازحتها بقولها:

- «باب النجار مخلع»! الست راوية التي تعالج الجميع سقطت مريضة! أعرف وصفة رائعة ستمكنني من منافستك في المستقبل!

تضحك راوية وهي تراها تجدل لها شعرها في ضفيرة جوار رأسها باهتمامٍ حانٍ بينما تردف بنفس المرح:

- أمشط لك شعرك أولًا فأنا أعرف كم تحبينه مجدولًا.. وبعدها أعد لك وصفتي مع الحساء.. لن أرحل حتى أطمئن أنك تناولتِ طعامك ودواءك.

- لا تتعبي نفسك.

- تعبُكِ راحة.

- سلمتِ يا ابنتي.. لو كانت لدي ابنة لم أكن لأحبها مثلك.

- لا تدعيني ابنتي هذه.. تصغِّرينني أم تكبِّرين نفسك؟!

- تريدين الحق؟! أنتِ من تكبِّرين نفسك؟!

- أنا؟!

- نعم.. وتضيعين عمرك كذلك!

- هل سنعود للكلام في هذا الموضوع؟!

- لماذا تحبسين نفسك في الماضي يا حبيبتي؟! لماذا وقد تعافيتِ من كل آثاره؟!

- تظنينني تعافيت حقًّا؟! فقط لأنني صرت قادرة على الحركة؟! ماذا عن شلل روحي؟! هذا كيف أعالجه؟! ماذا عن نزيف الظلم في صدري؟! هذا كيف أوقِفه؟! ماذا عن كسور قلبي؟! هذه كيف أجبرها؟! ليت التعافي بهذه السهولة! ليته!

تتنهد راوية بحرقة وهي تضغط على كفها بمؤازرة فتبتسم بانسيه رغم كل شيء بينما تنحني لتقبل رأسها بمودة ثم تقول بنبرة عاد إليها بعض المرح:

- سأذهب لأعدّ الحساء.

تذهب إلى المطبخ الذي تحفظ تفاصيله، تدندن بأغنية ما وهي تشعر بسكينة غريبة لا تعرفها إلا هنا في هذا البيت، هنا فقط تتحرر من كل قيودها وتجرب أن تعيش دون أسرار أو خفايا، تضع القِدر على الموقد، تضيف بعض الأعشاب كما علمتها راوية في وصفة لعلاج السعال، تنتظر تمام إعدادها وهي تقترب من نافذة المطبخ التي تطل على حديقة البيت المزهرة، تأخذ نفسًا عميقًا وهي تملأ صدرها من كل هذا الجمال، تداعب شعرها القصير بشرود وهي تنظر إلى انعكاس صورتها في زجاج النافذة، كم تبدو لها صورتها غريبة عن تلك في بيت الكرملاوي! واقفة بصورة طبيعية، تتحرك بطبيعية، تتكلم بطبيعية، تبتسم دون تكلف، ربما في لحظة نادرة كهذه تتمنى لو يطول شعرها! لو ترتدي ثوبًا يظهر أنوثتها دون أن تخاف أن يكون المقابل جرحًا كبيرًا وظلمًا أكبر!

تهز رأسها كأنها تنفض عن ذهنها خاطرها الأخير وهي تنتبه لغليان السائل على الموقد فتتحرك لتطفئه، ينقبض قلبها بشعور غامض وهي تشعر فجأة أنها مراقبة!

تتحرك بحذر نحو النافذة تحاول تفقد الخارج لكنها لا ترى شيئًا فتعود لتسكب الحساء في طبق كبير تعود به إلى راوية التي اتسعت ابتسامتها وهي تعتدل مكانها في الفراش.

- وسِّع الطريق لـ «حساء الشفاء».. أحلى طبق يستأهل فمك.

ضحكة راوية تصاحبها نوبة أخرى من السعال تستجلب نظرة إشفاق قلقة من بانسيه التي تجلس لتطعمها الحساء بنفسها ثم

تعطيها دواءها الذي كتبه لها الطبيب قائلة باستياء مصطنع:

- ولو أني غير مقتنعة.. طوال عمري أرى وصفاتك فعالة أكثر.

لكن المرأة تقول:

- خبرتي بالأعشاب لا تنافس الطب بل تكمله.. والله الشافي على أي حال.

تضمها بانسيه بحنان يبدو وكأنه يتدفق منها بلا توقف، لتسألها راوية بحذر ودت لو خرجت معه نبرتها بريئة:

- غيث أخبرني بما كان بينك وبينه المرة الماضية.

- غيث؟! بيني وبينه؟!

وكأنها نسيت من هو أصلًا! تتسع عيناها بإدراك وهي تتذكر ذاك اليوم لتبتسم بارتباك وهي تحك أنفها كعادتها عندما تتوتر لتقول متلعثمة:

- تصدقينني لو قلت لك لا أذكر ما قلته له يومها؟! أنا ارتبكت عندما رأيت «...» وأنا خارجة من هنا.. كل ما حدث بعدها كان خارج حدود إدراكي.

تقولها ذاكرةً اسم حبيب طفولتها لتربت راوية على كفها قائلة:

- غيث ليس غريبًا.. هو مهتم بك كثيرًا من يومها.. يسألني عنك.

فتضحك بانسيه لتهتف بمرح:

- بالتأكيد ليس غريبًا.. ابنك في مقام ابني أنا الأخرى.. ربما لهذا

ارتحت له.

- مقام ابنك! ألم أقل لك إنك ستميتينني بحسرتي عليكِ! الرجل يصغرك فقط ببضع سنوات! إلى متى ستبقين تشعرين نفسك وكأنك عجوزا!

تتنهد بانسيه متعجبة مجرى الحديث لكنها تربت على كتف راوية تهادنها بقولها:

- طيب! لست عجوزًا.. هو كأخي الأصغر.. مرتاحة هكذا؟!

تغمض راوية عينيها بخيبة وهي تشعر بالحيرة، بانسيه وقعت في قلب ابنها موقعًا لا يخطئه قلب أم، هي نفسها صُدمت من الوضع! رغم ارتباطها العاطفي الشديد ببانسيه فلم تتصورها قط زوجة لابنها إلا عندما رأت نظرته إليها ذات اليوم! لكن بانسيه تبدو غافلة تمامًا عن هذا! صحيح أنها هي -راوية- تتوجس من فارق السن بينهما لكنها تعرف أن القلوب لا تعترف بهذه القيود! خاصة وهي خير من تشعر بـ «بانسيه» التي توقف عمرها عند حادثها القديم!

ينقذها النوم من أفكارها، ولم تكد بانسيه تطمئن عليها حتى رفعت عليها غطاءها برفق، تقبل جبينها بخفة وقلبها يدعو لها بالشفاء قبل أن تتحرك لتغادر البيت، لكنها تتوقف بحيرة أمام الباب المغلق حيث تركت كرسيها المتحرك.. فقد كانت تنتظرها مفاجأة!

***

- انظري ماذا أحضرت للأمير الصغير؟!

يهتف بها صفوان بنبرته المرحة فتتعلق عيناها بخصلات شعره الأمامية التي تتطاير مع هواء الحديقة حرة عابثة.. وجذابة.. مثله!

لم يكن آدم ليصفف شعره هكذا قط.. كان يثبته دومًا بـ «جيل الشعر»، وعندما كانت تعترض أن هذا قد يضره على المدى البعيد، كان يرد بحزمه المعهود: «لا أحب أن يخرج شيء عن سيطرتي.. حتى شعري.. أحبه ثابتًا على الوضع الذي اخترته له من البداية!».

يا الله! كبرت وهي تعشق هذه الرنة المسيطرة في صوته.. رغم أنه يماثلها سنًّا فهذه الهيمنة الذكورية التي افتقدتها في حياتها الهشة مع أمها جعلتها تهيم به حبًّا! أحبت كفه القوية وهو تمسك كفها ليعبر معها الطريق، لم تكن تعلم أن نفس الكف ستلتف يومًا حول عنقها!

- لم تعجبك؟!

يسألها صفوان بحذر متفحصًا ملامحها الشاردة لتتكلف ابتسامة باهتة وهي تشير برأسها لما يحمله: «طائرة ورقية! فكرة رائعة.. لكن تظنه سيحبها؟!».

- ولماذا نسأل؟! تعالي نجرب عمليًّا.

يهتف بها بنفس الحماس المرح وهو يركض نحو ناجي الذي قدم لتوه مع الخادمة، والذي ركض بدوره نحوه! تتسع ابتسامة أرجوان وهي ترى صغيرها يعانقه! معجزة أخرى ظنت أنها لن تتحقق أبدًا مع صعوبة التواصل العاطفي التي كان يشكو منها ناجي.. ولا يزال!

لم تكن وحدها من وخزها هذا العناق، بل هذا الذي كان واقفًا في

نافذة غرفته يراقبهم من هناك.. نعمان!

كم كان يود لو يكون أول عناق للصغير يخصه هو! لكنه كعهده يلجم كل مشاعره.. عاطفة الرجل تقدح في قوته.. هكذا علموه!

يرى من مكانه صفوان وهو يركض بالطائرة الورقية بألوانها الزاهية فيلحقه ناجي بضحكاته التي لم يسمعها من قبل بهذا الدويّ.. تدمع عيناه بتأثر فيغلق ستارة النافذة ثم يعطيها ظهره!

- الرياح هنا ليست كافية.. ما رأيك لو نصعد إلى السطح؟!

يقولها صفوان لاهثًا بين أنفاسه المتسارعة وهو يركض نحوها لتشحب ملامحها وهي تشهق هاتفة:

- لا.. السطح لا!

ينعقد حاجباه بتفحص وهو يحاول فهم تلعثمها بعدها:

- لا أحب الصعود هناك منذ ليلة عيد ميلاد ناجي السابق.. احتفلنا به هناك.. وبعدها...

- فهمت.

يقاطع بها قولها وهو يتذكر ما عرفه عما حدث تلك الليلة، كره أن يذكرها بهذا لهذا عاد يهتف بمرح مخاطبًا ناجي كأنه يفهمه:

- إذن نعاند نحن الرياح.. نزود نحن سرعتنا.. هيا.

ابتسامة كشمس صغيرة تشرق فوق ثغرها وهي تشعر أن عبارته تحمل ما يفوق معناها.. ماذا لو كان بإمكانها هي الأخرى أن تعاند

الرياح؟! أن تزود سرعتها كي تحلق؟!

ودون أن تشعر وجدت نفسها تتحرر لتركض هي الأخرى خلفهما، يدورون جميعًا في الحديقة حول بيت الكرملاوي الذي هُيئ إليها أن أشجاره تخلت عن غضبها للحظة، تفرد غصونها حولهم كأنها تصفق لهم، وإن بقيت عاجزة عن أن تظلل عاشقين!

***

- أين ذهب الكرسي؟! أنا تركته هنا!

تتمتم بها بدهشة متوجسة وهي تبحث حولها، ولما كان باب البيت مغلقًا وجدت حيرتها تتعاظم أكثر، تنظر بتردد نحو وجه راوية التي بدت لها من مكانها مستغرقة في النوم، تراها بدلت مكانه بينما كانت تطهو لها الحساء؟!

أشفقت عليها من أن توقظها فمضت تبحث في البيت كله، غرفتان توقفت أمامهما وقد خجلت من أن تفتحهما حتى مع غياب صاحبيهما.. صفوان وغيث!

كلاهما تشعر نحوه بالارتياح، وإن بدا لها الأول غامضًا كصندوق أسرار مقبض النقوش، لكن الثاني يبدو لها دافئًا قريبًا للقلب كأمه!

لهذا ترددت قليلًا قبل أن تحسم ترددها وهي تفتح غرفته.. لعل راوية نقلت كرسيها هنا!

الغرفة خالية منه تكاد تغلقها من جديد لكن شيئًا ما يستوقفها على مكتبه! واحدة من رسوماتها المصورة! قصصها التي ترسمها

لشخصيات كاريكاتيرية تسلي بها وحدتها! جاءت بها منذ أيام لتراها راوية -الشاهد الخفي على موهبتها- فكيف وصلت إلى مكتبه؟! يا للخجل! هل رآها؟! عرف توقيعها الذي تكتب فيه اسمها «بانسيه» تستبدل بـ «نقطة النون» زهرةً ثلاثية البتلات! لا ريب أنه قد فعل!

قلبها يخفق بحرج فتنفلت منها زفرة قصيرة وهي تحاول الهروب من خواطرها بالنظر حولها! رائحة عطره تملأ الغرفة، عطر شرقي ينتمي إلى عائلة العود، عطر زيتي ثقيل لا يوحي بما بدا لها من شخصيته المرحة ظاهرًا، لكن ألم تختبر بنفسها عمق حديثه معها؟!

محظوظة راوية بابنها! ربما لو كانت هي تزوجت في سن مناسب لكان لها ولد مثله!

تبًّا! لماذا تحصر نفسها دومًا في هذه الزاوية؟! هل هرمت فعلًا إلى هذا الحد؟! نظراتها تميل نحو مرآة الغرفة! عجبًا! كلتاهما تبدو صغيرة جدًّا! المرآة و.. هي! هي نفسها! ربما لهذا تقترب من المرآة أكثر.. تتحقق من ملامحها فيها.. طالما كانوا يقولون إن ملامحها طفولية لا توحي أبدًا بسنها.. لماذا لا تصدقهم أبدًا؟! من سواها يرى شيب شعرها؟! تهدُّل جفنيها؟! تجاعيد وجهها؟! أيعقل أنها هي وحدها من تراها؟!

أناملها تتلمس المرآة ببعض الرهبة الممتزجة بالدهشة، لاريب أن العيب في مرايا بيت الكرملاوي! صورتها في هذه المرأة تبدو أجمل!

- يومًا ما ستكون حديقة الكرملاوي كحديقتنا وأجمل.

- متى؟!

- عندما تقررين أن تعودي إلى الكلام.. عندما لا تهربين من «لا أحد» بل تكملين طريقك وتتجاوزين.. عندما تدركين أن «البانسيه» ليس رمز «التخلي» بل «الحكمة».

لا تدري من أين طفت الذكرى لذهنها بصوت غيث في لقائهما الأخير، وطفت معها ابتسامة.. ابتسامة بمذاق لم تعرفه منذ زمن بعيد.. الأمل!

كيف كان شكله؟! لم تقف أمامه لتقارن طوليهما لكنه يبدو أطول منها بعشرين سنتيمترًا على الأقل، له ضحكة راوية وذقنها المدبب وأنفها المستقيم الصغير، لكن عينيه السوداوين أكثر اتساعًا من عينيها، وحاجبيه أكثر كثافة، وعلى عكس صفوان الذي يطيل شعره قليلًا من الأمام بما يمنحه مظهرًا عابثًا، يحلق غيث شعره بمنتهى القصر لتبدو استدارة وجهه كاملة، كيف تتذكر شكله بهذه الدقة؟! نعم.. تمامًا كما هو الآن في المرآة جوارها...!

ماذا؟! ليس جوارها بل خلفها!

تشهق للمفاجأة وهي تلتفت إليه تهتف بينما تتجاوزه لتغادر الغرفة بسرعة:

- عفوًا.. كنت أبحث عن شيء ما ظننته هنا!

يبتسم كعهده كلما سمع صوتها المغناج بطبيعته! يومًا ما سيخبرها أنه كان يتعجب كيف تسحر حوريات البحر قلوب الرجال بغنائهن! الآن يكاد يقسم إنهن لو كن يملكن صوتها.. لكفى!

يلحق بها وقد توقفت بارتباك أمام الباب الداخلي المفتوح للبيت تحك أنفها بارتباك وقد عجزت عن الخروج ليقول بنبرة جادة:

- شكرًا لاهتمامك بأمي.. أخبريني عن ماذا تبحثين؟!

خجلها يلون وجنتيها ويزيد فتنة صوتها المرتبك:

- لا تشغل بالك.. عندما تستيقظ الست راوية أسألها.

- وهل تبقين واقفة هكذا حتى تستيقظ؟!

- مرتاحة هكذا.. لا تشغل بالك!

- أحضر لك كرسيًّا؟!

- تعرف أن مثلي ملّت الجلوس طوال الوقت! لا تشغل بالك!

- إذن.. تشربين شيئًا؟!

- شكرًا.. لا تشغل بالك.

يضحك لسبب لم تفهمه وهو يتجاوزها نحو سور الشرفة الداخلية التي تفصل البيت عن الحديقة، يقف أمام أصيص ياسمين صغير، كأنما يتحدث إلى زهوره:

- قل لي يا زهر الياسمين بما أنك ثرثار كما تزعم «الست راوية».. فتاة لها من اسمها نصيب.. زهرة وهي زهرة.. تمشي ولا تمشي.. تتكلم ولا تتكلم.. تحك أنفها بسبابتها عندما ترتبك فيحمر فورًا كثمرة فراولة طازجة.. آه.. وتختم كلامها غالبًا بـ «لا تشغل بالك» كأنه يمكن لمن يراها ألا ينشغل باله! عرفتها؟!

تكتم ضحكتها وهي تستند إلى باب البيت تكتف ساعديها، فيلتفت إليها ليمط شفتيه بقوله المرح:

- معه حق.. الفزورة صعبة.. نسهلها قليلًا!

يرتفع حاجباها بعفوية وهي تترقب ما يقول عندما عاود الالتفات نحو زهور الياسمين:

- تلبس كالرجال.. وتضحك كالأطفال.. وتبتئس كالعجائز.. وتسحر كالنساء.. أظنها هكذا صارت سهلة! لا أظن هناك امرأة مثلها!

تتصنع الغضب وهي تهتف به من مكانها:

- هل تسخر مني؟! أم تغازلني؟!

- وهل كلّمتك؟! أنا أكلم الياسمين؟!

تتأفف وهي تنظر من مكانها إلى غرفة راوية التي تراها لا تزال نائمة، بينما يردف ببراءة مصطنعة:

- أمي دومًا تقول إن الزهور تنمو أسرع كلما تحدثنا إليها.. أنا أعتني بزهوري.. أنتِ ما شأنك؟!

كان يريد استفزازها ليخرج هذا الجانب الحيوي منها والذي سمعه خلسة أول مرة رآها فيها.. والبعيد تمامًا عن قالبها الجامد الكئيب الذي تواجه الجميع به! وقد صدق ظنه!

- كيف تكلمني هكذا؟! إن لم تحترمني لأنني ضيفتك فاحترم سني، أنا بمقام والدتك!

- والدتي!

يرتفع حاجباه حتى يكادا يلتصقان بشعر رأسه! بينما سبابتها تحك أنفها من جديد عفويًا وهي تسمعه يردف:

- كيف بـ «مقام والدتي»؟! ألا تملكون مرايا في بيت الكرملاوي؟! يمكنني إقراضك واحدة من هنا لو تريدين!

المكر المشع في نظراته يذكرها بمشهدها في غرفته منذ قليل، يزداد خجلها الذي يتناسب طرديًا مع غضبها في هذه اللحظة وهي تهتف به:

- ارحل من هنا.

- عفوًا! يبدو أن هناك عطبًا في سمعي.. هل تطردينني من بيتي؟!

يقولها بمرح وهو يبسط راحته جوار أذنه فيزداد هتافها غيظًا:

- ارحل لأنه لا يمكنني أنا أن أفعل!

- لماذا؟!

تكز على أسنانها دون رد وهي تبحث بعينيها من جديد حولها عن كرسيها! أين أخفته راوية؟!

بينما يعود هو ليحدث الياسمين بقوله:

- تراها تبحث عن شيء ما ضاع منها؟! كرسيها مثلًا؟! من أخذه؟! ولماذا؟!

تشهق باستنكار والحقيقة تصلها لتهتف به:

- أنت أخذت كرسيَّ؟!

- أي كرسي؟!

ببراءة مصطنعة عبر حاجبين متراقصين يسألها لتهتف بنفاد صبر:

- تستهبل! هات كرسيَّ حالًا!

- اسألي الياسمين مثلي عن مكانه!

تزمجر مكانها غاضبة فيبتسم مغيظًا إياها:

- الزمجرة لا تليق بصوتك! تخرج منكِ كالغناء!

- ماذا جرى لك؟! كنت عاقلًا جدًّا المرة الماضية!

- كنت!

يهز بها كتفيه وهو مستمتع بردود فعلها أيما استمتاع! بينما تبدو وهي وكأنها توشك أن تشد شعرها غيظًا:

- سأوقظ «الست راوية»!

لكنه يتجاهل عبارتها ليشير إلى شعرها قائلًا:

- أرأيتِ؟! لو كنت تطيلينه قليلًا فحسب لتمكنتِ من شده في موقف كهذا! لهذا يطيل النساء شعورهن كي يتمكنَّ من شدها في مثل هذه الأوقات!

- أنا لا أمزح.. سأوقظ الست راوية.

- وتهون عليكِ المريضة المرهَقة؟! ثم ماذا ستقولين لها؟! تشكين

لها ابنها الشقي فتشد أذنه! هل سيعيد هذا إليكِ كرسيك؟! ماذا لو جاء أحد لزيارة أمي الآن ودخل ليراكِ واقفة على قدميكِ بأتم صحة «ما شاء الله»! أوه! سينتشر الخبر في أقل من ساعة وسيعرف الجميع.

كان يقصد المزاح لكن الدموع الحقيقية التي تجمعت في عينيها تجبره على التراجع، صمت قصير يلفهما قبل أن يختفي عن ناظريها قليلًا ليعود ومعه كرسيها، يدفعه إليها لتستقر فوقه دون أن تنظر إليه!

- آسف.

تسمعها من خلفها لكنها لا تتوقف وكم ودت لو فعلت! لم تجرِ هكذا حديثًا مع أحدهم منذ وقت طويل! تعترف أنها أحبت مشاكسته ولو أغاظتها!

- بصراحة.. أردت أن أراكِ وأنت تمشين كما سمعتك تتكلمين.. ولا تسأليني عن السبب!

ودون أن تلتفت سمعت عبارته بأذن خذلان سكن روحها لتقول بمرارة ساخرة:

- أتفهَّم هذا! كنت تريد رؤية «كسيحة بيت الكرملاوي» المثيرة للشفقة كيف صار حالها!

يغمض عينيه بوجع يشبه وجعها في هذه اللحظة، كيف يخبرها أنه لم يتعمد إخفاء كرسيها أول الأمر.. عندما أتى منذ قليل ورآه هناك

أمام باب البيت المغلق من الداخل تراجع فورًا وقد فهم أنها هناك، كاد يغادر البيت كله لكن قوة قاهرة بصدره جعلته يدور حول البيت حيث نافذة المطبخ المفتوحة، هناك حيث وقف متلصصًا ليراها مفتونًا بكل حركاتها! هل ظنت الغافلة أنها تخفي أنوثتها خلف ثياب قبيحة وشعر قصير؟! كل ما فيها فتنة! أصابعها المنمنمة وهي تشعل الموقد، حركاتها الرشيقة وهي تدور في المطبخ، ضمة شفتيها وهما تتذوقان بحذر ما كانت تعده، وأخيرًا صوتها! آه من صوتها وهي تدندن! صوتٌ كهذا كيف تخفيه خلف أسوار خرس تدَّعيه!

ربما لهذا لم يفكر وهو يعود إلى البيت خلسةً ليسحب كرسيها ويخفيه بعيدًا.. أرادها أن تعيش بصورة طبيعية معه لمزيدٍ من الوقت فقط!

- لم تشغلني كثيرًا حكاية «كسيحة بيت الكرملاوي» كما تدعين نفسك.. أعني أنني سمعت بعضهم يتكلم عنك بطبيعة الحال لكنني لم أهتم.. بل إنني رأيتك هنا مرة أو مرتين تزورين أمي.. كنت تطرقين ببصرك فأعطيكِ ظهري.. لماذا تظنينني أشفق عليكِ؟! الحياة مليئة بأناس عديدين ظروفهم أصعب منكِ أرى مثلهم الكثير في عملي.. أظنني أعرف الفارق بين الشفقة و.. شيء آخر! شيء دفعني لأراك تسيرين وتتكلمين.. تعيشين حرة ولو لدقائق إضافية من قيدك.. قيدك الذي أجبروكِ عليه قسرًا حتى رضيتِ به! شيء يجعلني أراكِ بصورة أخرى وليتك ترينها مثلي!

هذه المرة تلتفت بعد عبارته وكأنها أرادت رؤية عينيه بينما يقولها!

لن تسأله عما يعنيه! كما لن تسأل عن رسومها المصورة التي وجدتها مصادفة على مكتبه! بالطبع لن تسأله! بعض الأبواب خيرها ألا تُفتح.. بل ألا تُطرَق حتى! لا تُطرق أبدًا!

وبهذا اليقين استدارت برأسها من جديد لتغادر بيت راوية تقسم إنها لن تعود لزيارتها ما دام هو هنا! يعني! هذا القسم الذي يبحث المرء عن كفارته فورًا لأنه يعلم أنه لا بد سيحنث به!

***

-تخونينني إذن؟! عشقتِ من جديد؟! صدقت شكوكي فيكِ! وصدق نعمان في كل ما كان يحكيه لي عنكِ؟! تربية «واحدة ست!».. لكن لا.. لن أتركك تتنعمين...

تكتم أرجوان صرختها وهي تحاول دفعه بعيدًا لكن قبضته تزداد اعتصارًا لعنقها وهو يلصقها بالحائط خلفها، نفس الحائط الذي علقت عليه صورة زفافهما في إطار مذهب ضخم يكاد طرفه الآن ينغرس في رأسها مع دَفعاته، بينما يردف:

-لا تخافي.. لن أقتلك الآن.. سأنتظر حتى أذبح صفوان هذا أمامك.. هو في الطريق إلى هنا.. أعدك أن تلون دماؤه جسدك قبل أن تلحقي به.

تتحشرج أنفاسها وهي ترمقه بنظرة راجية متألمة عاجزة عن النطق، ليخف ضغط كفيه على عنقها، الغضب في عينيه يتحول إلى ألم، دموع حقيقية تفيض فيهما، تناديها عبر كلماته:

- لماذا فعلتِ بنا هذا؟! كل مرة تفعلين بنا هذا! كل مرة تطعنينني في ظهري، تتخلين عنا وأنتِ تعلمين مكانتك عندي! أنتِ لست زوجة ولا حبيبة.. أنت عمري كله.. صرخاتي وضحكاتي ورغباتي وأحلامي وآلامي ومخاوفي.. أنت تاريخي كله منذ طفولتنا! نعم.. أعترف أنه قد دخلت حياتي امرأة بعدك.. لكن هل كانت هذه خيانة؟! لا.. ألف لا.. مهما قلنا غير ذلك.. أنا وحدي أعلم.. هي فقط مجرد عابرة سبيل وأنتِ البيت والمأوى.. لم أخنكِ.. لم أسلم قلبي لأخرى لكن أنتِ فعلتِ!

تحاول تخليص نفسها من قبضتيه لكنها تعجز وما زال إطار اللوحة يخدش رأسها، تشعر بخيط الدم يسيل من رأسها لعنقها لكنه لا يراه ولا يزال ألم قلبه يشق صدريهما معًا:

- لن ترحلي عني أبدًا.. تعرفين هذا! تعرفينه كما أعرفه.. أنا ربيت قلبك منذ كان طفلًا فكيف الآن أتركه لغريب؟! حتى لو أذنبت -ولو أنني لم أذنب- هل هذا مبرر لأن تذنبي أنتِ؟!

- اتركني يا آدم! اتركني كي لا أصرخ ويسمعنا أحدهم.. اتركني وأعدك أن...

أخيرًا تجد صوتها المبحوح لكنه لا يمهلها الفرصة وهو يقاطعها بصراخه:

- من سيسمعك؟! هه؟! منذ متى يسمعك أحد غيري؟! منذ متى تبكين على صدر سواي؟! بماذا ستعدينني؟! كل مرة تخلفين وعدك لكن هذه المرة هي الأخيرة!

- أرجوك يا آدم.. لا تفكر فيّ ولا في نفسك.. فكر في ناجي.

- ومن قال لك إني لم أفكر فيه؟! هي ستعتني به!

- من هي؟!

تلتفت حيث أشار بعينيه لتجد تيوليب بنظرتها الواثقة التي تعرف ماذا تريد، تفتح باب الغرفة وقد حملت ناجي النائم بين ذراعيها، ناجي! ماذا لو استيقظ ورآها هكذا؟! بل ماذا لو هربت به تيوليب؟! لو ينفذ آدم تهديده؟!

- جاء صفوان.

تهمس بها تيوليب بحذر وهي تنظر إلى الرواق خلفها فيشير إليها آدم أن تنصرف، تتسع عينا أرجوان برعب وهي ترى تيوليب تذهب مع ناجي، صفوان يدخل الغرفة بتحفز كأنه يعرف ما ينتظره، لكن آدم يباغته بلكمة في فكه، قبل أن يلتمع النصل الحاد في يده وهو يجهز عليه...

- لا!

تصرخ بها أرجوان وهي تنتفض على فراشها وجسدها كله يتصبب عرقًا! كابوس!

- ناجي! صفوان! كابوس.. ليس حقيقة.. كلاهما بخير.. كلنا بخير.

تغادر فراشها بخطوات مرتجفة، بالكاد تستطيع الوقوف على ساقين مرتعدتين، تتعثر بضع مرات في خطواتها الراكضة نحو غرفة ناجي، ولم تكد تراه مستقرًا بين أغطيته حتى تغلق باب غرفته من

الخارج لتسقط بظهرها عليه مستسلمة لسيل دموعها.

كيف بدا حقيقيًّا إلى هذا الحد؟! قلبها ينقبض حد الاختناق وهي تشعر أن هذه الليلة ستكون مختلفة.. ستحمل لها شيئًا ما!

ترفع عينيها إلى الأعلى بدعاء خافت وقبضتها تكاد تعتصر قماش ثوبها، تنهض بتثاقل لتتوجه نحو غرفتها، تتناول هاتفها لتستخرج رقمًا بعينه.. آدم!

سبابتها ترتجف أمام زر الاتصال لكنها تفعلها أخيرًا...

رنين طويل دون ردا

تنفلت منها آهة متوجعة وهي تلقي الهاتف جانبًا! خطواتها الخائفة تحملها نحو صورة زفافهما التي لا تزال على الجدار، تتفقد طرفها كأنها تتوقع أن تجد عليه بقايا دمائها.. تبًّا! لماذا هذا الكابوس الآن؟! شيء ما سيحدث!

تكتف ساعديها كأنها تحتضن ما بقي منها! تدور في الغرفة كطريدة بائسة أسيرة تعرف مصيرها.. صوت إشعار من هاتفها! تهرع إليه لتلتقطه، تنظر فيه بعينين زائغتين ثم تلقيه جانبًا! يجب أن تذهب إلى البئر القديمة الآن! الآن؟! ماذا يحدث؟! بل ماذا سيحدث؟! قلبها يخفق بقوة كأنه يوشك على الانفجار! لن تذهب! لن تطيع هذه المرة! لكن خوفها يغلبها في النهاية كعهدها فتبدل ثيابها لتغادر الغرفة بحذر مخافة أن يستيقظ أحدهم.. كي تأخذ طريقها نحو البئر.. ولا تزال تشعر أن هذه الليلة لن تمضي كسابقاتها!

***

البدر مكتمل! تأخذ نفسًا عميقًا وهي تنقل بصرها بين السماء والبئر التي تناديها ككل مرة.. تجلس على الأرض تتحسس صخور حافته البارزة والهوة السوداء داخله لا تبدو لها مظلمة بل غامضة مبهمة كدواخل نفسها الآن...

عمود إنارة قريب يلتف حوله بعض الفراشات التي غرَّها نوره فاقتربت لتحترق! تذكرها بحالها فتدمع عيناها وهي تتلفت حولها تبحث عن آدم...

خيالٌ يقترب يشق الظلمة بخطواته البطيئة فلا يبدو وجهه أول وهلة.. تتجمد ملامحها برعب وما زال الكابوس البشع يسيطر على جوارحها.. آدم جاء.. لماذا يسير ببطء هكذا؟!

لكنها ما كادت تتبين ملامح القادم حتى أجهشت في بكاء عنيف وهي تخفي وجهها بين كفيها...

- أرجوان! لماذا أنتِ هنا في هذه الساعة؟!

- بل لماذا أنت هنا؟! ارحل.. ارحل ولا تأتي هنا أبدًا.. أبدًا.

تصرخ بها بين دموعها وهي تحاول الوقوف لكنها تترنح فتتلقفها ذراعاه وهو يحدق في ملامحها بقلق:

- ماذا يحدث معك؟!

- لا شأن لك.. امشِ من هنا الآن.. هذا المكان لا تخطوه قدمك مرة أخرى.

تقولها وهي تتلفت حولها بذعر، تدفعه بما استطاعت من عنف، فيهتف صفوان بحدة فجّرها خوفه عليها:

- كيف أتركك وحدك هنا في هذا الوقت؟!

- لست وحدي.. افهم.. لست وحدي.

ينعقد حاجباه وهو يشعر بالخوف يخنق ملامحها، يتلفت حوله باحثًا بدوره ليسألها بحيرة:

- تنتظرين أحدًا؟!

رغمًا عنها تجد نفسها تهز رأسها نفيًا وهي تراقب الطريق الذي بدا لها خاليًا، لتتمتم برجاء:

- أرجوك ارحل الآن.. أرجوك.

يتفحصها لدقيقة كاملة وعقله يعمل في كل اتجاه، ليتخذ قراره أخيرًا وهو يجلس على الأرض أمام البئر يقول بحزم:

- لا! أيًا كان ما تنتظرينه أو من تنتظرينه ما دام يخيفك هكذا فلنواجهه معًا.

تغمره برجاءاتها من جديد وهي تشعر بقلبها يكاد يتوقف من فرط الرعب، لكنه يحتوي كفها بين قبضتيه، يجذبها ليجبرها على الجلوس جواره، يحيط وجنتها بكفه ليهمس أمام عينيها بنبرته القوية التي يهيأ لها أنها تحمل حنان الدنيا كله:

- ما الذي يخيفك هكذا؟!

يختفي الكون كله في لحظات! وكأنما هام قلبها في هدنة قصيرة من كل ما تنتظره! عيناها تسقطان في عينيه كصغير متعب تتلقفه ذراعا أمه! «لديه عينان تنفذان إلى روحك.. كأنه يمكنه تعريتك بنظرة واحدة!»، قالتها لها عنه صابرينة ذات يوم وكم كانت صادقة! لكنه معها هي كان يمتلك لها مزية إضافية.. إن كان يعريها بنظرة بواحدة، فهو يدفئها بالتي تليها.. يعانقها بالتي تليها.. ثم يلبسها ثوبًا من أمان لم تعرفه هكذا منذ زمن بعيد!

تفيق من سكرتها بعد ثوانٍ لتنتزع نفسها بعيدًا عنه وتتلفت حولها بترقب بينما يزفر هو يائسًا من استجابتها، يتلفت حوله ليجد زهرة حمراء ملقاة جوار البئر يناولها لها قائلًا بابتسامة وهو يهز كتفيه:

- ليس مخططًا.. لكنه القدر يضع في يدي الهدايا دومًا.

يغمزها غمزة مرحة وهو يضع الزهرة قسرًا في كفها لتبدو لها ملامحه تحت ضوء القمر أوسم كثيرًا مما تتخيل، خاصة وهو يقف ليوقفها معه مردفًا:

- يبدو أن أحدهم نسيها هنا وقد كان يخطط لإلقائها في البئر حسب الأسطورة.. البدر مكتمل هذه الليلة.

- من أين عرفت عن أسطورة مدينتنا؟!

«عيب يا لذيذ.. هو أنا تلميذ؟!»، مع غمزته الماكرة تنتزع منها ابتسامة واهنة تشبهها بدت غريبة وسط هذا الجو المشحون، لكنها تنتبه لنفسها فتدفعه بسرعة تعيد رجاءاتها له بالرحيل، لكن.. يا للمفارقة!

تتعثر في بعض الحصى لتسقط منها الزهرة دون قصد في البئر، تلاحقها نظراتها المندهشة، لم تتعمد فِعلها هذه المرة!

- تتمنين أمنية؟!

همسه الدافئ كتعويذة ساحرة تجبرها على النظر إليه من جديد، هل يمكنها حقًّا فعلها؟! ألا يزال العمر يسمح بأمنيات خاطئة؟!

يتناول كفها بين راحتيه، هذه المرة لا يزعجه وشم الزهرة على ظاهر كفها وقد تأكد أنها ليست المعنية بجرح قلبه، بينما ترتجف شفتاها وهي تشعر أنها فقدت كل طاقتها حتى إنها عندما همت بقولها من جديد «ارحل» وجدتها تخرج منها رغمًا عنها «لا تتركني».

ابتسامته تتسع بما يشبه الوعد، يهمُّ بقول شيء ما لكن يقطعه صوت إطلاق رصاصة اخترق دويُّه سمعهما معًا.. المزيد من صوت الرصاص يختلط بصرخاتها قبل أن تسقط مكانها...

الغصن العاشر

أنا التي يكفيها كي ترسم بستانًا وردة! كي ترسم سماءً نجمة! لكن الحب عقيدة الطامعين لا يعتنقه زاهدا! إن لم تفِض به آبارنا فالموت عطشًا أكرم!

***

أنا القتيل

«هذه المرة لن تسمع التسجيل الصوتي بصوت آدم نعمان الكرملاوي مثل كل المرات السابقة! بل بصوتي أنا.. قاتِلُه! صوتي الذي غيرته -بالطبع- بتقنية معينة كي لا يمكن لأي مستمع أن يتعرف إليَّ!

هذه المرة سأكمل أنا نهاية اعترافات آدم التي لم يكملها، لم يكن آدم ليترك شيئًا ما يخصه ناقصًا لكن يصعب كثيرًا على المرء أن يتكلم وهو ميت كما تعلمون، لهذا سأتولى أنا -إكرامًا له- إكمال قصته!

هل سيجد أحدهم هذه التسجيلات الصوتية يومًا؟! أنا أخفيتها في جذع شجرة «الدلب» التي جعل على غصونها أرجوحة لـ «أرجوان».. من كان يعلم أن الأرجوحة ستصير مشنقة؟!

من أنا؟! وددت لو أصرخ بأعلى صوت باسمي.. أن أخبر الجميع أنني أخذت ثأري من ذاك الوغد.. ربما لهذا قمت بترك هذا التسجيل مع ما تركه من تسجيلاته.. وأخفيت منها ما أريد إخفاءه».

يوقف صفوان تشغيل التسجيل الصوتي ليأخذ نفسًا عميقًا وهو يحاول تمالك نفسه.. بينما يسمع أرجوان تهتف خلفه بصوت مذعور:

- آدم.. مات مقتولًا! معقول؟! كلنا رأيناه ميتًا على السطح ليلة عيد ميلاد ناجي لكننا لم نظن قط أنه قد قُتل.. الطبيب وقتها قال إنها سكتة قلبية.

يلتفت إليها يتفحص ملامحها الشاحبة وقد استلقت على فراش راوية ببيت الأخيرة التي تربت على كتفها الآن مهدئة تهتف بقلق:

- اهدئي يا ابنتي! أنتِ أفقتِ لتوك من إغماءتك.. أحسن صفوان صنعًا عندما نادانا لنحضرك إلى هنا.. نعمان كان ليقلب الدنيا لو عرف أنكما كنتما معًا هناك في تلك الساعة.

- هل رآنا أحدهم؟!

تهتف أرجوان بنفس النبرة المذعورة لتهز راوية رأسها نفيًا مطمئنة قبل أن تسألها بتوجس:

- ماذا حدث عند البئر؟!

يتنهد صفوان وهو يقترب، يتبادل مع غيث الذي وقف متحفزًا نظرة ذات مغزى ثم يجلس على الكرسي جوار الفراش، يعتقل عينَي أرجوان بنظراته النافذة، يجيب راوية أولًا:

- كان مجرد إطلاق نار في حفل زفاف قريب وجعلته عزلة المكان يبدو مدويًا، لكن يبدو أن أرجوان كانت متعبة قبلها فلم تحتمل.. سقطت مغشيًا عليها.

تهرب أرجوان بعينيها من نظراته وهي تود لو تخبره أنها لا تبالغ! أنها لا تزال ترى طيف آدم رغم يقينها أنه مات! تخونها دموعها مع عجزها لتهتف بنشيج خافت:

- رأيت كابوسًا فظيعًا قبل ذهابي إلى البئر.. ربما لهذا لم أحتمل المزيد من الضغط.

- ماذا رأيتِ؟!

تتردد قليلًا وهي تغطي وجهها بكفيها كأنها تحمي نفسها:

- آدم.. كان يريد قتلك.. بل قتلنا معًا.. تيوليب.. كانت تأخذ ناجي.

- ولماذا ذهبتِ إلى البئر في تلك الساعة؟!

يرتعد جسدها وهي تحاول البحث عن كلمات، لتصرخ أخيرًا ولا تزال تغطي وجهها بكفيها:

- لا يمكنني التفسير.

يتبادلون جميعًا نظرات مشفقة لا تراها، لكنها تشعر بكف صفوان تعانق كفها تزيحها عن وجهها كأنما يمنعها المزيد من الهروب.. كلماته محايدة لا تحمل عاطفة بقدر ما تحمل تفهمًا:

- أنتِ تتخيلين رؤية آدم هناك.

- كيف عرفت؟!

دموعها تحول بينها وبين رؤيته ليزداد ضغط كفه الخفيف على كفها بينما يجيب:

- ذلك اليوم الذي كنت أصافحك فيه أمام بيت الكرملاوي، نظراتك تسمرت نحو البئر بشكل غريب، ولما كنت أعرف أن قصتك مع آدم بدأت هناك خمنت ما كان يدور ببالك، تأكد ظني بعدها في كل مرة نكون فيها في الحديقة، تتلمسين قلادة عنقك، دبلة إصبعك، نفس النظرة المذعورة عبر الباب نحو البئر، لهذا عندما مررت الليلة

مصادفة ورأيتك هناك لم أتعجب كثيرًا.. لم يكن من الصعب تخمين ما يجعلك تذهبين هناك في ساعة كهذه.

ولأول مرة تشعر أنها تضيق بذكائه المعهود، تضيق به وهو يعريها أمامهم بهذا الضعف، تجول عيناها بين وجوههم كأنها تحاول قراءة ما يظنونه بها، لتهتف بين دموعها:

- لست مختلة.. لست مجنونة...

لكنه يقاطعها وكفه الأخرى تضم راحتها كأنه يحيطها من كل اتجاه:

- لهذا السبب بالضبط.. أردتكِ أن تسمعي هذا التسجيل الأخير الآن.. ليس وحده.. بل سأجعلك تسمعين كل ما سبقه من تسجيلات آدم.. اعترافاته بصوته.

- كيف حصلت عليها يا ابني؟!

تسأله راوية بدهشة ليرد وعيناه لا تحيدان عن عينَي أرجوان، يقرأ كل انفعالاتها:

- وجدتها مصادفة مخفية في جذع الشجرة.

- ولماذا لم تخبرني من وقتها؟!

تسأله أرجوان ببعض الاتهام ليرد بحزم:

- لأنني أريد الحقيقة.. ربما ليست هذه بالضبط هي الحقيقة التي أريدها فلا يعنيني كثيرًا موت آدم ولا من قتله...

يشعر بارتياح ملامحها نسبيًا مع عبارته الأخيرة لكنه يتجاهل هذا

وهو يردف:

- ما يهمني هو حقيقة الحادث الذي مرت عليه ست سنوات...

- أي حادث؟!

تسأل أرجوان باستغراب فيتبادل غيث وراوية نظرات مشفقة، بينما يتردد صفوان وهو يعانق ملامحها بعينيه.. هل من الصواب أن يخبرها الآن؟! وهي بكل هذا التشتت والوهن؟!

إبهامه يمسد خفيةً وشم الزهرة على ظاهر كفها فتتلون ملامحها بمشاعر شتى وهي تود الصراخ به: «احملني واهرب بي من كل هذا»، لكنها تدرك أن الحمل على ظهرها أثقل من أن يمكنها أو يمكنه هو حمله!

كفها الحرة تتوق لتلحق بصاحبتها بين راحتيه، لكنها تبقى مثلها ساكنةً مكانها!

يشعر صفوان بكل هذه الفوضى داخلها فيتجاهل سؤالها الأخير مؤقتًا، يترك كفها لتتحرك نحو خزانته حيث احتفظ بتسجيلات آدم كلها.. يستخرج منها أحدها.. ذاك الذي بدأ بـ:

«أنا الخائن»...

ينبعث صوت آدم فتنكمش أرجوان على نفسها أول وهلة بهلع يثير شفقتهم جميعًا عدا صفوان الذي كانت شفقته تمتزج بغضبه و.. شكه! شك لا يريد الإفصاح عنه الآن.. ويا ويله لو تأكد!

«أنا آدم نعمان الكرملاوي! صرت خائنًا! تزوجت تيوليب! لم يجرِ

بخلدي قط أن أفعلها! لكنه كان السبيل الوحيد لمنع نعمان من فعلها!».

المزيد من اعترافاته الصوتية.. يقابله جفاف دموع أرجوان.. كأنما كل كلمة تسمعها من هذا التسجيل بالذات ترفع عن قلبها حجرًا.. لكن تغرس نصلًا!

حتى إذا ما وصل إلى قوله «لن تشعر بشيء».. كان يكررها.. يكررها كثيرًا كأنه يريد تصديقها! الأحمق! وهل يغفل قلب كقلبها عن شعور كهذا؟! ربما كذَّبته وقتها! لكنه لم يكن يومًا منها ببعيد!

- ربما لو كنت سمعت هذا قبل سؤالك ما كنت احتجت إلى معرفة أن غايتي في تيوليب.. هي صاحبة الحادث القديم الذي أقصده.

يخاطب بها صفوان راوية وهو يوقف التسجيل الصوتي، قبل أن يلتفت إلى أرجوان التي بدت غافلة عما يقصده وقد شعت ملامحها كلها بالصدمة، بالذهول، بالقهر، وبالوجع! ذاك الوجع الخام الذي لا تشوبه شائبة!

يبحث في عينيها عن الحقيقة بينما صوته يتأرجح بين إشفاق وفضول:

- آدم كان قد تزوج تيوليب من ست سنوات تقريبًا.. من الواضح أنها اختفت بعدها من حياتكم.. ماذا حدث حتى عادت لتسكن بيت الكرملاوي بعد موت آدم؟!

- أنا أحضرتها.

الصوت الصارم لنعمان يلقي غلالته القاتمة على المكان فجأة! يزداد انكماش أرجوان على نفسها وهي تتوقع غضبه من وجودها هنا في هذه الساعة فتهتف برجاء:

- سأشرح لك الوضع يا سيد نعمان.. أنا كنت...

لكنه يوقفها بإشارة من كفه وعيناه القويتان تنكسران بوهن غير معهود، جفناه يتهدلان كأنهما يزنان أطلالًا بينما نظراته تتعلق بالجهاز الذي كان ينبعث منه صوت آدم.. ليخرج صوته أخيرًا:

- أنا سمعت كل شيء.

***

- صدق حدسي إذن.. ابني مات مقتولًا.

بين غضب هادر وحزن كسير يتمتم بها نعمان وهو يناظر وجه صفوان الذي يتبادل مع غيث نظرة ذات مغزى قبل أن يقول بنبرة واثقة:

- أظن هذا سبب موافقتك السريعة على دخولي بيت الكرملاوي.. كنت تشك في أرجوان.. ظننتها على علاقة بي ولهذا قتلت آدم.. كنت تريد مراقبتنا عن قرب.. لكن المراقبة لم تسفر عن شيء كما يبدو.

تشتعل عينا نعمان بتحدٍّ وكأنه كره أن يقرأ صفوان أفكاره إلى هذه الدرجة، خاصة والأخير يردف بنفس اليقين:

- وأظن هذا سبب إدخالك تيوليب هي الأخرى لبيت الكرملاوي.. كنت تشك فيها هي الأخرى.. خاصة أن آدم قد قُتل بعد عودتها إلى

المدينة ببضعة أشهر وقد كانت مختفية منذ وقت الحادث القديم.. لهذا لا أستبعد أن تكون أنت من حرقت بيتها.. كي تجبرها على العودة إلى بيتك ومصنعك.

- تلك الساقطة خدعت آدم.. لم تكن تريد سوى المال.. في البداية سعت خلفي.. ثم وجدت فيه هو البديل الأفضل!

يتمتم بها نعمان بحقد ليطلق صفوان صوتًا ساخرًا وهو يبحث عن تسجيل صوتي ما.. يقوم بتشغيله الآن لينطلق صوت آدم من جديد:

«ما الذي يدبره نعمان مع تلك المرأة التي دخلت حياته مؤخرًا؟! ولماذا أشعر أنها مختلفة؟! بل إنها ستغير حياتنا كلها؟! ترى لأنها تعجبني أنا الآخر؟!

ضحكة منتشية تملأني مع الخاطر الأخير.. إنها المرة الأولى التي يتفق فيها ذوقي مع نعمان! كم سيكون رائعًا لو أدخل معه السباق هذه المرة لأرى من منا يفوز.. لا أبالغ لو قلت إنني سأستعين بكل أسلحتي فقط لأذيقه مرارة الهزيمة.. أرجوان؟! ماذا عنها؟! وما دخل علاقتي بأي امرأة بها هي؟! أي امرأة تلك التي قد تُقارن بها أو تقارب مكانتها في قلبي؟! أغضب عليها أحيانًا.. أثور عليها أخرى.. لكنني أعترف دومًا أنني لا أخرج منها إلا لأدخل إليها.. أما هذه «الوافدة الجديدة» فهي ستكون وخزتي لكتف نعمان لعله يلتفت إليَّ.. لعله يشعر كم آذاني ولا يزال.. فلأبقَ أنا متربصًا خلف جداري حتى يحين الوقت.. ساعتها سأخطو خطوتي الفاصلة التي ستقلب الأوضاع كلها!».

يوقِف صفوان التسجيل الصوتي ليلتفت نحو نعمان الذي احترقت ملامحه تمامًا بقوله:

- أظنك هكذا تعرف أن ابنك هو من سعى خلفها وليس العكس.. ولكن.. لأكون عادلًا.. هذا لا ينفي احتمال أن تكون هي قاتلة آدم حقًّا!

- فقط لو أعثر عليها! تلك اللعينة اختفت منذ أول أمس! سأقتلها تلك الـ...!

يتبعها نعمان بسبة بذيئة وهو يقفز من مكانه كمن لدغه عقرب لكن صفوان يوقفه بقبضته على ساعده وهو يهتف بحزم:

- ليس بعد.. ليس قبل أن تسمع بقية تسجيلات آدم.. لكن أولًا اتصل بزوجتك وشقيقتك واطلب منهما الحضور.. سيكون جيدًا جدًّا أن نراقب معًا ملامح الجميع بينما نسمع معًا...

يرمقه نعمان بنظرة غامضة مرتابة للحظة وكأنه كره أن يملي أحدهم الأوامر عليه، لكنه يتناول هاتفه أخيرًا ليطلب من صابرينة وبانسيه الحضور الآن.

ترمقه راوية بنظرة طويلة متعجبة كأنما تدهشها تصاريف الأمور.. يبقى بيت الكرملاوي حاضنًا لأسراره التي يشاء القدر أن تنكشف في بيتها هي!

بينما يتوجه صفوان نحو النافذة يفتحها منتظرًا قدوم زهرتين أخريين من زهور الكرملاوي.. زهور لم يروِها الغيث فلم يبقَ منها سوى الشوك!

منذ وجد هذه التسجيلات الصوتية مخفيةً في جذع الشجرة ذاك اليوم في بيت الكرملاوي وهو يسمعها تباعًا بصوت آدم.. كانت المرة الأولى التي يستمع فيها لاعترافات رجل ميت.. وأي ميت؟! آدم الذي كان يبدأ تسجيلاته كلها بذكر اسمه كاملًا مما أكد ظنونه هو بطبيعته النرجسية.. لكن صدمته أن آدم لم يمت ميتة طبيعية كما كان يعرف قبل دخوله بيت الكرملاوي، بل ها هو ذا قاتله يعترف! بل قاتلته!

من عساها تكون؟! من؟!

أرجوان؟! أرجوان التي لا تزال ترتدي الأسود، بل ودبلة آدم في إصبعها منذ أول يوم رآها فيه؟! التي رفضت حبه هو زاعمةً أنها لا تزال تحب آدم؟! ولمَ لا؟! ألم ير بنفسه حالها عندما كانت تنظر إلى البئر القديمة التي عرف رمزيتها في علاقتها بآدم عندما كان يجمع المعلومات عنها قبل قراره بدخول بيت الكرملاوي؟! كانت مذعورة عندما أطال مصافحتها يومها أمام البئر وكأنها ترى آدم أمامها!

لا.. لا.. لا تكون أرجوان.. طبيعتها الخنوعة المستسلمة لا تؤهلها لفعل كهذا! لكن.. ألا يحتمل أن تكون مخادعة للجميع بواجهتها هذه؟!

لماذا كان آدم يصفها بالخائنة؟! ما حكاية خلخال قدمها الذي رأى بنفسه أثره وارتبكت هي عندما سألها عنه؟! وما حكاية «الطبيب» الذي زعم آدم أنها كانت على علاقة به؟! ماذا حدث بعدما توعدهما بالقتل؟! هل قتل الطبيب حقًّا وسامحها هي كما قال إنه يفعل كل مرة؟!

رأسه يكاد ينفجر! زفرة مشتعلة يطلقها وقبضته تكاد تجعد قميصه من فرط ضغطه على موضع قلبه الذي ينبض الآن بعنف.. من قاتلة آدم؟! من؟!

صابرينة؟! ماذا فعل آدم لصابرينة؟! لم يجد في التسجيلات كلها اعترافًا مباشرًا منه بخطأ يخصها هي بالذات.. لكن.. هل تراه حاول إجهاضها كما كان يفعل مع كل من سبقنها من زوجات أبيه؟!

غموض صابرينة يؤهلها لفعل كهذا! غموضها مع شراسة فطرية تبدو وكأنها جبلت عليها ومنعته الشعور بالارتياح نحوها من أول مرة! ربما.. ربما هي صابرينة!

ولماذا ليست بانسيه؟! غصة في حلقه تكتسحه عند هذا الخاطر! آدم اعترف أنه كان يؤذيها، يخاف منها ويشعر أنها ستنال ثأرها منه يومًا! لكن.. هل يصل الأمر إلى حد القتل؟! ليتها لا تكون هي مع ما يشعره من إحساس غيث نحوها، بل ومحبة راوية لها كابنتها كذلك!

تيوليب؟! آه من تيوليب هذه! حدسه يخبره أن ذات الشعر الغجري خلفها الكثير والأدهى اختفاؤها هذا الآن! أين عساها قد تكون؟! هل هي القاتلة؟! هل عرفت أن آدم تزوجها فقط نكايةً بأبيه؟! والأهم بالنسبة إليه هو شخصيًّا وقد صار شبه متأكد أنها صاحبة الحادث القديم.. صاحبة الوشم الذي حكت عنه أمه.. ماذا حدث لها بعد الحادث؟! وهل صدقت أمه فيما حكته له أم...؟! لا.. لا.. لن يحتمل بعد كل هذا أن تكون أمه كاذبة! ليت الحقيقة تكون كما يشتهي قلبه.. ليتها!

ينقطع زئير أفكاره مع صرير عجلات معدنية يقترب ليلتفت نحو باب الغرفة مترقبًا دخول بانسيه وصابرينة التي حاولت التقاط الموقف بذكائها وهي تتفحص وجوههم جميعًا، نظراتها تبدو كقلبها مقسمة بالتساوي بين نعمان وأرجوان لكنها تندفع نحو نعمان أولًا، تشد على كتفه بقبضة حانية، تهتف بحنان قلق:

- أنت بخير؟! لماذا نحن هنا؟!

بينما تتعلق عينا بانسيه براوية التي تقدمت نحوها لتعانقها برفق، قبل أن تفاجأ بها تقول بصوت مسموع:

- هو موعد الحقيقة يا ابنتي.. الآن.. لا تؤخريها!

تبدو الصدمة على وجه بانسيه وهي تشعر بالخيانة لأول وهلة.. هل ستفضح راوية سرها؟! لا.. لن تفعلها راوية إلا لحاجة مُلحة!

- أي حقيقة؟! ماذا تخفين يا بانسيه؟!

ورغمًا عنها تنسحب نظرتها نحو زوجين من الأعين بالذات! غيث! رجلٌ تشكل في هيئة سحابة تعد ملامحه بما يشبه اسمه! لقد رأت من قبل التفهم في نظراته.. الحكمة.. المرح.. العبث.. المشاكسة.. لكنها الآن تنبض بالرجاء.. رجاء مس قلبها وإن لم تفهمه! ما الذي يحدث هنا؟! ماذا يخفون عنها؟!

تطرق برأسها في حيرة للحظات وهي تخشى لحظة الحسم.. هل هو أوان الحقيقة فعلًا؟!

يكرر نعمان سؤاله السابق بانفعال أكبر فتستجمع نفسها وهي تلتقم

من عينَي راوية زادًا ومن عينَي غيث ماءً، ما يكفيها لتقبض على مسندَي كرسيها بقوة قبل أن تتحرك لتقف!

يشهق نعمان بحدة وهو يقترب منها.. طيف شاحب من الفرحة يكسو نظرته لأول وهلة قبل أن تعود إليه طبيعته القاسية وهو يهز كتفيها بعنف هاتفًا:

- يمكنك الحركة؟! منذ متى تخفين الأمر؟!

- وما يعنيك؟!

صرختها تبدو كقذيفة انطلقت فجأة نحو صدره وهو يسمع صوتها لأول مرة بعد كل هذه السنوات.. تعيد إليه ذكرى ظلمه إياها فيرعد قلبه ويبرق بصره بينما تترنح قبضتها على صدرها كطير مذبوح وهي تردف:

- ماذا كنت لديك أكثر من مجرد هامش؟! تلومني أن أخفيت أنني يمكنني الكلام؟! منذ متى كان لي صوت مسموع؟! تلومني أن كتمت أنني صرت أتحرك؟! ما الجدوى وقد حبستموني في سجن بلا أبواب؟! لست وحدي بل كل نساء بيت الكرملاوي.. أرجوان التي بقيت أسيرة ظلم ابنك لم تتحرر حتى بعد موته.. صابرينة التي تنطق عيناها بالغربة فيما يفترض أنه لها بيت.. حتى تيوليب التي دخلت البيت بقدميها تبدو وكأنها تخفي سرًّا يقيدها مثلنا.. كلنا أسيرات ظلم بيت الكرملاوي.. لو سألت أي واحدة فينا لماذا لم تهرب؟! لم تتمرد؟! لكانت الإجابة واحدة: «أنتم ضيقتم الدنيا في أعيننا حد أننا لم نعد نرى باب الخروج!».

تتهدل كتفا نعمان بوهن غريب على طبيعته الصلبة، طفل صغير داخله يشبه أصغر قطعة في «ماتريوشكا» يبكي وهو يود لو يعانقها، يعتذر لها، يستسمحها ويستزيد من صوتها الذي افتقده، يركض بها ومعها كما كانا صغيرين، لكنه تعلم أن قطع الماتريوشكا عندما تكبر تتحجر كشبيهاتها.. هكذا علموه.. هكذا كبروه.. المشاعر تنقص قدر الرجل.. توهنه.. وتزلزل الأرض تحت قدميه!

لهذا يقهر أحاسيسه كلها ليجابهها بوجه جامد كأنه لا يفهم ما تقول.

بينما يتحرك غيث خطوة واحدة نحوها.. خطوة بقدمين وألف خطوة بقلب!

فيما تتبادل صابرينة وأرجوان نظرات مقهورة غامضة قبل أن تطرقا برأسيهما.. بينما تربت راوية على ظهر بانسيه تهدئ أنفاسها اللاهثة لتقول بارتياح:

- جيد أنك كشفتِ هذا الأمر قبل أن تظهر الحقيقة.. لا مجال للمزيد من الأسرار.

- أي حقيقة؟!

تسألها صابرينة بلهفة مثيرة للشك، لترد أرجوان هذه المرة بشرود:

- آدم مات مقتولًا.. ترك هنا تسجيلات بصوته.

- هل سمعتموها؟!

تسأل بانسيه بوجه شاحب أثار ريبة صفوان وغيث معًا، لكن نعمان بدا غافلًا عن هذا وهو يرد مطرق الرأس:

- انتظرناكما لنسمعها كلنا معًا.

يجول صفوان بينهم بنظراته وهو يتمنى في هذه اللحظة لو يصدق حدسه فيخبره عن هوية القاتلة.. لكنه للأسف مشتت بين ثلاثتهن بعيدًا عن تيوليب الغائبة!

يطلق زفرة قصيرة وهو يمسد لحيته بأصابعه ثم يتحرك ليشغل التسجيلات الصوتية من البداية.. واحدًا تلو الآخر.. كلها بصوت آدم تبدأ باسمه كاملًا...

أنا المنبوذ.. أنا العاشق.. أنا المغدور.. أنا المنتقم.. أنا الخائف.. أنا المتربص.. أنا الخائن.. أنا الفائز.. وأخيرًا.. أنا القتيل...

هذا الذي تكمله الآن قاتلته:

«سيظن الجميع أن آدم مات ميتة طبيعية.. سقط بسكتة قلبية ليلة عيد ميلاد ابنه.. لكنني وحدي أعرف الحقيقة.. حقيقة السم الخفي الذي كان يوضع في طعامه بكمية كافية لمدة طويلة.. السم الذي لا يمكن لأحد أن يكشف وجوده بعد موته.. ولو أنني تمنيت لو يعرف الجميع.. لو أصرخ أني أخذت حقي منه آخر الطريق بعد صبر هذه السنوات.. لكن هذا الوغد لا يستحق أن أخسر ما بقي من عمري لأجله.. كفاني ما خسرته في أوله!».

يتوقف الصوت وتكاد أنفاسهم جميعًا تتوقف معه! يتبادلون النظرات وكلٌّ منهم يرى نظرة آدم له كما رآها هو في حياته!

- هذه التسجيلات متسلسلة بترقيم ما.. ومن هذا عرفت أنه

ينقصها اثنان ما بين «أنا الفائز» و«أنا القتيل».. يبدو أن قاتلته قد أخفتها لأنها قد تفضح هويتها.

يقولها صفوان فتتبادل صابرينة مع أرجوان نظرة خائفة لم تفوِّتها عيناه.. بينما تنهار بانسيه في غمرة بكائها وقد بدت عاجزة عن السيطرة على انفعالاتها.. أما نعمان فقد عجزت قدماه عن حمله ليتهاوى جالسًا على كرسي قريب وهو يكرر كلمته:

- من؟! من؟!

فيشيح صفوان بوجهه وهو يدرك أن سهام الشك لا ريب ستتوجه الآن إلى الوحيدة الغائبة عن المشهد.. تيوليب!

الغصن الحادي عشر

تعرف أثر «لبّيك» في قلب خائف ينادي؟!

هكذا بالضبط كان مذاق الحب في عينيك!

***

- لا أريد التفكير في كل ما حدث.. كان الله في عون نعمان.. آه.. ليتني يمكنني البقاء هنا أكثر...

تهتف بها بانسيه بنبرة مرهَقة ولا تزال في بيت راوية حتى بعد انصراف نعمان وصابرينة وأرجوان.. تستقر على كرسيها المتحرك الذي عادت للجلوس عليه كأنها لا تزال تخشى عاقبة اعترافها.. كيف ستواجه الحياة بعد الآن وقد اعتادت حياة الظل؟! هل حقًّا ستعود للسير بين الناس؟! تمشي على قدميها وتتكلم بلسانها؟! لماذا إذن تشعر أن علتها لا تزال بصدرها؟! آهة عالية يطلقها قلبها قبل شفتيها وهي تشعر أن الساعات الماضية كانت بمثابة كابوس! تتفهم رغبة راوية في أن تكشف هي حقيقة قدرتها على الكلام والحركة قبل أن تكشفها تسجيلات آدم كي لا تتطرق إليها الشكوك.. وها هي ذي فعلتها.. ألن تتطرق إليها الشكوك حقًّا؟!

- ولمَ لا؟! ساعديني في خبز بعض المعجنات.. تعرفين أنني أفرغ طاقتي في عمل المطبخ.

تقولها راوية بحنانها المعهود فترمقها بعينين زائغتين:

- وأنتِ تعرفين أنني لا أحب عمل المطبخ.

- ليس في بيتي أنا.

تقرص بها وجنتها بحنانها الأمومي الحازم كأنها تفهم علتها فتدمع عينا بانسيه لكن راوية تشد على كفها، تجذبها لتقف هاتفة:

- هيا!

تختلس بانسيه نظرة جانبية إلى غرفتَي غيث وصفوان الخاليتين منهما وقد غادرا البيت مع نعمان ثم تستسلم لحزم راوية الرفيق وهي تحيط كتفيها بذراعها لتتوجه بها نحو المطبخ القريب.

طاولة مستديرة بأرجل قصيرة.. بعض الدقيق واللبن والماء.. وأصابع تعجن بحماس وحب.. كرات صغيرة تتراص بعضها جوار بعض كأنها تكتب حروفًا خاصة لسعادة خالصة.. بكل هذه البساطة! وبكل هذا العمق! سعادة لا يفهمها إلا من افتقدها مثلها تمامًا!

ربما لهذا ركضت دموعها على وجنتيها في سباق صامت وهي تشعر أنها استعادت بعضًا من عمرها المفقود في مشهد بسيط كهذا!

«الست مكانها المطبخ»، التي قذفوها يومًا في صدرها ذابحين بها أحلامها كأنها نقيصة، الآن تشعر بمعنى مغاير لها!

عندما تمزج مكونات أولية بسيطة بلمسة سحرية.. تخلطها معًا لتصير في شكل آخر.. تُمتع وتستمتع.. تعطي وتأخذ.. تُسعِد وتَسعد!

- اصدقيني القول يا ابنتي.. هل تخفين عني شيئًا؟!

سؤال راوية المفاجئ ينتزعها من شرودها ويلقيها في أسوأ كهوفها

ظلمة، تتغير ملامحها فجأة لتغتصب ابتسامة شاحبة وهي تتشاغل بعجن الكرة بين أناملها:

- ومن يمكنه أن يخفي عنك شيئًا؟!

تتفحصها راوية بقلق أمومي وهي تشعر أن سرًّا ما يحول بينهما، تهم بسؤالها من جديد لكن...

- يا للرائحة! قلت منذ شممتها من بعيد أنها لاريب تخص بيتنا!

تشهق بانسيه والصوت المرح الذي يمزج حنانه بعبثه يكاد يقتلعها من مكانها كما اقتلع قلبها من صدرها بينما تسمع راوية توبخه برفق:

- غيث! لماذا لا تستأذن قبل دخولك؟!

- لم أكن أعرف أن أحدًا هنا!

رائحة الكذب في صوته تنافس رائحة عاطفته وهو يقترب منهما، عيناه معلقتان بها وعيناها متشبثتان بالعجين بين أصابعها تخاف حتى رفعهما نحوه.. يظنها الرائي متجاهلة وهي في الأصل خائفة بل مرعوبة! هذا الشعور الذي يجتاح صدرها نحو ذاك الرجل ليس بأقل من الجنون!

- اخرج ودعنا لشأننا.

تقولها راوية بما ظاهره الحزم وباطنه الإشفاق على «ابنة قلبها» وهي تكاد تقسم على ما في صدرها الآن خلف هذه الواجهة الجامدة، لكن غيث يقترب أكثر ليخاطب بانسيه بقوله:

- اغسلي يدك وقومي معي.. فلي معك حديث قد يطول.

ترفع إليه عينيها بانفعال عاصف تنقذها منه راوية وهي تسأله باستنكار مشفق:

- ماذا تريد منها؟!

لكنه لا يزيح عينيه عن بانسيه، المكر العابث في كلماته لا يتسق أبدًا وحرارة نظراته:

- أريد الحديث معها عما حدث اليوم بشأن آدم.. كلنا نريد معرفة الحقيقة وكشف أسرار الماضي.. السيد نعمان لا يريد إبلاغ الشرطة الآن.. يريد العثور على تيوليب بنفسه أولًا.. يبدو أن بينهما حسابًا يريد تصفيته قبل تدخُّل الشرطة...

- تظنون أن تيوليب هي مَن قتلته؟!

تسأل راوية بمزيج من قلق وإشفاق لتتحفز نظرات بانسيه بانتظار الرد لكن غيث يهز كتفيه قائلًا:

- هي أكثر من تحوم حولها الشكوك.. لكننا نحاول التحري عن الأمر.. صفوان يسعى في طريق ما وأنا في آخر...

تزداد ملامح بانسيه ظلمة فيشاكسها بقوله:

- لهذا قلت لنفسي أستفيد من خبرة «بانسيه هانم» في الحياة بحكم أنها بـ «مقام والدتي»!

وها هو ذا ينجح في مراده، تشع نظرة مغتاظة من عينَي بانسيه

وهي تنتفض مكانها وتكز على أسنانها هاتفةً:

- أخيرًا فهمت أنت! بالطبع لن أبخل عليك بخبرتي يا «ابني»!

صوت ضحكته العالي يصدح في قلبها كشمس لم تشرق من قبل على دنيا سواها!

تكتم راوية ضحكتها وهي تهتف به:

- ولماذا لا تتحدثان هنا أمامي؟!

- رائحة المخبوزات تجوّعني وأنت تعرفينني.. عندما تنشط معدتي يتعطل عقلي.. لا يعملان معًا أبدًا!

تبتسم راوية وهي تلكزه في كتفه فيغمزها بخفة بينما تتشاغل بانسيه بمسح يدها من بقايا العجين، ماذا عن بقايا أثر حضوره على قلبها.. هذه كيف تمسحها؟!

تراه يشير إليها نحو الخارج فتسير خلفه نحو حديقة بيت راوية، يتوقف أمام حوض البانسيه الأحمر الذي التقيا عنده أول مرة تفاجأ بكرسيها هناك فتحك أنفها بتوتر في حركتها المعهودة ليشاكسها بقوله:

- يستحسن أن تتوقفي عن عادة حك أنفك عندما تنفعلين.. تلفتين النظر إلى جماله المنمنم المحمر بخجل أنثوي فاتن.. وتضيعين كل مجهوداتك المبذولة كمسترجلة أصيلة!

تخفي ابتسامتها بزمٍّ شفتيها وهي تتجاهل عبارته مشيرةً إلى كرسيها بتساؤل عبر نظرة صارمة عما يفعله هذا هنا.. نظراتها تتحفز

لمشاكسته المعهودة لكنه يفاجئها بحنان نبرته:

- أنتِ بخير؟!

تتكدس الدموع في عينيها فجأة كأنما نادت بعضها بعضًا! دموع بحجم سنوات عمر سابقة لم يسألها فيها أحدهم هذا السؤال حتى توقفت هي نفسها عن البحث عن جواب!

- بالله لا تبكي.. أنا أفهم كيف تشعرين!

- تفهم؟! ماذا تفهم؟! تفهم شعور سجين فتحوا له الأبواب فجأة ليكتشف أن قدميه خائنتان.. عاجزتان عن الخروج؟! تفهم شعور مظلوم يهنئونه أخيرًا بوضع السيف على عنق ظالمه فيكتشف أن النصل على عنقيهما معًا؟! تفهم شعور جائع أتته الحلوى بعد طول صيام ليكتشف أنه صار غير قادر على التذوق؟! تفهم؟! ماذا تفهم؟!

يرتجف جسدها ببكائها ويرتجف جسده بعاطفته! صدق صفوان يوم أخبره أن كل ما كان يظنه -قبلها- حبًّا كان مجرد عبث.. الآن فقط يفهم.. الآن فقط يدرك الفارق وقلبه يبدو وكأنه هاجر من صدره إليها هي! كفه تمتد لتعانق كفها بخفة فترفع عينيها إليه بنفس الشعور المزدوج بين منتهى الرهبة ومنتهى الرغبة! حب؟! هل ما تراه الآن بعينيه حب؟! هل ما يجاوبه بصداه الآن في صدرها حب؟!

- جنون.. ورب الكون جنون!

لم تنتبه أن عبارتها الأخيرة خرجت بصوت مسموع إلا عندما وجدته يقترب أكثر، همسه يحلق بين عينيهما كطير عشق أبيض:

- حقًّا.. جنون!

تحاول كسر قيد اللحظة وهي تشد كفها من كفه لكنه يتشبث بها، يركل كرسيها بعيدًا ليغرس كلماته في قلبها قبل أذنيها:

- وددت لو بنفس السهولة يمكنك أن تركلي الماضي كله خلف ظهرك.. ربما لم أعرف في حياتي شعورًا بالغدر أو الظلم كالذي عشتِه أنتِ! لكنني أعرف شيئًا واحدًا أثق به كاسمي.. أنني لن أسمح لك أن تدفني نفسك في قبر هذا الشعور من جديد.

- ومن أنت كي تسمح أو لا تسمح؟!

لا تزال تحاول كسر قيد اللحظة.. ولا تزال حرارة وعوده تكبلها بلذة قيد بعد قيد...

- أنا غيث.. تعرفين ما يفعل الغيث بالزهور يا.. بانسيه؟!

يقولها ضاغطًا حروف اسمه واسمها بالذات كأنه بنفس الكيفية يستشعر ويشعرها كيف هو أثر الغيث في زهرة ظمأى!

لكنها تهرب من نظراته بل من المكان كله!

======

تركض «بانسيه» مغادرةً الحديقة نحو بيت الكرملاوي.. لا تعرف مما تهرب بالضبط! هل كان ينبغي أن تكون هذه هي الطريقة الوحيدة لتواجه قدرها الجديد؟!

تتوقف خطواتها بغتة في منتصف الطريق مع النداء بصوت قديم..

قديم جدًا من غياهب الماضي.. لكن جرحه لا يزال طازجًا في قلب يحيا بندبته!

- بانسيه!

تلتفت لتتجمد نظراتها أمام الرجل! حبيبها القديم! نظراته مشعة بالصدمة وهو ينظر إليها واقفة مكانها يتمتم بذهول:

- أنتِ...؟!

رغبة عارمة في الهرب والاختباء تنتابها ككل مرة تراه فيها!

ليس منه هو بل من شعورها عندما تراه! رغبة يقهرها سلطانها كل مرة لكن هذه المرة هي من تقهره! تتذكر ركلة «غيث» للكرسي فتشعر أنها ركلة لماضيها كله! حتى لو كان ما بينهما جنون فستجعله يقودها لما يحفظ لها ما بقي من عقل! لهذا تجد نفسها تفرد جسدها في وقفتها.. ترفع رأسها لتهتف بكلمة واحدة أغنتها عن كل شيء:

- نعم.. أنا...

- عدتِ كالسابق؟!

دهشته الملهوفة تبدو لها مضحكة ومبكية.. تقودها لتهتف بحرقة:

- أي سابق تقصد؟! لو كنت تقصد المشي والكلام.. نعم.. لكن هل تظنني يمكنني العودة لما هو أكثر؟!

تلتمع عيناه ببريق يشبه ألق حبهما القديم.. لكنه صار باهتًا صدئًا خاصة وهو يهتف بعجز:

- لم أتركك برغبتي.. قدرنا حكمنا وامتثلت لأمره.

- أنا لم أطلب منك عصا معجزة تشق بها بحرًا.. كان يكفيني أن تكون عصا أتوكأ عليها عندما تخذلني عرجة قدمي.. تعرف ماذا صرتُ؟! عود قش جافًّا لا يصلح حتى لأن يتمسك به غريق!

- يمكننا الآن إصلاح كل هذا.. صدقيني لم أنسكِ يومًا واحدًا منذ تركتك.

- أصدقك!

يتراقص الأمل في مقلتيه بينما تردف هي:

- أصدقك لأنني مثلك لم أنسك يومًا واحدًا منذ تركتني.. لم أنسَ أي شيء.. لا الغدر.. ولا الخذلان.. ولا الوجع.

- فقط لو تسمحين لي يمكنني تعويضك عن كل شيء.

- هناك مصابيح في القلب إذا تهشمت لا تضيء بعدها أبدًا.. الثقة أحدها.

- أنا لم أخُن ثقتك.. الظروف كانت أقوى مني.

- الظروف لا تهزم قلب عاشق.. ضعفه هو ما يفعل!

- صدقيني ندمت أنني هجرتك.

- وأنا سأهجرك غير نادمة.. أنت تركتني لأنك رأيتني عاجزة واليوم أتركك لأنك في عينَي أعجز!

- لا أصدق أن تكون هذه أولى كلماتك لي عندما تستعيدين القدرة

على الكلام! كيف صرت بهذه القسوة؟! أنتِ...؟!

آهة عالية يطلقها قلبها دون صوت وشفتاها تتمتمان بقوة ما عادت تنقصها:

- أنا؟! أنا المقهورة بجرحها.. المعيبة بعجزها.. الصامتة بوحدتها.. والآن.. العائدة لنفسها.. نفسها قبل أي شيء!

لحظة واحدة سمحت لنفسها بها أن تتفرس في ملامحه لآخر مرة.. تسمع صوته مهزوزًا مشوشًا تشوُّش صورته في قلبها.. صدمته.. ندمه.. اعتذاره.. بل وأمله الأحمق أن يتجدد ما بينهما!

لكنها تترك كل هذا خلفها بكبرياء لتعاود السير.. لا تركض هذه المرة بل تسير بتمهل.. تتقبل تباريك المارة ونظراتهم الفضولية بين مهنئ ومتعجب.. «كسيحة بيت الكرملاوي» صارت معجزته!

فتدهش من حالها.. لم تكن المواجهة بهذه الصعوبة.. العلة كانت في روح كروحها استباحوا انتهاكها حتى صدقت ضعفها!

لكنها عندما وصلت إلى باب بيت الكرملاوي شعرت أنها كانت تحارب في معركة لا تعرف هل عادت منها منتصرة أم مهزومة!

- ست بانسيه! لم أصدق كلامهم عندما سمعته.. أنتِ تمشين!

تهتف بها الخادمة وهي تستقبلها بترحاب، فرحتها تشع في وجهها وهي تتناسى الفارق بينهما فتتحسس جسدها وساقيها بخفة تتيقن مما تراه، تطلق زغرودة عالية ثم تهتف بسذاجة:

- بركة الست صالحة.. ذهبت إليها الشهر الماضي وأخبرتني عن

«عمل معمول لك».. لم أرد إخبارك لكنها قالت إنه «بسم الله جامد».. لكن على مَن؟! هي الست صالحة على سن ورمح!

تلوح بأصابعها دائريًا فوق رأسها مع عبارتها ثم تطلق زغرودة أخرى قبل أن تكمم بانسيه فمها هاتفةً باستنكار:

- ماذا تفعلين؟! تزغردين ونحن في هذه المصيبة!

- أي مصيبة؟! كفى الله الشر!

تهتف بها الخادمة بتوجس فتزفر بانسيه وهي تتذكر أحداث الساعات السابقة التي احتفظت بها سرًّا كما يفترض، تلوح بكفها دون رد لتتجاوز الأمر بسؤالها:

- أين الجميع؟!

- السيد نعمان خرج غاضبًا منذ ساعة.. لا أعرف سبب غضبه لكن كما تعرفين لا أحد يعلم لماذا يغضب هو في العادة.. الست أرجوان نائمة مع ناجي والست صابرينة في غرفتها.. كلام في سرك.. الست أرجوان لم تبِت ليلتها هنا.. لا أعرف أين كانت.. لكنها عادت مع السيد نعمان والست صابرينة صباحًا.. أين تظنينها كانت؟! يكون هذا سبب غضب السيد نعمان؟! صراحة يكون معه حق هذه المرة! كله يهون إلا مبيتها خارج البيت! ماذا يبقى للمرأة غير سُمعتها؟! ماذا يقول الناس عنها لو عرفوا أن...

- كفى! كفى!

تكمم بانسيه فمها من جديد وقد بدت هي الطريقة الوحيدة

لإيقاف ثرثرة المرأة التي دفعتها بانسيه لتدخلها البيت طالبةً منها أمرًا يشغلها عنها لفترة...

تطلق زفرة عميقة وهي تحك أنفها كعهدها.. تتذكر تعليق غيث فتسمح لابتسامتها بالظهور هذه المرة.. لكن ابتسامتها تتجمد وهي تقبض بكفها على صدر قميصها بينما تأخذ قرارها لتتوجه بخطوات حذرة نحو غرفة مكتب آدم الخاصة والتي بقيت مغلقة بعد موته.. تفتحها ثم تغلق الباب خلفها بحرص.. خفقات قلبها تتقافز بجنون وهي تفتح خزانته بأرقامها السرية التي كانت قد توصلت بطريقة ما إلى أرقامها.. تراها خالية كما يفترض فتدمع عيناها وهي تتذكر ما سمعته بصوت آدم عن أنه كان يعيش طوال عمره يخافها.. بل إنه كان ينتظر أن تنال ثأرها منه هو! ذكرى تنتهي بمشهده ليلة سقوطه قتيلًا على سطح البيت...

شعور بالذنب يكتسحها وهي ترفع كفيها نحو عينيها تبسطهما وتقبضهما بعجز مخزٍ لتتمتم بين شهقات دموعها:

- يا إلهي.. ماذا فعلت؟! ماذا فعلت؟!

***

- لا تتشبثي به هكذا.. ستوقظينه من نومه!

تهمس بها صابرينة محذرة وهي ترى شدة هلع أرجوان وتمسكها بصغيرها بعد عودتهما من بيت راوية.. لا تلومها بعد الأحداث الأخيرة لكنها تعاود بث الثقة فيها:

- لا تخافي.. لن يؤذيه أحد أبدًا.

تقولها وهي تربت على كف أرجوان فوق صدر الصغير لكن الأخيرة تنفض كفها عفويًا بما بدا كحركة فظة، فتهمس بنبرة معتذرة:

- اعذريني.. أنا...

تنقطع كلماتها بنشيج خافت وهي تدفن رأسها في وسادة الصغير خشية إيقاظه، فتتنهد صابرينة لتهمس لها مطمئنة:

- أفهم كيف تشعرين.. لا تخافي.

- أخاف ان يأخذوه مني.. أن يحرموني منه.. أنا احتملت كل ألم لأجله.

- لن يستطيع أحد فعلها.. ليس وأنا على قيد الحياة.

تقولها وهي تشدها من كتفها لترفعها نحوها، تعانق كفيها براحتيها ثم تضعهما معًا على صدرها.. هذه الحركة المميزة التي عَهدتها كلتاهما طوال عمر صداقتهما منذ سنوات كأنما صارت أيقونة لهما وحدهما.. ثم تهمس لها وهي ترفع معصمها حيث سوار ذهبي يتدلى منه نصف قلب، يشبه مثيله في معصم أرجوان:

- تذكرين عندما أهدتنا والدتك هذين؟!

تومئ أرجوان برأسها تتمتم بشرود:

- يومها أوصتني عليكِ كأنها كانت تشعر أنها سترحل وتتركنا.

- لكنها لم توصني عليكِ.. قلبها البصير أخبرها أنني لا أحتاج إلى

توصية.. أنني أفديكِ بروحي.

تهمس بها صابرينة بعينين دامعتين، فتبتسم أرجوان ابتسامة واهنة وهي تطرق ببصرها للحظات.. قبل أن تعاود رفعه نحوها بسؤالها الحذر:

- السيد نعمان لن يهدأ بعد ما عرفه اليوم.. ماذا لو انكشف ما نخفيه؟!

- لن ينكشف أبدًا.. لا تقلقي...

- لنعترف اليوم له قبل أن...

- ششششش...

تخرسها صابرينة بسبابتها على فمها لتردف بنظرة شرسة تناقض براءة ملامحها:

- لن يعرف أحد.. ثقي بي.

- تظنين تيوليب من فعلتها؟! هي من قتلت آدم؟! لهذا اختفى هذان التسجيلان بالذات دون بقية التسجيلات؟!

- ربما.

تهمس بها صابرينة بغموض وهي تشيح بوجهها.. فتسألها أرجوان بوجل:

- هل تخفين عني شيئًا؟!

- هل تفعلين أنتِ؟!

تهز كلتاهما رأسها في نفس اللحظة فتتنهد صابرينة بارتياح لتربت على وجنة صاحبتها برقة هامسة:

- ثقي بي ولا تخافي.. أنا وعدتك أن آخذ حقك من كل من ظلمك.. ولن أخلف وعدي أبدًا.

***

- أنتَ هنا؟!

يسمع صفوان صوتها خلفه فلا يلتفت.. يشعر بها تقترب فيقول بنبرة محايدة حملت بعض السخرية:

- يبدو أنني صرت مثلك مهووسًا بالبئر القديمة؟!

- لا جعلك الله مثلي أبدًا.. أبدًا!

حرقة الأسى في كلماتها تجبره على الالتفات نحوها، نظراته تغافله فتعانق عينيها اللتين فاضتا بالدموع وهي تكتف جسدها بذراعيها تتمتم بانهيار:

- اعذرني.. هذا اليوم شعرت أن آدم مات من جديد.

يهز رأسه بتفهم وطوفان قلبه يناقض جمود نظراته...

- هنا.. هنا بالضبط.. مهّد لي آدم مجلسًا يناسبني تمامًا.. أو هكذا كنت أظن...

تقولها «أرجوان» وهي تتحرك نحو السور القصير المقابل للبئر، فيرنو ببصره إلى ما تشير إليه، على حافة السور العلوية كأنه قد

أزيل قالب أو قالبان من الطوب تم تسويتهما حتى إذا ما اتخذت مجلسها هناك بدت وكأنها هي نفسها جزء من السور! تشرد ببصرها كأنما اختطفتها نسور الذكرى:

- هل أحبت امرأة رجلًا كما أحببت أنا آدم؟! لا أعرف.. لا أظن.. أنا أحببت فيه كل «رجل» افتقدته في حياتي.. أحببته» أبًا» حتى وهو في مثل عمري.. ربما لهذا كنت أطيعه دون مناقشة.. أتحاشى غضبه وأتلمس رضاه في الصغير من الأمور قبل الكبير.. أحببته «أخًا» أسير في كنفه مطمئنة و«صديقًا» أبوح له بكل خفايا نفسي.. أحببته «ابنًا».. حتى قبل أن أجرب شعور الأمومة الحقيقي.. تعرف منذ متى؟! منذ طفولتنا.. منذ كان يحضر لي ثياب أمه ويطلب مني ارتداءها.. يمشط لي شعري بفرشاتها.. كنت أعانقه ببراءة وأخبره كاذبة أن روحها سكنت داخلي وطلبت مني أن أرعاه.. لا أعرف من أين اخترع عقلي هذه القصة الخيالية.. لم أعتبرها كذبة أندم عليها لما رأيت فرحته بها.. كبرنا وكبر معنا حبنا.. فوجدتني أحبه «عاشقًا» يهيم بي وأهيم به.. ازداد بي تعلقًا وازددت به التصاقًا.. تعرف طوال هذه السنوات كم أشياء تشاركناها؟! بدايةً من لعب الكرة وقوالب الحلوى مرورًا بشهاداتنا الدراسية وانتهاءً بدبلتَي الزواج؟!

يشعر بغصة في حلقه أكثر من مجرد غيرة.. يزداد شعوره أن هذه العلاقة -مهما بلغت متانتها- لم تكن يومًا سوية لكن الأسوأ انها لا تزال تصدق أن هذا كان حبًّا!

خاصة وهي تردف بنفس الشرود:

- لم يكن يضايقني سوى غيرته التملكية نحوي.. في البداية كانت تعجبني وهي تشعرني بخوفه من فقدي.. ربما ترى هذا غريبًا لكن حتى قسوته التملكية تلك كانت تعني لي أمانًا من نوع آخر.. كنت واثقة أنه مهما قسا فلن يتخلى.. شعور كان مهمًا جدًا لواحدة مثلي عرفت منذ طفولتها كيف يتخلى أقرب الناس عنها دون أن يطرف له جفن.. لكن آدم كان قد بدأ طريقًا متطرفًا في غيرته.. أنت سمعت مثلي قصة الخلخال كما رواها.. تعرف ماذا كانت الحقيقة؟!

ينعقد حاجباه بترقب، لتلهبه تنهيدتها وأناملها تتحسس قلادته بصورتها المشوهة على عنقها:

- كنا لا نزال في المرحلة الثانوية.. كانت لي صديقة مقربة يغار منها آدم كثيرًا.. أظنك الآن تفهم أنه كان يريد أن يكون وحده مركز كوني.. ورغم رغبتي الدائمة في إرضائه لكنني لم أستطع قطع علاقتي بها كما كان يريد.. كانت مريضة بمرض نادر وكنا نعلم أن أيامها في الدنيا معدودة.. التزمت بصحبتها حتى استرد الله أمانته.. بعد وفاتها طلب مني شقيقها أن يقابلني.. شقيقها الذي كان مسافرًا في أيام مرضها الأخيرة ولم يتسنَّ له وداعها.. ولما كنت أعرف عن غيرة آدم لم أخبره.. قابلته ليلًا عند المحطة كما ذكر آدم.. فوجئت به يخرج خلخالًا يبكي وهو يخبرني أنه كان لها! هي طلبته منه ولم يستطع أن يأتي في الوقت المناسب كي يفي بوعده لها.. وتذكرت كم كانت صديقتي مهووسة بأمر هذا الخلخال.. وكنت أداعبها بقولي أن تنتظر أن يأتي لها به عريسها ليلة زفافهما لكن البائسة كانت تشعر أن العمر لن يجود بفرحة مثل هذه.. وعندما رأيته في يد شقيقها انهرت

في البكاء.. لم أستطع رفض طلبه وهو يطلب مني أن أرتديه بدلًا منها لما كان يعلمه من عمق صداقتنا لعله يشعر وقتها أنه لم يتأخر عليها! عرفت صبيحة اليوم التالي أنه مات تحت عجلات القطار.. لم أعرف ما فعله آدم به إلا عندما سمعت اعترافه في تسجيلاته!

تنهمر بعدها في البكاء لتهتف بين شهقاتها:

- كانت صدمة عنيفة لي في الماضي وأنا لا أفهم ماذا جرى للشاب؟! أنا تركته بخير! وقتها ظهر آدم داعمًا ومحتويًا ومواسيًا لي كعهده.. كان يردد أنه قضاء وقدر.. لم أتخيل قط ساعتها أن يكون هو خلف هذا.. حتى عندما نزع مني ذاك الخلخال! قلت له ساعتها إنه آخر ذكرى بقيت لي من صديقتي لكنه بحنانه الغامر أقنعني أنه سيبقى يحمل لي ذكريات قاسية.. لم يرتح إلا عندما ألقاه أمامي في البحر.. كأنه يطوّح معه حزني كما قال.. ثم أجلسني على الشاطئ ليضع خلخالًا آخر أمرني ألا أخلعه أبدًا.. طوال هذه السنوات لم أخلعه حقًّا حتى وفاته...

يتذكر ملحوظته التي ذكرها لها عن هذا الخلخال، فيسألها بحذر:

- لماذا استطعت خلع الخلخال.. ولم تفعلي المثل بقلادته ودبلته؟!

تشيح بوجهها دون رد فيتأكد حدسٌ ما داخله يجعله يطرق برأسه، يغير الموضوع إلى آخر:

- وما قصة ذاك الطبيب الذي حكى عنه؟! كنتما متحابين حقًّا؟!

ابتسامة ساخرة تذبح شفتيها بمرارة وآهة طويلة تنحر حلقها:

- طوال هذه السنوات وأنا أعيش جحيم شكوكه وخيالاته.. أبرر لنفسي أنه من فرط حبه لي.. أحاول رؤية المواقف من زاويته لعلي فقط أرضيه.. موقف ذاك الطبيب كان أحدها...

تقطع حديثها لتقف مكانها.. تتحسس بأناملها اسميهما المحفورين على السور لتردف:

- منذ ست سنوات تقريبًا ساءت علاقة نعمان وآدم كثيرًا.. لم نفهم السبب وقتها لكن أظننا الآن نعلم.. زواجه بتيوليب! وقتها حدثت تطورات كثيرة.. أصر السيد نعمان على الزواج بصابرينة.. أدخلها البيت في سابقة لم تحدث من قبل.. غضب آدم وترك البيت لعدة أسابيع اختفى فيها تمامًا.. وقتها كنت أنا وضعت ناجي وقد انشغلت به ولم أستطع العثور على آدم.. تدهورت صحة السيد نعمان فجأة وسقط طريح الفراش.. كانت تلك هي الفترة التي ظهر فيها في حياتنا ذاك الطبيب الذي تعددت زياراته.. أعترف أنني اهتممت بالحديث معه كثيرًا وكل ما كان يدور في ذهني وقتها هو صحة السيد نعمان.. كنت أخاف أن يعود آدم في أي وقت فيتهمني بالتقصير في صحة أبيه.. تفهمت غضبه وغيرته لما عاد وأمر بألا يدخل ذاك الطبيب البيت مرة أخرى.. لكن الرجل استوقفني ذات مرة في الطريق يسألني عن تطورات حالة نعمان.. أجبته باقتضاب وعدت إلى البيت لأفاجأ بصفعة آدم واتهامه لي أنني أخونه! قضيت أيامًا بعدها أحاول تبرئة نفسي دون جدوى.. لكنه هدأ أخيرًا دون سبب.. أو لنقل إنني عرفت السبب بعدها ببضعة أسابيع عندما ذاع الخبر.. وجدوا جثة الطبيب غريقًا في نفس البحر الذي استقر فيه

خلخال صديقتي! الغريب أنني ظننتها وقتها مصادفة حتى سمعت التسجيلات!

يطلق صفوان زفرة ساخطة وهو يهزها بين ذراعيه هاتفًا بحنق:

- كل هذا لم يجعلكِ تشكين في شيء؟!

- لم أظنه مجرمًا إلى هذا الحد! لم أصدق أن الرجل الذي يبكي بين ذراعيّ برقة يطلب مني ألا أتركه هو نفس الرجل الذي يمكنه أن يقتل أحدًا! حتى عندما كانت تتطاول يده عليّ ويعتذر بعدها كنت أفسر ذلك أن فرط الغضب من فرط الحب!

- بل كنتِ جبانة!

يهتف بها بانفعال ولا يزال يرجها بين ذراعيه مردفًا:

- كنت تخافين دومًا أن تخسريه! أن تفشلي! أن تتركي ابنك يكبر دون أب مثلك! يعيرونه بأنه تربية «واحدة ست» كما كانوا يفعلون بكِ! كنتِ تتذرعين بعلاقة مريضة أسميتِها حبًا وهي أبعد ما تكون عن هذا!

- أجل.. لأجل ابني.. لأجل ابني فعلت وأفعل كل شيء.. كل هذا احتملته كي لا يكون نسخة مني.. كل هذا صبرت عليه كي لا يخسر أباه.. والآن.. الآن.. ذهب رغم كل شيء!

تحاول التفلت من ذراعيه وشهقات بكائها تزلزلهما معًا، تُفاجأ به ينتزع قلادتها من عنقها ولم تكد تعترض حتى فعل المثل بدبلتها ليلقيهما معًا في البئر!

- ماذا فعلت؟! ماذا فعلت؟! لن ينتهي هكذا.. لن يرحل أبدًا.. لن يتركني...

يهيأ إليها أن صدى صرخاتها يرتد إليها من البئر، ليس وحده.. معه طيف آدم من جديد، قبضتاه تعتصران عنقها بقسوة، لكنه يعاود عناقها بحنان، عيناه تشتعلان بالغضب تارة وبالعشق تارة، تمامًا كما يفعل بأرجوحته.. يبعدها مرة.. ويقبِّلها عندما تقترب من جديد ليعاود إبعادها.. فترتجف شفتاها بمزيج عجيب من هلع واشتياق.. ارتجافها يثير الشفقة وهي تنحني بأكثر من نصف جسدها نحو البئر كأنها تناشدها أن تبتلعها مع ما ابتلعته.. صرخات صفوان رغم دويها تأتيها من بعيد كأنها باهتة:

- بل انتهى.. رحل.. تركك فاتركيه أنتِ! آدم مات.. مات.. لن يسجنك في حياته وفي موته.. افهمي هذا.. افهميه!

يجذبها أخيرًا نحوه ليبعدها عن البئر وهو يشعر باختلاجات روحها، أنامله تحرر شعرها من آخر قيوده.. شرائطه الذهبية.. فلا تملك القدرة ولا الرغبة لتمنعه.. كأنما سقطت في دوامة استسلامها لكل ما يحدث...

- الآن أنتِ حرة.. من كل شيء.

يهمس بها بقوته التي تشعرها دومًا أنها لها لا عليها.. فيرتجف جسدها برعدة تناسب سؤالها:

- تظن هذا حقًّا؟!

يعانق راحتيها بكفيه فتغمض عينيها على لوعتها:

- تعرف بماذا شعرت عندما مات آدم؟! عندما رأيناه ساقطًا على وجهه فوق سطح البيت ليلة عيد ميلاد ناجي؟! اعذرني لو ضايقتك بكل هذه التفاصيل لكنني لم أجرؤ من حينها على البوح بمشاعري لأحد.. أي أحد...

يضغط كفيها برفق كأنه يمنحها دعمه فتردف دون أن تفتح عينيها:

- لأول وهلة شعرت أنني -مثل ما تقول- صرت حرة.. ركضت نحو غرفتي.. أغلقت بابي عليّ.. نزعت عن شعري شرائطه الذهبية.. قلت لنفسي: «ذهب سجانك.. ادفعي الباب واخرجي».. لكن.. لم تكد تمر دقائق حتى شعرت بالخواء.. بالبرد.. كأن جزءًا مني غادرني إلى الأبد.. آدم لم يكن مجرد زوج أو حبيب.. كان طفولتي وصباي.. كان شطر عمري.. وربما كله! ساعتها شعرت بالذنب.. أنا رضيت بأن أكون أمه.. الإسفنجة التي تمتص كل عيوبه ولا تهتم إذا تغير لونها ما دام سيكون راضيًا.. لم أجد داخلي سوى أسيرة! أسيرة لا يعنيها أن يكون الحب قيدًا أو تاجًا.. أجل.. أغلالي كانت داخلي أنا.. العطب كان في روحي أنا.. لكنني لم أعرف كيف أصلحه!

- ولا تزالين تسمين كل هذا حبًّا؟!

استنكاره المغتاظ يمتزج بعاطفة تغمرها كغلالة دافئة في ليلة شتوية.. تقتلعها من جذورها لتزرعها في أرض أخرى.. أرض مزهرة تشبه اسمها.. وتشبهه!

حتى وهو يعاتبها بتفهُّم نظراته:

- الحب الذي يجلد أحد طرفيه صاحبه ليس حبًّا! الحب الذي يغير لون إسفنجتك إلى الأسود ليس حبًّا.. الحب الذي تشعرين فيه أنك أم تشكو عقوق صغيرها ليس حبًّا.. أيتها الغافلة! بل الحب ألا يحدث هذا كله! الحب أن تفتحي نافذتك كل يوم لتجدي شمسًا أجمل في انتظارك.. أن تنظري إلى مرآتك فترَيْ صورة أكثر بهاء.. أن تأخذي نفسك في كل مرة وأنت تشعرين أن الهواء يزداد عبقًا.. كل ما حولك يزداد جمالًا وأولها أنتِ!

- هل.. هل شعرت بهذا معي؟!

يخفت بها صوتها حد الهمس وحمرة لذيذة تكسو وجنتيها فتغازلها ابتسامة حلوة على شفتيه مع غمزة ماكرة تشبهه:

- من ذاق عرف! ما كنت لأحكي لولا أن جربت.

ابتسامته تُنبِت أخرى على شفتيها.. ببطء شديد تولد كأنها برعم يشبه اسمها.. لا تداريها بكفها كالعادة مخافة أن تبدو أسنانها غير المنتظمة بل تشعر أنها تراها في مرآته رائعة.. فريدة.. مميزة كما يراها هو.. وأخيرًا تبدو ابتسامتها الكاملة كأنها تعانق شمسًا موطنها عيناه.

- تعرفين؟! ابتسامتك تبدو وكأنها خلقت لتمطر البشرى وتنبت الفرح وتزخ العطر على الطرقات!

تغمض عينيها وهي تأخذ نفسًا عميقًا كأنما تختبر ما يقول.. تتعجب هذا الحبل الذي مدته كلماته في بئر روحها المظلمة.. تتعلق به كي

تنجو!

تمسح بقايا دموعها لتفتح عينيها أخيرًا كأنما تفتح معها بابًا آخر من أمل:

- لن تتخلى عني.. لن تتهمني بالجنون.. ستساعدني كي يرحل؟! أقصد.. كي أصدق أنه رحل؟!

- لن يمكنني مساعدتك ما لم تكوني أنت قادرة أن تساعدي نفسك.

تهز رأسها ليردف بنبرة أقوى مشيرًا إلى عينيها:

- افعليها لأجل ابنك.. أعرف أن هذه هي الكلمة السحرية التي تجعل عينيك تتوهج بكل هذه القوة التي داخلك.

تبتسم بين دموعها فيتنهد بحرارة وهو يشعر أنه يتورط بها أكثر.. خاصة وهو يلمح وليد عاطفتها نحوه يكبر بعينيها يعده بأمل يريد تصديقه...

- أنا تأخرت.. سأعود إلى البيت.

تقولها وقد استعادت شعورها بالزمان، تعطيه ظهرها لتبتعد لكنها ما كادت تخطو بضع خطوات حتى وصلها هتافه خلفها:

- أنا خدعتك.

***

يدخل نعمان غرفة مكتب آدم بخطوات غاضبة كسيرة متألمة.. كقلبه!

غرفته التي لم يجرؤ على دخولها منذ وفاته.. صندوق «باندورا» تكفي إزاحة غطائه لتنبعث منه كل خطايا الماضي وأوجاعه!

يغلق بابها خلفه يسند ظهره إليه آملًا ألا ينهار! قلبه كان دومًا يخبره أن ابنه لم يمت ميتة طبيعية.. لكن أن يسمع هذا بأذنيه! ليس فهذا فحسب بل كل كراهية آدم التي تراكمت منذ طفولته حتى مقتله لهو السيف الذي هوى على عنقه دون رحمة!

لقد عاد لتوه من المصنع يبحث عن أي أثر تركته تيوليب خلفها.. اللعينة لم تترك أثرًا بل مصيبة! كيف وهو هو بذكائه المعهود شنق نفسه بالحبل الذي ظن نفسه يرخيه حول عنقها هي!

عندما أراد إدخالها بيته بعد مقتل آدم مانحًا إياها الأمان مقنعًا لها أنه ندم على ما فعله بها.. ظن أنه يغريها ليراقب تحركاتها فيكشف خبيئتها.. لكن الداهية ضللته.. هربت بعدما ثقبت قارب مصنعه ثقبًا يكفي لإغراقه.

يطلق سبة خافتة وهو يتوعدها بأقسى عقاب، لكن نظراته تلين فجأة وهو يلمح صورة آدم على مكتبه مع ناجي في عمر أصغر، وقتها لم يكن الولد بهذه الحالة من فرط الحركة بل استكان في حضنه وهو يرمق الفراغ بشرود بينما بدت ضحكة آدم حقيقية لأبعد حد وهو يحيطه بذراعيه.. متى كانت آخر مرة رأى فيها ضحكته حقيقية هكذا؟!

تدمع عيناه وهو يقترب من الصورة أكثر يرفعها من مكانها لترتجف أنامله وهو يميز الصندوق الصغير المغلق تحتها.. يتأهب

للمفاجأة وهو يفتحه بأنامل مرتجفة.. «دمية ماتريوشكا» كاملة.. كاملة هذه المرة لا تنقصها أي قطعة! يكاد قلبه يتوقف عن النبض وأنامله تصطدم بالورقة تحتها.. خط آدم! إنه خط آدم! أنيق متعجرف مثله! غريب متفرد مثله! متوجع متباعد مثله! وغاضب.. غاضب إلى الأبد مثله!

تقهر الدموع عصيان عينيه وأنامله المرتعدة تهتز كأنما ترجها أعاصير الذكرى...

«يومًا ما قد تجدها يا نعمان.. لا أظنني سأكون حيًا عندها.. لعلك تفهم وقتها ما لم أستطع قوله لك وعيناي في عينيك.. يومًا ما ظننت أنه بإمكاني أن أنقذ القطعة الأخيرة.. تذكر عندما اختطفتها منك لألقيها في البئر؟! كنت متفائلًا زيادة عن اللازم، تعرف لماذا؟! لأن الطفل كبر وأدرك أنه رغمًا عنه يشبهك.. كلنا قطع ماتريوشكا يُخرِج بعضُها بعضًا.. تعرف ما أكثر ما يؤذيني؟! أنني عندما أنظر في مرآتي أرى رجلًا يشبهك! لو وصفني أحدهم أنني ظالم فتتكفل أنت بدفع الفواتير.. أما أنا فلو كانت لي أمنية فهي ألا أربي طفلًا يكرهني كما أكرهك».

يسقط مكانه على الأرض وهو يكتم نشيجه بكفه الحرة بينما تجعد قبضته الورقة كما جعدت قلبه!

الرجال لا يبكون! يتمتم بها لنفسه بعزته المعهودة لكن رأسه يسبقه ليسقط على الأرض ويبكي.. يبكي كما لم يعرف من قبل وهو يلصق جبينه المشتعل بالأرضية الباردة.

لحظات قصيرة سمح لنفسه فيها بهذا الوهن.. قبل أن يرفع رأسه من جديد.. وكأن كل هذا لم يكن!

يخفي الورقة في جيبه ويمسح وجهه بكفيه كأنما ينفض عن نفسه ما لا يليق به من ضعف.. تعاود القسوة احتلال نظراته:

- سأجد قاتلة آدم.. سأجدها وأحاسبها بنفسي أيًّا من كانت.. لا يجرؤ أحدهم أن ينتزع مني قلامة ظفر فماذا عن ابني؟! سأجعلها تتمنى الموت قبل أن تناله!

***

- أنا خدعتك!

تلتفت أرجوان إليه بدهشة متسائلة ليعاود اقترابه منها مطرق الرأس بقوله:

- دخولي بيت الكرملاوي كان مخططًا.. لقاؤنا في القطار لم يكن مصادفة.. تبادل هاتفَينا لم يكن مصادفة.. أنا سعيت لكل هذا.

تشحب ملامحها كأنما هربت منها الدماء.. تجف دموعها فجأة وهي ترمقه بنظرة مصدومة.. فيردف وعيناه في عينيها:

- شيء واحد لم أتعمده.. لم يكن مخططًا.. لم أخدعك فيه.. حبي لك!

لكنها بدت غائبة عن عبارته الأخيرة.. طائفة في ملكوت بعيد.. كيف يمكن أن ينتهكها الألم أكثر؟! كيف يمكن أن يغتصبها الغضب أعنف؟! كيف يمكن أن يقتلها الخذلان دون رصاصة واحدة؟!

- لماذا؟!

بالكاد حروفها تغادر شفتيها فيسبل جفنيه وأنامله تتحسس وحمة وجنته.. يشير إليها بقوله:

- هذا ما بقي لي من أمي! تعرفين لماذا صرت أطلق لحيتي؟! تدركين قسوة أن أكون مضطرًا إلى إخفاء إرثي منها!

بعينين خاويتين تناظر وجهه تتبين ما يحكي عنه بينما يردف هو بلوعة:

- ذاك الحادث من ست سنوات.. ماذا تعرفين عنه؟! بعدما تركت كل شيء خلفي لأجل أمي.. سافرت بها إلى مدينة بعيدة لا يعرفنا فيها أحد.. كنت أضطر إلى تركها.. أعمل ليل نهار كي أعولها وأعول نفسي دون تقصير في مذاكرتي.. كنت أريد أن أثبت لأبي أنني لم أخطئ عندما صدقت توبتها.. وكنت أريد أن أثبت لنفسي أنني بعد كل هذا العمر استعدت بيتي.. وما البيت إلا أم؟!

تسبل جفنيها على عينين جافتين ليصلها صوته المقهور:

- ليلة الحادث خرجت أمي من بيتنا في تلك المنطقة المنعزلة على صوت صرخات امرأة شابة حامل يضربها رجل.. سقطت المرأة مغشيًا عليها وكاد الرجل يفر بفعلته لولا استغاثة أمي وطلبها النجدة من المارة.. كانت حالة المرأة سيئة جدًا وكادت تفقد جنينها وشهدت أمي بما حدث للشرطة.. هذه.. هذه هي الحكاية كما حكتها أمي.

تفتح عينيها وعقلها المشوش يحاول تجميع الخيوط.. لماذا سعى

صفوان لدخول بيت الكرملاوي، ترتجف شفتاها وهي تستنتج ما حدث لتهمس بصوت مختنق:

- وكيف حكاها آدم؟! أم تراه كان نعمان؟!

يضم قبضته بغضب وجسده يرتعد:

- بل نعمان! كذَّب كل ما قالته.. قال إنه كان يحاول إنقاذ المرأة من قطاع طريق هربوا وإنه ليس من فعلها.. شهادته كانت أمام شهادة أمي.. يبدو أنه بحث في ماضي أمي.. جاء بتحاليل تثبت أنها كانت مخمورة ساعتها وأن شهادة امرأة مثلها لا يُعتَد بها.. خاصة وقد أيدت صاحبة الحادث شهادته.. أغلقت القضية وتكتَّم نعمان بنفوذ علاقاته على تفاصيلها.

- وأنت صدقت أي حكاية؟!

دمعة ملتاعة ترتجف على طرف عينه وهو يردد بين خزي وغضب:

- لا أعرف.. في البداية غلبني سوء ظني بأمي.. قلت لنفسي عادت إلى ضلالها القديم.. شق عليَّ أن أفعل كل هذا لأجلها بينما تستغل هي غيابي لترجع إلى غيِّها.. خاصة وقد انتشر الخبر في مكان سكننا الجديد.. صار الجميع يعرفون ماضيها ويظنون الأسوأ في حاضرها.. ووجدتني أعود إلى نقطة البداية معها.. أُعيَّر بها من جديد! كل لحظة حرمان منها عشتها طفت إلى السطح وقتها ترغمني ألا أسمعها.. ألا أصدقها.. كل حبي لها استحال إلى شوك يخز صدري يسخر من حماقتي.. يصمني بقلة رجولتي.. يلعنني ويذكرني بكل ما فعلته من أجلها.. وكل ما ركلته هي بقدمها دون أي اعتبار.. نبذتها من حياتي..

صرخت فيها أنني لن أفتح لها بابي ثانية بعد فضيحتها الجديدة.. وعدت إلى أبي بخيبتي ليستقبلني بنظرة انتصار ذبحتني: «ألم أقل لك؟! فيمَ ضيعت وقتك؟!».

- وماذا بعد؟!

- ماتت أمي!

تسبل جفنيها من جديد على العينين الجافتين وصوته المتفحم يكوي قلبيهما معًا:

- ماتت بحسرة شعورها بالقهر وربما بالذنب.. لا أعرف.. وربما لن أعرف أبدًا.. تركت لي وشاحها الأبيض ومعه رسالتها أنها لم تخلف عهدها معي.. أنها مظلومة.. طلبت مني أن أبحث عن المرأة صاحبة الحادثة.. لم تعرف اسمها.. لم تكن تذكر عنها سوى وشم الزهرة على ظاهر كفها.. هي وحدها تعرف الحقيقة.. هي وحدها يمكنها تبرئة اسم أمي.. أو العكس.. هي وحدها يمكنها إطفاء هذه النار بصدري.. هل كانت أمي صادقة أم كذبت عليّ!

ترفع ظاهر كفها تتأمل وشم زهرتها لتغمغم بخفوت:

- كنت تظنها أنا؟!

يومئ برأسه ليجيب:

- كان هذا قبل أن أعرف أن هناك أربع نساء في بيت الكرملاوي يحملن نفس الوشم.. وعندما سمعت تسجيلات آدم الأخيرة عرفت...

- أن تيوليب صاحبة الحادث.. زوجة آدم التي هرَّبها من أبيه إلى

مدينة أخرى.. هذا يعني أنها هي الأخرى كانت تحمل طفله من ست سنوات.

تقاطعه بها بنبرة ذبيحة مطرقة الرأس فيهمس بنبرة معتذرة:

- اعذريني لو...

- اخرس!

تصرخ بها بانفعال فيصطدم بصره بالوهج المتنمر في عينيها.. الوهج الذي لم يره من قبل إلا متعلقًا بابنها.. الآن يخصه هو.. قبضتها التي تكورت بين وجهيهما كأنما ستضربه.. واحمرار وجهها المشتعل حتى يظن الرائي أن دماءها نفسها تغلي!

- أنت أيضًا خدعتني؟! من بقي؟! من؟!

تصرخ بها بحرقة وهي تلوح بذراعيها حولها:

- هنا؟! هنا من جديد؟! كم مرة سيشهد هذا المكان على خيباتي؟!

يهتف باسمها مهدئًا وذراعاه تحلقان حولها لكنها تبعدهما عنها بعنف هاتفة:

- يومًا ما كنت سأشكرك لأنك حررت دموعي من سجنها.. أجل.. بعد وفاة آدم جفت دموعي كلها معه كأنها أبت أن تمنحني الراحة.. لكن.. ذاك اليوم الذي اعترفت لي فيه بحبك عرفت لأول مرة منذ أشهر كيف أبكي من جديد.. كيف تمنحني الدموع بعض الراحة من جديد.. اليوم أيضًا أشكرك وإن تناقض السبب.. أشكرك لأنك عدت تسجنها في عينَي!

- أرجوان.. أنا...

يهتف بها بانفعال لكنها تقاطعه بقولها:

- لماذا ألومك أنت بالذات؟! حتى أنت لم تكن حقيقيًا! مثل كل شيء!

تقولها وهي تركض مبتعدة لكنه يلحق بها ليجذبها من ذراعه نحوه هاتفًا:

- أعتذر لسوء اختيار توقيت اعترافي لكنني تعمدت أن يكون هذا الآن.. وبهذه الصورة.. وفي هذا المكان.. تعرفين لماذا؟!

تنفض ذراعها منه بعنف رافضة منه المزيد ليردف بانفعال:

- هذه بالضبط ردة فعل امرأة مصدومة! امرأة تشعر بالخيانة مذبوحة بالخديعة والمفاجأة.. تختلف تمامًا عن ردة فعلك في بيت الست راوية عندما سمعنا تسجيلات آدم.

- ماذا تقصد؟!

تتمتم بها بصوت مرتجف وعيناها تهربان من عينيه لكنه يتحرك ليغرس نظراته في عينيها:

- لم تكن تلك أول مرة تسمعين فيها هذه التسجيلات.. أنا واثق.

تنفرج شفتاها وهي على وشك الهتاف من جديد لكن صوت الخادمة التي ظهرت بصرخاتها أمام البيت يقاطعهما.. يركضان نحوها بلهفة وجلة يستقبلهما صراخها ولطم وجهها بما يناسب الخبر:

- ... ناجي قد اختُطف!

الغصن الثاني عشر

«معك فقط عرفت كيف يمكن أن تحمل عينا رجل كل دفء الوطن.. وكل طغيان الاحتلال!».

***

يتأمل صفوان ملامحها الساكنة وقد استلقت على فراشها بالمشفى الذي نقلوها إليه بعدما سقطت مغشيًا عليها إثر سماعها خبر اختطاف ناجي.. قلبه يخزه بمزيج من الندم والإشفاق.. لو كان الأمر بيده لبنى لها بين ضلوعه قصرًا يحميها فيه من كل ما يؤذيها حتى نفسه!

- صفوان.. لا تتركني وحدي.. عد وهات ناجي معك.. لا.. لا تعد.. آدم سيقتلك.. سيجعل تيوليب تأخذ ابني.. صفوان.. صفوان...

يغمض عينيه بألم وهو يسمع همساتها المتوالية باسمه في غيابات لا وعيها، يبذل ما يفوق قدراته ليبقى واقفًا مكانه، يفتح عينيه أخيرًا ليرى صابرينة تحتضن راحتها بإحدى كفيها بينما تمسد شعرها بالأخرى فيحسدها على قرب لا يملكه، ويبدو أنها شعرت بخبيئته فها هي ذي ترفع عينيها الدامعتين نحوه قائلة:

- لو كانت تعز عليك حقًّا فاذهب واعثر على ناجي.. دعها تفتح عينيها على عناقه.

- وكأن الأمر بهذه السهولة! من يعرف أين هو؟!

تهتف بها بانسيه بسخط عبر عينين محمرتين من فرط البكاء

فتلتفت نحوها الخادمة تلطم خديها لتهتف بين نشيجها:

- يا قلب أمه! من يعرف كيف حاله الآن! من يعتني به ويتفهم حالته! بل ومن يطمئن هذه الغلبانة؟!

تشير بها نحو أرجوان التي لا تزال تتمتم بكلمات غير مفهومة مردفة:

- وقعت أول لما رأت غرفته خالية منه!

يجول صفوان ببصره بينهن بنظراته الثاقبة ليسألها:

- متى كانت آخر مرة رأيتِه فيها؟!

- اليوم صباحًا.. كان مستغرقًا في اللعب بألعابه في غرفته.. تركته لأحضر له بعض الطعام.. عدت فلم أجده!

- منذ متى تتركينه وحده حتى لإعداد الطعام؟!

تهتف بها صابرينة بشك حمل اتهامها لتهتف الخادمة وهي تعود للطم خديها:

- يا ويلي! أفعلها أحيانًا عندما أكون مطمئنة لانشغاله في ألعابه.. كما أن الست بانسيه كانت في غرفتها المقابلة له.. قلت لنفسي تنتبه لو خرج من غرفته.

- ولماذا لم تطلبي مني الاعتناء به حتى عودتك؟!

تهتف بها بانسيه مدافعةً لتلتفت نحو صفوان بقولها:

- لم أر أو أسمع شيئًا غير مألوف.. سمعت صوت صرخاته القصيرة

كالعادة.. ظننته يلعب.. حتى سمعت صراخها هي تهتف أنه غير موجود.

- أنه قد اختُطف!

تصححها صابرينة -صاحبة أكبر ثبات انفعالي وسطهن جميعًا- تخاطب الخادمة بنفس النبرة المتهمة:

- لماذا يخطر على بالك أنه قد اختُطف؟! لماذا لا يكون قد خرج من البيت وحده وضاع في الطريق مثلًا؟! خاصة أن ناجي فعلها كثيرًا من قبل.

تتلعثم الخادمة في جوابها:

- لا أعرف! هذا أول ما خطر في بالي! هو لم يعد يفعلها منذ زمن.. منذ مجيء السيد صفوان.

تقولها وهي ترمق بنظرة شبه مستغيثة ليهز رأسه بجوابه:

- معها حق.. كان أول ما اشتغلت به في حالته أن أجعله يدرك المكان حوله ولا يركض هكذا دون وعي.

تتنهد الخادمة بارتياح لكنه يردف بصرامة:

- لكن هذا لا ينفي ذكاء الملحوظة.. حكمك أنه قد اختُطف جاء أسرع مما يعقل!

- يا ويلي!

تكررها الخادمة بهلع وسط نشيجها ولطمات وجهها وهي تقسم

بأغلظ الأيمان إنها لا تعرف شيئًا أكثر مما قالته.. تذكرهم بخدمتها لهم طوال تلك السنوات فتتنهد بانسيه لتربت على كتفها بطيبة ظاهرة تطمئنها أنها تصدقها، لكن صابرينة تعاود هتافها الشرس الذي يناقض حنان لمساتها لصديقتها الغائبة عن الوعي:

- قسمًا بالله لو كنتِ أنتِ وراء هذا لأجعلك تتعفنين خلف قضبان السجن!

- تعرفين الكثير عن التعفن خلف القضبان.. هه؟!

صراخ نعمان الثائر الذي اقتحم الغرفة لتوه يزيد الغرفة اشتعالًا خاصة وصابرينة تترك أرجوان لتتوجه نحوه فيردف بازدراء:

- لم تنسَيْ حياة الملاجئ بعد!

ورغم تباين مشاعر الحضور بشأنها لكن نظرة واحدة جمعتهم كلهم نحوها الآن.. نظرة مشفقة!

خاصة وهي تلملم بقايا كرامتها المهدورة خلف قناع قوتها بقولها:

- وهل قلت يومًا إني نسيت؟! لو كنت نسيت لما كنت الآن هنا.

يدفعها نعمان بعنف فظ وقد بدا كقنبلة موقوتة بينما يشير إلى أرجوان غير مكترث بحالتها:

- أين كانت هذه عندما اختُطف الولد؟! أين؟!

هنا لا يتمالك صفوان نفسه وهو يندفع نحوه، يمسك تلابيبه ليخرجه من الغرفة هاتفًا بغضب:

- لا ينقصها المزيد من ظلمك وقسوتك.. بالكاد استسلمت للنوم بعد حقنة مهدئة.. «انهيار عصبي»! هذا ما قاله الأطباء لو كنت تهتم!

يخلص نعمان نفسه منه بعنف هاتفًا:

- هذه اللعينة لا تصلح لشيء.. لم تفلح كزوجة ولا كأم.. ضيقت على ابني حياته بل وربما تكون هي قاتلته!

- لن أسمح لك أن تذكرها بسوء من جديد.. كفاها ما نالها من طغيان ابنك الذي ذبح ماضيها.. وتأتي أنت كي تذبح مستقبلها كذلك.

- من أنت كي تقف أمامي؟! وما دورك لتقف هنا معنا؟! كنت تساعدنا لأجل الولد والولد ليس هنا.. ارحل.

لكن صفوان يشد جسده في وقفته وملامحه تنضح بالرفض، يكاد الوضع يشتعل أكثر لولا هتاف بانسيه التي لحقت بهما:

- هل هذا وقت الشجار؟! تعاونا معًا للبحث عن الولد أو على الأقل لا تتجادلا.

- رجالي بحثوا عنه في المدينة كلها.. لا أثر له!

صوته المتغطرس يخونه بغصة ذبيحة وهو يمسح وجهه بكفيه، فيتبادل صفوان وبانسيه نظرة بائسة يقطعها رنين هاتف نعمان الذي تناوله بسرعة ليفتح الاتصال من رقم مجهول:

- ادفع ما نريده وخذ حفيدك.. لا داعي لأن أخبرك أن آخر نفس له مرهون باتصالك بالشرطة!

***

صوت الخطوات الأنثوية يحك الأرض برفق كأنه يرجو لصاحبته سترًا وإن كانت لا تستحقه.. صاحبته التي حملت ملامحها وجعًا أكبر بكثير من سنوات عمرها.. تتوجه نحو مرآتها ترفع ثوبها عن جسدها العاري تتحسس تلك الندبة العرضية أسفل بطنها...

- كان يستحق القتل.. كان يستحق وأكثر!

تهمس بها بحقد وعيناها تشتعلان بنيران تفحم معها قلبها بينما لا تزال أناملها تتحسس ندبة بطنها.

تعيد ستر جسدها ثم تتوجه نحو باب غرفتها تفتحه لتتفقد الرواق حولها ثم تعيد إغلاقه مطمئنة، لتتوجه نحو حقيبة صغيرة مدسوسة وسط حاجياتها القليلة.. تستخرج منها شيئًا ما ثم تتحرك لتجلس واضعة إحدى ساقيها فوق الأخرى...

ثوانٍ وينطلق الصوت البغيض الذي حمله الجهاز.. واحدٌ من التسجيلات التي تعمدت إخفاءها كي لا تُعرف حقيقتها...

أنا الأب

«أنا آدم نعمان الكرملاوي.. كيف أصف شعوري وأنا أعرف أن تيوليب وأرجوان كلتيهما حامل في نفس التوقيت تقريبًا؟! لأول وهلة قلت إن القدر يكافئ أمثالي بعطايا مضاعفة لكنني ما لبثت أن شعرت بتأزم الموقف! لا.. لا.. لا تتعكر حياة أنا سيدها! القليل فقط من التدبير وينتهي كل شيء كما أريد له أن ينتهي. سبقت أرجوان تيوليب في حملها بشهر واحد كأنها تثبت مكانتها في قلبي وتحجز أول مكان لفرحة كهذه.. بينما أعترف أن فرحتي بحمل تيوليب كانت مشوشة.. ظننتها مجرد حصاة ستركلها قدمي متى شئت لكن حملها بطفلي أخلَّ بموازيني.. صارت صخرة لا يمكنني تجاوزها!

طالما سمعتهم يقولون: «إن الأمومة فطرة لكن الأبوة ممارسة».. كذب! أنا أحببت طفليّ من أول يوم عرفت فيه بوجودهما.. أحببتهما بقدر حبي لنفسي.. وبقدر كرهي لنعمان! سيكون لي طفلان أعلمهما القوة ويعلمانني الحب، أجعلهما يتقنان الحيل ويجعلانني أتقن الوفاء، أعلمهما كيف يبقيان ولا يرحلان عني أبدًا، ويعلمانني كيف أضحك دون أن أخاف، كيف أعطي دون أخسر، كيف أقف ولا أخشى لحظة السقوط.

ورطتي الآن في تيوليب نفسها! ماذا أفعل فيها؟! كيف أتخلص منها والأسوأ كيف أحتفظ بها؟! صارت سنامًا على ظهري يهددني طوال العمر! يقولون إن قلب المرأة رادار صادق يدلها على مشاعر من أمامها.. كذب أيضًا! ها هي ذي تصدق تظاهري بحبها.. لا أعرف

هل هي حماقتها أم هو فرط ذكائي!

حماقتها؟! لا.. لا يصح أبدًا أن توصف تيوليب بالحماقة! هي أكثر النساء اللائي قابلتهن ذكاءً.. لكن الحب يطفئ أنوار العقل واحدًا واحدًا ويترك القلب الغافل منعمًا بظلمته.. وهي تزعم أنها تحبني! هي تظنه حبًّا! تصدق أنه حب وأنا أتركها لسَكرتها... لكنني أعرف كيف أصف نفسي في عينها.. «البديل الرابح» لنعمان.. البديل المشابه ثراءً.. لكن الأصغر سنًّا والأكثر وسامة.. والأهم.. الذي يرضي لديها غريزة التملك.. أجل.. بعض النساء يفضلن الارتباط بالرجل المتزوج كأنه «مرشوش عليه السكر»! وأظنها منهن! الحرمان الذي عاشته «جربوعة» مثلها منذ طفولتها يجعلها دودة شرهة تريد نهش أي شيء تطاله يداها! كنت أنتوي التخلص منها سريعًا بمجرد تحقق غرض زواجي بها.. لكن الداهية استطاعت العثور على أرض صلبة تقف عليها! أرض اسمها «ابني»!

عرف نعمان بزواجي منها.. أقام الدنيا ولم يقعدها.. فرحتي بغضبه لا تعادلها فرحة.. أخيرًا انتزعت منه شيئًا يحبه كما انتزع مني أغلى ما أحببته.. لا.. لا يعنيني سخطه فليشتعل حتى يبلغ دخانه عنان السماء! لن يستطيع أن يمسني أو يمس تيوليب بأذى.. أنا أرسلتها إلى مدينة بعيدة عن ناظريه وسأكتفي بزيارات متباعدة لها.. كنت أخشى أن ترفض وتطلب مني إعلان زواجنا لكن الغافلة رضخت لطلبي.. مضحية؟! لا يهمها إلا أن تكون معي! لا.. ليست غافلة ولا مضحية بل «كلبة فلوس»! هكذا هن النساء عندما يمتلكن الذكاء والطموح ويدعسهن الفقر.. تكون الواحدة منهن ساعتها مجرد آلة لا يديرها

سوى وقود المال.. وهي لم تكن استثناء!

لكنني سأعرف كيف أمسكها من عنق طمعها.. كيف ألقي للجرو الصغير الكرة فيركض خلفها وأنا أضمن أنه أبدًا لن يدركها...

آه يا تيوليب! طفل منك يعني حبلًا حول عنقي لكنني لن أترك طرفه في يدك أنتِ مهما كان!

عيشي عزيزتي في قصر خيالاتك وانتظري أميرك كي تفردي له شعرك الطويل فيتسلق البرج إليكِ.. لكن اعلمي أنني متى وصلت فسأجز شعرك كله!

ها هو ذا القدر يخدمني ويبعد تيوليب عن أرجوان كي لا تصطدم إحداهما بالأخرى ولو مصادفة.. أرجوان! آه يا أرجوان! رغم كل عيوبك لا أجد أفضل منك تستحق حب رجل عظيم مثلي! كنتِ رفيقة طفولة وصبا ثم صرت حبيبة وزوجة وأمًّا لطفلي! تعرفين كم أود الآن لو أجوب بك كل الأماكن التي شهدت علينا منذ صغرنا فأريها كم كنت رجلًا صادق الوعد حفظت حبك في قلبي طوال تلك السنوات حتى كافأني القدر بطفلٍ منكِ.. لا تخافي حبيبتي لن أثقل على قلبك الذي تنعم أخيرًا بفرحة كهذه بجرح خيانة.. ستخرج تيوليب من حياتنا كضيف ثقيل لا يستحق إلا ركلة قدم.. ابنها؟! بل ابني أنا! هذا له تدبير آخر لن يعجز عقلي عن إدراكه...».

يتوقف الصوت أخيرًا لكن هذه النيران داخلها لا تتوقف عن التأجج.. كم مرة سمعت هذا التسجيل بالذات؟! كم مرة فقط لتتمكن من إدراك كم كانت مغفلة! كم مرة كررت سماعه وهي تستعيد

ذكرياتها العامرة معه.. «كلبة فلوس»؟!! هل هكذا كان يراها حقًّا؟!!

الألم يتصارع مع الغضب في روحها باستماتة فلا ينتصر أحدهما.. ربما لو كانت الغلبة لأحدهما لاستراحت! فأي جحيم تركه لها! أي جحيم!

تقف مكانها لتتوجه نحو حقيبتها من جديد.. بقي تسجيل واحد لكنها لا تملك الطاقة الآن لتذبح نفسها به من جديد فتتجاهله عامدة.. تمتد أناملها لكيس بلاستيكي شفاف مغلق بإحكام، تفتحه بحرص لتقربه من أنفها.. عندما ماتت أمها وجدت نفسها تركض لتحتفظ بواحد من جلابيبها تغلق عليه كيسًا مخافة أن تتسرب منه رائحتها.. كانت تخشى أن تضيع الرائحة فتضيع معها الذكرى..

كيس آخر يحمل آخر قميص ارتداه أبوها.. رائحة مختلفة لكنما عبقها مشابه على روح تشمه بقلبها لا بأنفها...

كيس ثالث تركته فارغًا منذ ست سنوات.. عندما أخبروها أن ابنها قد مات.. من ذا يجرؤ على القول إنه رغم كونه فارغًا لا يحمل رائحة؟! أي عبق إذن هفهف على روحها طوال تلك السنوات وقرع قلبها بمطارق الاشتياق مرة.. والفقد مرة.. والوجع ألف مرة!

ها هو ذا الكيس الرابع.. احتفظت فيه بما يخص آدم.. لا ليس قميصه بل خاتمه.. خاتم زواجهما الذي انتزعه نعمان من إصبعها ليلة الحادث الذي أخبروها أنها فقدت فيه جنينها قبل أن تراه.. ومنذ أيام فقط جاء بعد ست سنوات بأسرها كي يضعه في إصبعها بنفسه معترفًا بالذنب نحوها!

الغبي يظن أنها صدقت تمثيليته التي أجاد تمثيلها بعد مقتل آدم.. حنانه المفاجئ.. ضميره الذي استيقظ فجأة تأثرًا بوفاة ابنه.. إلحاحه أن تنتقل إلى السكن في بيته بعد احتراق بيتها -غير المبرر- وإعادتها للعمل في مصنعه كي تكون تحت رعايته -كابنته- حتى يكفر عن ذنبه وذنب ابنه في حقها!

الخاتم الذي تستخرجه من كيسه لترفعه نحو أنفها.. اختلطت فيه رائحة آدم برائحة نعمان برائحة الدم.. والظلم.. والقهر!

آهة عالية تسمح لها أن تغادر صدرها.. آهة تتبعها بأخريات وأخريات حتى يهيأ إليها أنها نزفت روحها نفسها...

ليلة الحادث! ليلة الحادث.. مكالمتهما التليفونية ساعتها:

- هل أطمئن حقًّا؟! صرتِ تجيدين القيادة؟!

- صرت أجيد الهروب أيضًا.

- تلومينني أن أبعدتك؟! تعرفين ما كان سيحدث لو بقيتِ في مدينتنا.. تعرفين كم حاجزًا يفصل بيننا.

- أعرف.. أعرف.. لا ألومك ولن أفعل.. على العكس.. أنت منحتني فرصة جديدة للتنفس بعيدًا عن كل الضغوط.. ليس أنا فحسب.. بل...

تقطع عبارتها وهي تمسد بطنها البارز الواشي بشهر حملها السابع على الأقل لتردف بتنهيدة عالية:

- طفلنا كذلك.

- تعرفين كم أشتاق لأن أحمله بين ذراعيّ.. أمنحه اسمًا لم يحمله أحد قبله.. آه لو يدلني أحدهم على سوق للأقدار لاشتريت له أجمل قدر ولو بعمري كله!

- وماذا بيدنا أن نفعله؟!

- الكثير! اطمئني ولا تخافي.

اقتضابه المعهود يقطع حبل بوحها وإن بقيت حبال الخوف عصية.. فتكتفي بسؤال حمل نبرة رجاء:

- سأراك قريبًا؟!

- قدر ما يمكن لقلبي أن يحتمل شوقه إليكِ.

- إذن قريبًا جدًّا.. جدًّا!

تهتف بها بعمق يقينها فيه فتمنحها ضحكته جائزتها الفورية.. جائزة قصيرة العمر فقدت رونقها مع المكالمة الأخرى التي قطعت مكالمتهما وأجبرتها على النظر إلى الشاشة!

قلبها يكاد يقفز خارج صدرها بهلع وسبابتها تضغط زر الإلغاء مع رؤيتها لاسم المتصل.. نعمان!

الكابوس القديم الذي تود لو يمكنها التخلص منه!

- لماذا سكتِّ؟! أنتِ بخير؟!

صوته القلق يأتيها متزامنًا مع إعادة الطرف الثالث قطع مكالمتهما فترتعش سبابتها مرة أخرى وهي تستبعد المكالمة من جديد...

هل تخبره بما يجري؟! هل تخبره أن الكابوس الذي هرب منه كلاهما عاد يطاردهما؟!

- لا!

هتفت بها تنهى نفسها عن خاطرها الأخير لكنه فهمها كجوابٍ لسؤاله فعاد يهتف بصوت أعلى:

- ماذا يحدث؟!

تنتبه لنفسها فتأخذ نفسًا عميقًا لتكسو صوتها بنبرة مرحة خادعة بعد بضع آهات متوجعة:

- دلال طفلك المعهود.. سيكون متعبًا كأبيه.

- توقفي عن القيادة الآن واستقلي سيارة أجرة.. غدًا أدبر لك الأمر وأرسل إليك سيارة بسائق.

- غيرت رأيك بشأن السائق إذن؟! اقتنعت!

تسأل بنبرة ماكرة مدركة غيرته التملكية بشأنها ليطلق زفرة حانقة:

- نحتمل قليلًا.. قليلًا جدًّا.. وبعدها لن أتركك تغيبين عن عينَي لحظة واحدة.

- عِدني.

لم تستطع منع ارتجافة صوته بها وهي تكررها:

- عِدني ألا نفترق أبدًا.

يتوقف جواد الذكرى عن الجموح فجأة فيكاد يلقيها من فوق ظهره! ليلتها منحها المخادع وعده.. وعدًا كاذبًا كسائر وعوده! صدق حين قال إن الحب يطفئ أنوار العقل.. وهي أحبته حقًّا مهما ظن أنه كان في عينها مجرد صفقة رابحة!

بعد وفاة أبيها لم يكن أمامها سوى العيش كنمرة محاربة، تظهر أنوثتها بالقدر الذي تجتذب به زوجًا مناسبًا وتخفي وهنها خلف مخالب بارزة تجيد شحذها قدر استطاعتها.. وعندما جاءتها فرصة العمل في مصنع «نعمان الكرملاوي» ظنتها ضحكة الحياة التي تأخرت لها، لم تكن تعلم أنها مجرد تكشيرة عن أنيابها!

حتى في حرب الضواري هناك وحش أشرف من وحش.. ونعمان كان أشرف من ابنه.. كان واضحًا فيما يريده منها وما سيعطيه لها.. ما الذي جذبها في نعمان؟! تراؤه أولًا! هي أدرى بعلّة نفسها ولن تكذب فتدعي غير ذلك! لكن هذا لم يكن فقط ما يعنيها.. هي أرادت الأمان.. الستر.. الاحتواء وجاءها نعمان بغلاف أنيق باهظ لكل هذا.. فكيف ترفضه؟!

لكنها ما كادت تغلق الباب خلفه قانعة بنجمة السماء التي سقطت في حجرها حتى فوجئت بنجمة أكبر تعيد طرق الباب! نجمة؟! لا.. وقتها كانت تراه القمر نفسه! كان آدم.. ابنه! من يلومها لو أعادت فتح الباب من جديد؟!

عندما تحرش بها آدم لأول مرة يراها فيها في مصعد الشركة صفعته غير نادمة حتى وهي تعلم إلى أي مصير قد تسلمها حركة

كهذه مع احتياجها إلى العمل في الشركة! لم تكن تعلم أن هذا سيفتح لها بابًا في عقل مختل مثله لا يرى في النساء إلا كما علمه أبوه.. منشفة يمسح فيها يديه بحرص يشبه الحنان ثم يلقيها غير مكترث بما تركه عليها من دنس!

أجل.. تعترف أنها عندما سمعت عن حبه لزوجته والذي يتناقلونه في المدينة كالأساطير تمنت لو كانت مكانها.. لو تدرك قيمة كهذه في قلب رجل مثله.. ربما لهذا سقطت سريعًا في الفخ المنصوب لها.. ربما لهذا صدقت أكاذيبه التي لم تكن تشبه الأكاذيب.. ربما لهذا سمحت لقلبها أن يلقي نفسه في بحره الهائج دون حذر.. ربما لهذا أغلقت الباب خلفه حقًّا هذه المرة قانعةً بأن يكون هو كل نصيبها من خزائن الحب!

متى سقط القناع عن وجهه لتبدو لها تقرحاته القبيحة؟! متى انخلع عنه رداؤه لتبدو لها كتفاه نحيلتين لا تسندان رأسًا ثقيلًا كرأسها؟! متى خلع قفازيه لتبدو لها كتفاه ملطختين بالدماء؟! وليست أي دماء بل دماء ابنها؟!

تغمض عينيها بقوة عند الخاطر الأخير وهي تعتصر الخاتم في قبضتها حتى يدميها لكنها لا تبالي.. لا تريد تذكر المزيد الآن.. لا تريد...

رنين الهاتف يقاطع أفكارها فتأخذ نفسًا عميقًا وهي تتناوله، تفتح الاتصال بلهفة من ينتظر خبرًا محوريًّا.. تستمع قليلًا ليخفق قلبها بجنون وعيناها تشتعلان ببريقٍ قاسٍ.. لم تفقه من كلام محدثها

الكثير بمجرد ذكره لـ «اسم واحد».. أربعة أحرف فقط كفيلة بإيقاظ كل شياطين الانتقام داخلها...

"ناجي!"

***

على الأرجوحة الصدئة التي أزالت غطاءها تجلس بانسيه في حديقة قصر الكرملاوي، تمسك أحد طرفَي الأرجوحة بذراعها والأخرى تتركها معلقة.. قديمًا كانت تعانق الفراغ.. الآن تشعر وكأنها تتشبث بطيف شخص بعينه.. طيف لا تريد الاعتراف بحقيقة وجوده.. فليبقَ طيفًا أفضل! لم يعد العمر يسمح بالمزيد من ضلالات الأمل!

تتنهد بحرقة وهي تحاول الطفو بأفكارها فوق سطح مشاعرها.. البيت كله يغلي فوق صفيح ساخن منذ اكتشاف حقيقة موت آدم والآن الكارثة الجديدة باختطاف ناجي وسقوط أرجوان!

أرجوان! كم تشفق عليها! كم تشبهها كأسيرة لظلم هذا البيت...

لكن.. هل هي أرجوان فقط من تشفق عليها؟! صابرينة كذلك! بل وتيوليب! كلهن زهور لم يبقَ منها سوى الشوك ويلومونها على شح العبق!

تمسك قلمها ترسم إحدى قصصها الكاريكاتيرية المصورة.. كالعادة تحاول الهروب من حزنها بالرسم.. رضيع ينام هانئًا جوار أمه.. يحمله رجل.. يأخذه ويمشي.. يكبر الرضيع يصير طفلًا.. يصرخ دائمًا..

فراشه صار خاليًا منه وجواره تبكي أربع نساء.. هي الآن واحدة منهن!

- لا تبكي.

تشهق للمفاجأة وهي تمسح دموعها بينما ترفع وجهها نحو مصدر الصوت:

- غيث! ماذا تفعل هنا؟!

يبتسم وهو يقترب ليجلس جوارها فتنكمش على نفسها غريزيًّا وهي ترمقه بنظرة مستنكرة، رغم كل شيء يبدو لها وجهه وسط الظلمة النسبية للمكان كقمر يؤنس وحشتها ولا يؤذيها تلصص نجومه!

- جئت أطمئن على وديعتي.

- أي وديعة؟!

تهمس بها بارتباك وهي تتلفت حولها خشية أن يراها أحدهم فيجيب بهمس دافئ:

- شيءٌ تركته لديكِ.. ورغم أنه غالٍ عندي لكنني لا أريدك أن تعيديه أبدًا! أدعو ربي أن يبقى معكِ طوال العمر.

ماذا يعني؟! لا تفهم.. بل تفهم.. لكنها لا تريد أن تصدق.. بل تصدق.. لكنها لا تريد أن تأمل.. بل تأمل.. لكنها لا تريد أن تتجرع الخذلان من جديد!

- ارحل فورًا.. لن يكون جيدًا أن يراك أحد هنا الآن معي.. كما أن هذه الأرجوحة لها قدسية خاصة عندي.. لا أستسيغ أن يجلس أحدهم عليها.

جفاء كلماتها يليق بتجاهلها لعبارته السابقة لكن لو لم يشفع لها صوتها الملائكي هذا، حمرة وجنتيها التي تتألق حتى في هذه الظلمة، رجفة كفيها اللتين تداري جرمهما الآن وهي تدسهما في جيبيها، فماذا يشفع؟!

لو كانت هذه دعوة للرحيل فأهلًا ألف أهلٍ بالبقاء!

لهذا يستريح بظهره للخلف أكثر باسترخاء مغيظ يسألها:

- هل يمكنني تخمين أي قدسية خاصة لهذه الأرجوحة؟! ربما.. تتعلق بشخص ما مثلًا؟! شخص ودعتِه أخيرًا كما يليق!

- من تقصد؟!

صوتها المرتبك يوازي قفزة خاطرها لذكرى لقائها الأخير بحبيبها القديم.. بينما يبتسم غيث مجيبًا بنبرته المرحة:

- لا.. لا.. لا تكذبي.. إني رأيتكما معًا.

يقولها منغمة مقلدًا لحن أغنية قديمة فتنتقل عدوى ابتسامته إليها رغمًا عنها وهي تحك أنفها بتوتر يجعل نبرته تنتقل للجد وهو يهز رأسه بقوله:

- أعجبني ردك عليه يومها.. بصراحة شفى غليلي.

- كنت تتنصت علينا؟!

استنكارها يقابل لمعة العاطفة الحازمة في عينيه وهو يرفع كفه بجوابه:

- نعم! ولن أعتذر عن شيء كهذا!

تشيح بوجهها تخفي فورة انفعالاتها عنه فيصلها همسه:

- لماذا سكتِّ؟!

- لا أعرف الرد المفترض على كلام ككلامك!

ضجرها المصطنع لا يليق بخيط النور الذي تغزله ضحكته الآن في روحها وهو يتناول منها دفترها يتأمل ما رسمته:

- أحب رسومك.

- ليست مجرد رسوم.. هم أصدقائي.. عائلتي.. وأحيانًا أعدائي.. هي صوتي الذي سكت طوال هذه السنوات.. ركْض خطواتي التي حبسها عجزي فوق كرسيّ.. هي أنا الحقيقية وليست الصورة التي انعكست على عيونها!

- لهذا قلت إنني أحبها.

من جديد تهرب وهي تتجاهل قوله، تسأله بفضول حذر:

- رأيت واحدة منها على مكتب غرفتك يومًا ما في بيت راوية!

- واحدة فقط؟!

- تحتفظ بغيرها؟! من أين أتيت بها؟! ولماذا؟!

ترفع حاجبيها بدهشة فيشيح بوجهه لتعاود سؤالها:

- لماذا لا تزد؟!

- أهرب كما تهربين.. لستِ وحدك من تجيدين لعبة الاختباء!

يرفع بها حاجبه بمكر فتلتقي ابتسامتها الواهنة بتنهيدتها في مزيج مدهش، تطرق برأسها لبضع دقائق طال فيها صمت كليهما ولم يقطعه سوى هدير خفقاتهما.. وأخيرًا سؤالها الذي خنق الحزن حروفه:

- لماذا أنت هنا؟!

- كي أطمئن عليكِ.

ترفع عينيها إليه وقد تعبت من الهروب ليردف بجدية:

- لم تتح لنا فرصة الكلام منذ سمعنا تسجيلات آدم تلك الليلة وبعدها جاءت حادثة خطف ناجي لتطيح بعقولنا.. ما يطمئنني قليلًا أن السيد نعمان لن يقف مكتوف اليدين وسيستعيد حفيده مهما كان الثمن خاصة والخاطف لم يطلب سوى المال.. لكن ما يحيرني سؤال آخر: تظنين الفاعل واحدًا؟! قتل آدم وخطف الولد؟!

شبح الذنب يتراقص في عينيها الدامعتين وهي تعاود حك أنفها بتوتر زائد فيسألها بشك:

- أنتِ تخفين شيئًا؟!

تبسط راحتها على صدرها وهي تطلق شهيقًا بعد زفير عدة مرات لتهتف بها أخيرًا:

- ربما أكون أنا.. أنا من قتلته!

يرتد إلى الخلف مصعوقًا بينما تهتف هي بين زخات دموعها:

- أنا أول من سمعت تلك التسجيلات كاملة وسرقتها من خزانة آدم! ليلتها كنت أمُر من أمام غرفة مكتبه ليلفت انتباهي صوت حديثه مع أحدهم.. كان يتكلم عني.. أثار هذا انتباهي فاختبأت أنتظر خروجه لأعرف مع من كان يتكلم.. دخلت الغرفة خلسة لأكتشف أنها خالية.. قلت إما إنه مجنون يكلم نفسه أو إنه يسجل شيئًا بصوته.. الحدس الأخير دعمته ملحوظة صغيرة.. كرسي مكتبه لم يكن مقابلًا للمكتب كما يفترض بل للخزانة الجانبية التي يحتفظ بها بأغراضه.. كانت مغلقة بكلمة سر.. قضيت الليلة كلها أحاول استنتاجها بما أعرفه عن طبيعة آدم.. جربت كل ما يمكن أن يكون منها لديه حتى هداني عقلي لهوسه بأمه.. كان تاريخ موتها هو كلمة السر!

يزداد انعقاد حاجبيه وهو ممزق بين نارين.. قلبه يريد معرفة الحقيقة كي يمكنه دعمها وعقله يخشى التورط في المزيد من الخفايا بينما تلوح هي بذراعيها مردفة:

- ليتني ما فتحتها! ليتني ما سمعت! كيف تتصور شعوري عندما سمعت أنه كان يظنني أكرهه؟! ربما لم أستطع أن أحبه كما ينبغي.. لم أستطع منحه ما حرمني منه أبوه.. وقبله أبي أنا.. لكن يشهد الله أنني لم أرِد به يومًا أي سوء.. أجل.. أعترف أنني كنت أرى في فخر

نعمان به مرآة لخيبتي وخذلاني وظلمي أنا.. حتى إنني لم أستطع البقاء طويلًا في حفل عرسه.. من يلومني؟! من يلومني وقد رأيت نفسي منسية في أعين الجميع.. حقي سقط بالتقادم.. لم تزده السنين إلا ضياعًا!

يومئ برأسه متفهمًا فتمسح دموعها لتهتف بحرارة:

- ذنبي كله أنني أردت أن ينهدم المعبد فوق رؤوس الجميع.. ومع أن جزءًا داخلي كان يشفق عليه وهو يراه صنيعة نعمان ومن قبله أبي.. لكنني أردت أن ينفضح الوحش الذي كان يسكن داخل آدم.. فليعرف الجميع حقيقته! أجل.. لست وحدي من سمع هذه التسجيلات.

- ماذا تقصدين؟!

- كنت أكثر جبنًا من أن أظهرها هكذا بنفسي.. أرسلتها إليها في مظروف مغلق دون أن تعرف هي مَن مُرسِلها.

- من هي؟!

تتردد قليلًا لتجيب بتنهيدة:

- أرجوان.. ظننت أنها أكثر من يستحق أن يسمع تلك التسجيلات كي تنجو بما بقي من عمرها.. لكنني لم أحسب قط أن يكون هذا سببًا في قتل آدم.

صوت حفيف الحشائش القريب يجفلهما فتنتفض مكانها فجأة بشهقة وهي تهتف:

- من هناك؟!

يسبقها غيث بالركض نحو مصدر الصوت لكنه لا يتبين أحدًا.. فيلتفت نحوها لتروعه ملامحها الشاحبة وهي الأخرى تبحث حولها عن مصدر الصوت.. دون جدوى!

وفي غرفتها التي تغلق عليها بابها بسرعة بعد ركض حذِر تأخذ «الشاهدة» نفسًا عميقًا تتمالك نفسها بعد ما سمعته منهما بالأسفل...

الحلقة تضيق حولها والأمور تزداد سوءًا.. لكنها ستعرف كيف تدير الأمور لصالحها كالعادة.. تتوجه نحو مرآتها وعيناها تضيقان بتفكير عميق.. لتلتوي شفتاها بابتسامة شاحبة وهي تحدث نفسها عبر المرآة:

- اهدئي يا «صابرينة».. اهدئي وفكري جيدًا كي تكوني الرابحة الكبرى في هذه اللعبة.. لن يخذلك ذكاؤك هذه المرة أيضًا.. اصبري وسترَيْن!

***

- تمامًا كما توقعت أنت! أرجوان سمعت التسجيلات من قبل!

يخاطب بها غيث صفوان أمام البئر القديمة وقد وقف كلاهما جوار راوية التي بدت وكأن الحزن ضاعف تجاعيد وجهها.. حزن يشبه توأمه على وجه صفوان الذي تمتم:

- «عيب يا لذيذ.. هو أنا تلميذ»!

حتى هذه خرجت منه هذه المرة مريرة كسيرة باهتة.. ما أقسى

أن يخاف على حبيبته وأن يخاف منها في نفس الوقت! هل فعلتها أرجوان حقًّا؟! هي من قتلت آدم؟! من خطف ناجي إذن؟! نعمان؟! كي يجبرها على الاعتراف؟! صابرينة؟! لماذا تفعلها؟! للتمويه على الجريمة الأولى؟! تيوليب؟! أين اختفت هذه ولماذا؟! تكون هي من خطفت الولد؟! لماذا؟! لأجل المال فحسب؟! أف! تبًّا لكل هذه التساؤلات التي تملأ عقله.. بل تسلب عقله!

- حقًّا! لم تظلل أشجار الكرملاوي عاشقين!

تغمغم بها راوية بحسرة وهي تنظر إلى هوة البئر المظلمة.. ترفع عينيها نحو البدر المكتمل لتردف:

- بانسيه.. أرجوان.. صابرينة.. وتيوليب! أنا رسمت لكل واحدة منهن نفس الوشم بيدي.. لهن ولغيرهن من بنات المدينة ممن ظننتهن متشابهات في الجرح.. زهرة منغلقة على نفسها كأنها برعم تتحرر إحدى بتلاتها مبتعدة عن البقية فلا تعرف هل تهرب منها أم تسقط عنها.. كلهن أُدميت قلوبهن بجرح لا ذنب لهن فيه.. بانسيه التي عانت ظلم عائلتها في نصرةٍ لشقيقها الذكر الذي يفوز دومًا في أي مقارنة.. عيروها بعجز ليس لها ذنب فيه وانتزعوا منها حبها وسعادتها.. حرموها أبسط حقوقها وتركوها منزوية في الظل.. أرجوان التي دفعت ثمنًا لانفصال أبويها.. عاشت عمرها بعُقدة ألا تفقد زوجها مهما فعل بها كي لا تُعيَّر بأنها أنثى فاشلة.. صابرينة التي قاست عذابها من أول يوم.. قتلوها قبل حتى أن تفهم معنى الحياة.. وضعوها دومًا في قفص الاتهام حتى صدقت أنها ضالة.. رموا لها الفتات حتى صدقت أنها ما عاد يشبعها ألف رغيف! فتحت

هدية الحب أول مرة ورمتها عندما وجدتها مدنسة بالغدر والاحتقار وعندما فتحتها للمرة الثانية وجدت العلبة خالية ومع هذا رضيت بأن تصدق أن داخلها خاتمًا من ماس! حتى تيوليب التي يرجمونها راضين أن تكون شيطانة الحكاية.. لم تكن سوى زهرة أذبلها الفقر والحرمان.. كلهم وصموها بفقرها وجعلوا المال قيدها.. وعندما صدقت سحابة أمطرت فوقها.. أهلكتها صعقة البرد!

يتبادل صفوان وغيث نظرات بائسة فيما تردف راوية بابتسامة متهكمة:

- حتى نعمان كان زهرة.. تصدقان؟! تسمعان عن «شقائق النعمان»؟! زهرة برية حمراء جميلة قيل إنها نبتت على قبر «النعمان بن المنذر» عندما داسته الفيلة إذ رفض الخضوع لغريمه وتسليم نساء العرب.. يومًا ما كان يليق قلبه باسمه.. أحب واحدة من فتيات المدينة.. كانت قريبتي لهذا عرفت قصتهما.. هام بها عشقًا.. لكن أهله أجبروه وهو في الثامنة عشرة من عمره أن يتزوج ابنة عمه المريضة لأجل الحفاظ على إرث العائلة.. أشهد أنه حاول المقاومة قدر استطاعته لكنه رضخ في النهاية...

- وقريبتك التي أحبها؟!

يسأل صفوان بفضول لتجيب بآهة طويلة:

- اختفت من المدينة.. قالوا إنها هربت.. وقالوا إنها قتلت نفسها.. لم يعثر عليها بعدها قط.. لكنها تركت له رسالة: «ستبحث عني في كل امرأة ولن تجدني.. أنا عمرك الذي ضيعت أوله ولن تدرك أبدًا

آخره».

ينعقد حاجبا صفوان وهو يفهم لتوه علة نعمان.. هوسه بالزواج المتكرر من فتيات صغيرات.. بل ومشاعره القاسية نحو آدم بالذات.. هذا الخاطر الذي تكمله راوية بقولها:

- لم يستطع نعمان أن يحب آدم كما ينبغي.. أراد لكنه لم يستطع.. كان في عينيه صورة لرجولته التي باعها لأجل المال.. لحبه الذي أزهقه مقابل ضعفه.. كما نرى هي دائرة لا نعرف لها أولًا من آخر.. على حافة نصل الحقيقة يمشي الجميع مجبورين.. من الظالم؟! من المظلوم؟! وحده نزف الوجع يجعل القلوب سواسية!

يطلق غيث زفرة قصيرة وهو يرفع رسوم بانسيه التي لا تزال في يده منذ غادرها.. يتأملها ليتمتم:

- لكنهم كلهم ملكوا حق الاختيار.. أو على الأقل التغيير.

- أحيانًا يكون الاعتياد أقوى أعداء النفس.. القالب الجاهز أكثر أمانًا من الانسكاب في وعاء غريب.. وأحيانًا تكون زلة قدم واحدة كافية ليجد الواحد نفسه متدحرجًا في طريقه من القمة إلى القاع بسرعة لا تكفي للتوقف.

تقولها راوية بحكمة فيهز صفوان رأسه موافقًا وهو يتناول الأوراق من يد غيث يتأملها بسؤاله:

- بانسيه رسمت هذا؟!

يهز غيث رأسه وهو يختطف الأوراق منه قائلًا:

- أسرار ناس هذه! من أذن لك بلمسها؟!

- هل صارت الشخبطة أسرار ناس الآن؟!

- إنه فن يا أستاذ.. فن.. لكن من يفهم؟!

تبتسم راوية رغمًا عنها لمجادلتهما المعهودة، خاصة وهي تجد صفوان يختطف الأوراق ليسير مبتعدًا بها عن مرمى يد غيث الذي يعاود خطفها منه.. لكن صفوان يقطب حاجبيه ليهتف فجأة بنبرة جادة:

- ثانية واحدة! أرِني هذه من جديد!

يهم غيث بالرفض لكن هذه النظرة في عين صديقه تخبره أن الأمر مهم.. يناوله غيث الأوراق فيتطلع إليها صفوان بتركيز.. طفل رضيع ينام جوار أمه.. يأخذه رجل ويمشي بينما المرأة لا تزال نائمة.. المرأة شعرها مموج! غريب! يكبر الرضيع ويصير طفلًا يصرخ...

مهلًا.. مهلًا.. فكرة مجنونة تدور برأسه وتجعل عينيه تتوهجان.. فيسأله غيث باهتمام:

- أعرف هذه النظرة في عينيك.. ما الذي يدور ببالك؟!

تراقبهما راوية بحذر بينما يشير صفوان نحو الأوراق هاتفًا بانفعال:

- تيوليب كانت حاملًا ليلة الحادث منذ ست سنوات.. أين ذهب طفلها؟! كيف غفلنا عن هذا؟!

تطرق راوية برأسها مكتفةً ساعديها دون رد.. ليتردد الصوت

الأنثوي خلفهم بنبرة ساخرة مريرة:

- ألم تعرف بعد؟!

يلتفت صفوان وغيث إلى مصدر الصوت لتتسع أعينهما بصدمة مع مرأى المرأة التي سقط ضوء البدر كاملًا على وجهها ليمنحها طلة مهيبة فيما تتقدم نحوهما:

- تيوليب! تيوليب عادت!

الغصن الثالث عشر

«على حافة نصل الحقيقة يتحرك الجميع مجبورين.. من الجاني؟! من الضحية؟! وحده نزف الوجع يجعل الجميع سواسية».

***

أنا العادل

«أنا آدم نعمان الكرملاوي.. مات ابني من أرجوان! مات بعد ولادته بقليل لكنني كنت أكثر حظًّا منها فرأيته وضممته وشممت رائحته أما هي فلم تره ولن تراه أبدًا.. أجل هي بقيت في إغماءتها بعد ولادة متعسرة استغرقت الكثير من الوقت أفاقت منها لتدخل كذبة أظنها ستبقى داخلها طوال عمرها!

مات ابن أرجوان! مات بعدما ملأت عيناي من ملامحه التي -للعجب- كانت تشبهها هي تمامًا.. كأنه قطعة منها! هي أحب أهل الأرض لقلبي! كيف أصف شعوري إذن وأنا أواريه التراب؟! كيف أحكي عن غصة قلبي وأنا أراه يختفي من أمام عينَي رويدًا رويدًا بعد شهور طويلة حلمت فيها بلون عينيه وشعره.. بصوت ضحكته.. بأول قُبلة لخدِّه وأول لمسة لشعره وأول ضمة لجسده.. بأول سن تنبت فتخدش حدته إصبعي الموضوعة في فمه.. بأول «بابا» يقولها.. بأول خطوة يمشيها وقبضته الصغيرة في يدي.. بأول مرة يركب فيها دراجة أعلمه قيادتها كما أعلمه كل شيء بعدها.

مات ابني من أرجوان! مات وأخذ معه نصيبًا من العمر.. من القلب.. من الفرح.. لا أظنني سأستعيده بعدها أبدًا!

أي ظلم هذا أن يموت ابن أرجوان ويحيا ابن تيوليب؟! لا.. لا.. من مثلي لا يرضى أبدًا بظلم كهذا! أنا سأعيد توزيع الأنصبة فأمنح من تستحق وأمنع عمن لا تستحق.. ها هو ذا قدري يؤازرني من جديد.. رب الكون يرسل إليّ إشاراته أنه لن يخذلني.. بل يختبرني.. وأنا

دومًا أنجح في اختباراتي.

آه! يا الله! يا مدبر الأمر العظيم! يا حاميًا ومباركًا خطواتي! وأنا الذي كنت ساخطًا عندما عثر نعمان على تيوليب ليلة الحادث.. منذ متى كان هذا الحادث؟! شهر تقريبًا! الحادث الذي أشهد الآن أنه قد غيَّر أقدارنا جميعًا! قبل الحادث بدقائق فقط كانت تكلمني على الهاتف.. شعرت أنا بارتباكها يومها لكنها كذبت عندما سألتها زاعمة أنها متاعب الحمل المعهودة.. لم أكن أعرف وأنا أغلق معها الاتصال واعدًا إياها بإرسال سائق خاص لها أن مصيرها ومصيري معها سيُكتبان من جديد فبعدها بقليل كان نعمان قد تعقبها ليعتدي عليها حد أنه كاد يفقدها طفلنا!

هذا الحادث كاد يودي بسمعته وسمعتي معه لو كشفوا حقيقة الوضع.. لكن نعمان كعهده عرف كيف يُخضع تيوليب ويخرس آهتها.. بل وجعلها تشهد بنفسها أنه ليس هو من آذاها!

أجل.. أخضع نعمان تيوليب.. ليست وحدها بل عرف كيف يلوي عنقي أنا الآخر!

أخبرني ساعتها وعيناه تنضحان بالجبروت أنه لن يقبل تيوليب وابنها.. كان يقول هذا وهي تخوض معركتها داخل غرفة العمليات بعد ما فعله بها.. معركتها الضارية لتفوز بابني!

ومع رضاي الغامر وقتها باليأس المهزوم في نظراته والذي يداريه بكل هذه الغطرسة لكنني كنت أشعر بقلق حقيقي مما يمكنه فعله.. ليس بي وبتيوليب فحسب بل بكشف الأمر لأرجوان!

«أعرف لماذا تزوجتَ أنت تلك الكلبة.. لكنها لن تكون أم حفيدي أبدًا.. أمامك حلان لا ثالث لهما.. إما أن تقبل ما سأقوله وإما ارحل بها وانسَ كل ما و«من» داخل بيت الكرملاوي».

كان يقولها ضاغطًا حروف «من» كأنه يعرف أنها يدوس بها على قلبي! أرجوان وطفلي منها! لهذا كنت أتوجس مما ينتويه لكنني عندما عرفته كدت أشكر تفكيره الشيطاني.. والآن أشكره أكثر!

تظن تيوليب أن طفلها مات بعد ولادته.. نعمان تدبر الأمر ليقنعها بذلك.. بينما توليت أنا بقية المهمة لأقنعها بنبرتي التمثيلية أن انفصالنا خير لنا.. كم كنت عبقريًا في الأداء وأنا أهمس لها بصوتي المهزوم أن الشر قد انتصر.. وأن جبروت نعمان أقوى منا معًا.. وأنني لا أخاف على نفسي بل عليها هي.. دموعي كانت حاضرة بسخاء وأنا ألقي عليها يمين الطلاق قائلًا إنه ربما كان من الخير لطفلنا ألا يولد في عالمٍ قاسٍ كهذا.. ولأنني كنت أعرف مفتاحها تركت لها «شيكًا» بمبلغ يكفي لتبدأ حياة جديدة بعيدًا عنا بعدما أدت غرضها في حياتي!

الغبية المتلاعبة كانت تبكي بجنون وهي تودعني.. إحدى كفيها تتشبث بكفي باستماتة فيكاد الرائي يصدق دموعها لولا انقباض كفها الأخرى بنفس التشبث على «الشيك»!

«كلبة فلوس» كما ظننت دومًا! الحمد لله أنني أنقذت ابني من أم كهذه! كنا ننتوي أن نربيه سرًّا خفيةً عن الأعين لكن موت ابن أرجوان جاء ليضع الأمور في نصاب آخر.. الآن أستطيع أن أمنحه

الأم التي تستحقه! أرجوان!

كيف فعلتها؟! المال يفتح كل الأبواب المغلقة.. فتحت أرجوان عينيها بعد إفاقتها لتجد رضيعًا بين ذراعيها.. رضيعًا يشبهني أنا! قلنا إنه ابنها.. فكان! أصر نعمان أن يسميه «ناجي» على اسم والده ورأيت أنا في اسمه بشارة ودلالة لقدره.. هو نجا وأنجاني معه من نزوة قبيحة كانت لتبقى طوال العمر سنامًا على ظهري!

الآن تترتب «اللوحة» كما أريدها أنا.. أنا العادل! تخرج تيوليب منها بركلة قدم تستحقها.. وداخل إطارها تربي أرجوان ابني غافلةً عن حقيقته.. أحيانًا أشعر بالشفقة على أرجوان وأنا أراها تتعب في تربية طفل هو في الحقيقة ثمرة خيانتي لها.. لكنني أعود فأقول لنفسي إنني أكرمتها آخر كرم عندما أعفيتها من تجرع مرارة حزن كالذي عشته وأنا أدفن ابننا.. لو عرفت هي الحقيقة يومًا فأتمنى أن تكون عاقلة بما يكفي لتفهم أنني مننث عليها كالعادة واخترت لها الأفضل.. لكن من سيخبرها الحقيقة؟! فلتبقَ جاهلة منعَّمة.. الوهم أرحم بنا من الحقيقة أحيانًا!».

***

«كلٌّ يبكي على ليلاه!»، هكذا فكرت راوية وصوت آدم ينقطع من التسجيل الأخير الذي يسمعونه الآن في بيتها بعدما جاءت به تيوليب نفسها! كلٌّ يبكي على ليلاه! هكذا شعرت راوية وهي ترى صفوان يتمتم بلمعة عين حقيقية: «أمي بريئة.. لم تكذب عليَّ».. فيما كانت تيوليب منكسة الرأس محمرة الوجه مرتجفة الجسد

كأنها تشهد لحظة ذبحها قهرًا من جديد.. أما غيث فيهتف بلهفة من يخشى على محبوبته:

- كيف وصلت هذه التسجيلات إليك؟!

آخر معلوماته أن بانسيه أرسلتها إلى أرجوان دون أن تخبرها بهوية المرسل.. الإجابة التي حصل على مثلها الآن من تيوليب -للعجب- وإن اختلف المُرسل -كما يبدو-:

- أحدهم أرسلها إليَّ دون ذكر اسمه!

ينعقد حاجبا صفوان بشدة وهو يكاد يجزم بهوية المرسل.. أو المرسلة.. أرجوان! من سواها؟! كانت تعرف طوال هذا الوقت؟! لماذا كتمت هذا؟! البائسة! هل يلومها على كتمانها أم يشفق على كل ما اضطرت إلى السكوت عنه؟! والأهم! هذه الجانية أمامه! تيوليب! جانية؟! هل يجرؤ على وصفها بهذا؟! هل يمكن أن يكون آدم ذاك ضحية؟! يا الله!! كيف تتماوه الصور كل هذا الحد فلا يُميَّز ظالم من مظلوم؟!

لهذا يضحك ضحكة عصبية وهو يضرب كفًّا بكف هاتفًا:

- لا أصدق جبنكنَّ جميعًا! أكاد أجزم أن كلكن سمعتن هذه التسجيلات.. بانسيه أول من عثرت عليها.. أرسلتها إلى أرجوان التي -بالطبع- لا تخفي شيئًا عن صديقتها صابرينة.. وبالنهاية تصل إليكِ أنتِ بنفس الطريقة! قد أتفهم عذر بانسيه في رغبتها أن تعرف أرجوان مع أي وحش كانت تعيش.. لكن أرجوان.. لماذا تفعلها؟! لماذا ترسلها إليكِ أنتِ؟!

- لعلها أرادت أن أنتقم أنا الانتقام الذي لا تقوى هي عليه!

تتمتم بها تيوليب بتهكم مرير ليهتف صفوان بانفعال:

- وكأنكِ أكثر منها شجاعة مثلًا! أنتِ سكتِّ عن حقك من البداية.. منذ ليلة الحادث الذي اعتدى عليكِ فيه نعمان.. لا تعرفين أن سكوتك لم يؤذكِ أنت فحسب.. لا تعرفين أي ضحايا تركتِها خلفك!

يشد غيث على ساعده داعمًا لكن صفوان يبدو وكأنه قد ضاقت به الغرفة.. بل البيت كله الذي غادره بخطوات شبه راكضة ليحاول التقاط أنفاسه في الحديقة الخارجية بعيدًا عنهم وعن كل شيء...

أمه كانت صادقة ليلتها.. هو لم يكن مغفلًا ساذجًا عندما صدق توبتها.. هو لم يضيع وقته هدرًا.. يده التي امتدت لها لم يقطعها سيف غدر أو مجون.. الآن يمكنه أن يستريح من جانب ويشقى من آخر!

شطر من قلبه يهنأ منعمًا ببراءة غاليته والآخر سيبقى منغصًا بعذاب ضميره.

نظراته تطفو به نحو السماء التي غطاها الليل بعباءته السوداء وزخرفها الأمل ببعض النجمات.. منها واحدة كانت تلمع وتنطفئ بتتابع كأنها تحمل شفرة خاصة لقلبه...

- أمي! لماذا تومض تلك النجمة هكذا دون بقية النجمات؟! هل فسدت بطاريتها؟!

ما زال يرق لهذه الذكرى من سنين طفولته الأولى التي حظي فيها

بقربها، كم كانت جميلة ضحكتها، كم كان دافئًا حضنها وهي تضمه إليها هامسة بحنان:

- عندما ترى نجمة هكذا فاعلم أنها تريد أن تخبرك سرًّا.. توصل إلى قلبك رسالة.

- أي رسالة؟! ممن؟!

- مممم.. ربما من قلب بعيد يحبه ولا يستطيع القرب ليبوح له.

تدمع عيناه وهو يعود إلى واقعه، يناظر النجمة الوامضة ليهمس بصوت متهدج:

- بعيد.. جدًّا.. جدًّا يا أمي.. لكنه أقرب ما يكون.. سامحيني!

ورغمًا عنه تمتد أنامله نحو وحمة ذقنه تحت لحيته يتحسسها بوجد.. بلوعة.. كأنه يعتذر لها...

- آسفة.

الصوت الأنثوي خلفه يجبره على الالتفات لصاحبته، شعرها المجعد يطوف حول وجهها كأن كل كَسْرة في خصلاته المموجة هي أثر قدم داست على روحها في مشوار عمرها.. هكذا يبدو صوتها بمزيج غريب من شدة القسوة وشدة الجرح:

- لا أذكر متى كانت آخر مرة اعتذرت لأحدهم.. ولماذا أفعل؟! هل اعتذر لي أحدهم عندما ماتت أمي لأننا لم نجد ثمن الدواء؟! عندما انهدم فوقنا بيتنا القديم الذي لم نستطع ترميمه وأنا بعد طفلة تتعثر في ثوبها الطويل، لنبقى تحت أنقاضه يومًا بأكمله قبل أن أخرج منه

حية ويخرج منه أخي الأصغر ميتًا؟! ساعتها تمنيت لو كان لي قلب يسع كل أطفال الدنيا أخبئهم فيه من الفقر والجوع والمرض!

صوت بكاء راوية الخافت والتي لحقت بهما لتوها مع غيث يزكي عواصف الشجن حولهم، بينما تردف تيوليب وهي تقبض على صدر قميصها كأنها ستمزقه:

- تلومونني؟! تستنكرون رغبتي في الزواج بنعمان أول الأمر ثم لهفتي للزواج بآدم بعدها؟! تدينون سكوتي عن حقي ليلة الحادث خوفًا من بطش نعمان ورغبة في «التعويض» الكبير الذي وعدتني به حركة أنامله في جيبه؟! تتعجبون تشبث كفي بـ «شيك» آدم الذي وضعه في كفي قبل أن يطلقني؟! تصدقون حقًّا أن «المال ليس كل شيء»؟! تعرفون ما يعنيه المال لي؟! هو حياة أمي التي لم نستطع شراء دوائها.. هو حياة أخي الذي تهدم فوقه بيتنا.. هو حياة أبي الذي مات في عمله وهو ينفق آخر ما في صحته كي يوفر لي تكاليف معيشتي.. هو ثمن كل حياة اختطفها مني الموت وأنا أقف مكاني عاجزة.. تعرفون في أي سن اضطررت إلى العمل كي أجني المال؟! أي نوع من العمل؟! تعرفون عن دموع أبي وهو يخبرني وأنا ابنة عشر سنوات أنه لا يمكنني الاستمرار في التعليم مكتفيةً بأنني قد «فككت الخط»! ساعتها قبّلت يده راجية أن يسمح لي باستكمال دراستي والعمل بأي شيء فرضخ وشفقته على حلمي تغلب خوفه! تعرفون أي جحيم تعيشه فتاة فقيرة ضعيفة تعمل وتجاهد طوال الوقت كي تفوز بالقرش الحلال دون أن تفرط في شرف؟! أجل.. أحب المال.. أحبه وأعرف قيمة كل قرش تلطخ بعرقي قبل أن

يستقر في جيبي.. ومع هذا يشهد ربي أنني طوال عمري لم أرتكب في سبيل المال إثمًا أو أتهاون في خطيئة.. أنا لم أرتكب إثمًا عندما رضيت بنعمان زوجًا.. أو اخترت آدم وأحببته.. أجل.. أحببته.. أحببت فيه الحياة التي تمنيت عيشها وتاهت عني.. أحببت فيه الأمان.. دفء نظرة حب لا تفرق غنيًا عن فقير.. أو...

يغص حلقها فتتوقف لحظة لتردف بخفوت منكسة الرأس:

- أو هكذا كنت أظن! قبل أن يعلمني القدر أن الأمير لا يحب سندريلا دون سحر حذائها.. في منتصف الليل يعود كلٌّ منهما إلى بيته الذي يليق به!

من جوف صفوان يخرج نفَس حارق فتهتف هي بين دموعها:

- ومع هذا أعتذر عن سكوتي عما كان ليلة الحادث مع أمك.. خفت من تهديد نعمان.. أمك ساعدتني ولولاها لا أعرف كيف كان سيكون مصيري ومع هذا جبنت أنا عن الاعتراف بالحقيقة.. لم أكن أعرف أن الأمر سينتهي بفضيحتها قبل موتها.. أعتذر.. أعتذر...

يتمالك صفوان مشاعره بثبات يُحسد عليه، وإن خانته رجفة جسده المنفعلة وهو يسألها:

- دعكِ من أمي وأخبريني.. ماذا حدث بعد أن طلقك آدم؟!

- كنت قد تركت المدينة هنا.. بقيت هناك حيث خدعوني زاعمين أنهم دفنوا ابني.. لم أرِد العودة إلى هنا كي أرى آدم تعيسًا مع زوجته التي بقي معها بمنتهى الشهامة بدافع الشفقة خاصة بعدما وضعت

طفلها.. هذا بالطبع ما كان يقنعني به.. اخترت أن أهرب من الماضي بخيباته كلها.. حتى أُرسلت إليَّ هذه التسجيلات بصوت آدم.. قررت العودة إلى هنا كي آخذ حقي.

البريق الشرس في عينيها يغنيه عن الجواب لكنه يسألها بحذر:

- أنتِ قتلتِه؟!

- هل رأيت قاتلًا يعترف على نفسه بهذه البساطة؟!

جوابها المراوغ لا يخدعه لكنه يكتفي بهتافه الحاد:

- لماذا اختفيتِ؟! ولماذا عدتِ الآن؟!

- اختفيت هربًا من نعمان بعدما تمكنت بطريقتي من استعادة بعض حقي منه.. أخذت من ماله ما يكفي لتأمين مستقبلي بقية عمري.

- تقصدين «سرقتِ»؟!

- لا.. ليست سرقة.. هو ثمن ما فعلوه بي.. ثمن خداعي والتلاعب بي.. ثمن حرماني من ابني طوال هذه السنوات.

ترمقها راوية بنظرة معاتِبة فيما يهتف غيث باستنكار:

- يا الله! تتحدثين عن المال وكأنه أول الدنيا وآخرها!

- أوليس كذلك؟!

تهتف بها ساخرة، ليسكت صفوان غيث بإشارة من يده قبل أن يسألها وهو يتفحص ملامحها:

- ولماذا عدتِ؟!

- لأجل ابني بالطبع.. تظنني سأقف أتفرج وأنا أعرف أنهم قد اختطفوه!

- أم أنك كاللص يحوم حول جريمته؟!

بصوت صابرينة تجبر الجميع أن يلتفتوا نحوها بينما تتقدم هي لتمسك ساعدَي تيوليب بقوة هاتفة من بين أسنانها:

- أين ذهبتِ بالولد؟! أنا واثقة أنكِ من اختطفتِه!

- أيتها المخبولة! وهل أخطف ابني؟!

تحرر تيوليب نفسها منها بصعوبة لكن صابرينة تجذبها من شعرها صارخة:

- انطقي.. قولي الحقيقة.. أرجوان تكاد تموت بحسرتها عليه.

- وأنا مِتُّ بحسرتي عليه منذ سنوات.. هي ليست بأفضل مني!

تصرخ بها تيوليب وهي تدفع صابرينة بعنف لتهتف راوية بحسم:

- توقفا!

تخرس كلتاهما فجأة وكأنما وضعت كلمة راوية حد السيف بينهما، لتتقدم الأخيرة نحوهما، ترفع كفيهما معًا، تشير إلى وشميهما بعينيها مردفة:

- أنا رسمت لكما هذين بنفسي.. رأيت فيكما نفس الصورة لبتلة

تريد التمرد على ظلم بقية بتلات برعمها.. ماذا تفعلان بنفسيكما الآن؟! ماذا تفعلان؟!

تغمض كلتاهما أعينهما بمرارة فتخاطب راوية صابرينة بقولها القوي:

- عندما تقول تيوليب إنها لم تختطف الولد فأنا واثقة أنها لم تفعلها.

تتنهد تيوليب بحرقة فيما تسحب صابرينة كفها منها ببعض العنف وكأنما ساءها دفاع راوية عن تيوليب، تلتمع عيناها ببريقٍ قاسٍ قبل أن تعطيهما ظهرها لتغادر لكن راوية تستوقفها بقولها:

- لن تخبري نعمان بعودة تيوليب.. أنا أمنتها في بيتي.. لا أضمن ما الذي سيفعله بها.

- لا ألومه!

تهز بها كتفيها بشراسة فترمقها راوية بنظرة معاتِبة ترقق ملامح وجهها لتزفر باستسلام قبل أن تغادر البيت مانحةً شبه موافقة بالرضوخ.

***

- ماذا تعني بأنها ترفض رؤيتي؟!

تهتف بها صابرينة باستنكار مخاطبةً طبيب أرجوان الذي قال مهدئًا:

- يا سيدتي الأمر لا يتعلق بك وحدك.. هي ترفض رؤية الجميع.

- أنا لست كالجميع! أنا صديقة عمرها.. بل أختها!

تهتف بها بإصرار عاطفي وقبضتها تحتكر مقبض غرفة أرجوان كأنها ستقتحم الغرفة عنوةً، لكن الرجل يهتف بها بحزم:

- لا تدعيني ألجأ إلى العنف.. أخبرتك أن حالتها لا تسمح بهذا!

- ستخبرك هي بنفسها أنها تريدني!

تقتحم بها الغرفة فجأة، ولم تكد عيناها تلتقيان بعينَي أرجوان الذابلتين حتى أشاحت الأخيرة بوجهها، تدفن وجهها في وسادتها هاتفة بين شهقات بكائها:

- لا أريد رؤية أحدهم.. أي أحد.. اسمحوا لناجي فقط أن يدخل أو دعوني أنا أخرج لأبحث عنه.

- أرجوان.. حبيبتي.. أنا...

تهتف بها صابرينة بأسى وهي تقترب أكثر لتقاطعها صرخة أرجوان:

- لست حبيبة أحد.. لو كنت حبيبة أحد فليحضر لي ابني.

- سنجده حبيبتي.. لا تقلقي.. نعمان لن يسكت و...

- اخرجي.. اخرجي.. لا أريد رؤية أحد.. لا أريد سوى ابني.. ناجي.. نااااجي...

تزداد حالتها سوءًا وهي تخبط رأسها في جدار السرير خلفها بهياج

فينادي الطبيب الممرضة لتحقنها بعقار مهدئ، تتسع عينا صابرينة بانفعال وهي تحاول الاقتراب منها هاتفة:

- دعوني أعانقها.. حضني سيهدئها...

- اخرجي.. اخرجي.. لم أعد أريد رؤيتك.. لم أعد أريد رؤية أي أحد.

صراخ أرجوان الهائج وهي تغمض عينيها.. بسط ذراعيها المفرودتين بأقصى قوتها بينهما يبدوان لها كصفعة خلف صفعة.. تشعر بالأذرع تسحبها رغمًا عنها لتغادر الغرفة التي تستند إلى جدارها بانهيار يشبه انهيار صاحبتها.. إنها المرة الأولى التي ترفض فيها أرجوان قربها! المرة الأولى التي تقع فيها دون أن تطلب منها هي أن تمد لها يدًا! المرة الأولى التي تشعرها فيها أنها عادت غريبة.. لاجئة.. كأول مرة رأتها فيها!

تمد كفيها كأنها ستجد كفَّي أرجوان تضمهما إلى صدرها في حركتهما المعهودة لكنها تشعر ببرودتهما الخاوية.. لهذا تجد نفسها ترفع معصمها حيث أسورتهما المشتركة بـ «نصف القلب» المكسور.. تهمس كأنها تخاطبها رغم البعد:

- لا تفعلي بي هذا.. لا تفعليه أبدًا...

ثم تتذكر «خطيئتها العظمى» بحقها لتنهمر الدموع من عينيها باستطرادها:

- لا تفعليه وإن كنت أستحقه!

***

- ستسمحين لي بالدخول؟! أم تعاملينني كالباقين؟!

صوته القوي الممتزج بحنانه وهو يفتح باب غرفتها في المشفى يجبرها على رفع رأسها المثقل نحوه، تغمض عينيها هاربة من عينيه القويتين جدًّا.. الحنونتين جدًّا.. والعاشقتين جدًّا!

عاشقتين؟! تراهما حقًّا كذلك أم أنه يخدعها ككل من حولها؟!

- أخبروني أنك ترفضين رؤية الجميع.

يقولها صفوان مشفقًا وهو يتقدم أكثر نحوها بحذر بعدما أخبروه عن نوبات انهيارها التي لا تستجيب إلا بالمهدئات.. لكنه يعذرها بعد كل ما عرفه عما عانته في عمرها السابق كله.. والآن تأتي حادثة اختطاف ناجي لتكون القاصمة!

- ابتعد...

صوتها المحترق يخز قلبه وملامحها الشاحبة مع وهن جسدها الساكن على الفراش يكاد يذيب قلبه، تحاول النهوض فلا تستطيع فتعود مستسلمةً لضعفها، تسمعه عبر جفنيها المغمضين:

- ومن يقترب لو ابتعدت أنا؟!

- ابتعِد...

- تظنين أنني أفرط فيكِ ولو لثوانٍ؟!

- ابتعِد...

- قوليها ألف مرة لو شئت.. لن يزيدني هذا منك إلا قربًا بل التصاقًا!

تنهيدتها تغادر صدرها كقذيفة نحو قلبه.. لا يزال يقترب أكثر كأنه يقرن قوله بفعله، بينما تهتف هي عبر عينيها المغلقتين على جرحهما:

- لو لم تكن تحمل أخبارًا عن ناجي.. فلا داعي لبقائك.

يجلس جوارها على طرف الفراش، كفها -مثلها- تبدو واهنة مستسلمة لعناق راحتيه وهما تضغطانها بينهما قائلًا بنبرته القوية التي تشعر دومًا أنها لها.. لا عليها:

- أعدك أننا سنجده.. سيكون بين ذراعيكِ قريبًا.

تعض شفتها السفلى بقوة لتبدو شديدة الهشاشة في مواجهة حرب لا قبل لها بها.. ولا يزال صوته يدك حصونها دكًّا:

- تعرفين؟! قبلكِ كنت قد حرمتُ الحب على قلبي.. كنت أقول لنفسي إن لي من اسمي نصيبًا.. صفوان! مجرد صخر أملس زلق لا تستقر عليه حياة.. وأتيت أنتِ لتنبتي رغمًا عني زهرةً فوق جداري.. لهذا يشق عليّ ألا تثقي بي بعد هذا كله!

يرتجف جسدها مع هزة رأسها لكنه يردف واثقًا كأنه يغرس يقينه فيها:

- أنتِ تصدقينني.. تصدقين حكم قلبك فيّ!

- «أصدق»؟! تعرف ما الذي صارت تصنعه بي هذه الكلمة؟! تعرف شعور واحدة عاشت عمرها مخدوعة في كل من حولها؟! كل من زعم أنه أحبني غدر بي.. لم أعد أعرف أي جرح أداوي!

ينعقد حاجباه بشدة وهو يشعر أن كلامها يتجاوز آدم، فضوله يكاد يهزمه لسؤالها عمن تعني.. لكن إشفاقه على حالها ينتصر فيضغط كفها بين راحتيه هامسًا:

- لا أريد أن أثقل عليكِ.. لو كان الكلام يتعبك يكفيني سكوتك ما دمت جواري.

وأخيرًا تفتح عينيها الذابلتين، وعبر ستارَين رقيقين من الدموع انسدلا من جفنيها المثقلين تهمس بوهن وهي تتفحص ملامحه:

- أراك قد حلقت لحيتك.. سمحت لوحمة خدك بالظهور.. هذا يعني أنك رأيت تيوليب.. أخبرتك الحقيقة.. ظهرت براءة أمك.. صحيح!

ابتسامته الحلوة تشي براحة قلبه وهو يقترب بوجهه منها قائلًا:

- صرتِ تشبهينني في حب الاستنتاجات.. لا تنقصك سوى «عيب يا لذيذ.. هو أنا تلميذ؟!».

تعاود إغماض عينيها من جديد هاربةً من هذه الراحة الغامرة التي تفيض بها جنباتها في حضوره.. لا تريد تصديقها.. كفاها ما نالته من سذاجة التصديق!

لهذا تسحب كفها منه لتردف بنفس النبرة الواهنة:

- هنيئًا لك! ما عاد هناك مبرر إذن لبقائك وسط عائلة المجانين هذه! ارحل لشأنك ودعنا لشأننا.

لكنه يرفع حاجبيه وهو يعود ليغتنم كفها بين راحتيه قائلًا بعناد لا

ينقصه:

- معك حق.. كان هذا ليكون صحيحًا لولا أنني صرت مقيدًا بكِ.. قيدًا لا أريد الخلاص منه أبدًا.. تعرفين أنكِ أول من حرصث أن يراني بذقني الحليق؟! أن تشاركيني لحظة كهذه!

تتأوه بقوة وهي تحاول استجماع نفسها، تستدعي كل قوتها كي تتجاهل قوله ومشاعره لتسأله قدر ما حمل وهنها من لهفة:

- عرفتَ شيئًا؟! تيوليب هي من خطفت ناجي؟! هل استعاده نعمان؟!

يهز رأسه نفيًا فيرتجف جسدها بفورة بكائها العنيف وهي تهتف بانهيار:

- ألا يكفيهم ما أخذوه من عمري ومن حياتي؟! الآن يريدون أخذ ابني مني أيضًا؟!

- اهدئي ولا تنفعلي.. اهدئي.. بالله عليك اهدئي!

لا يزال يحاول تهدئتها بجزع لكنها تهتف بين شهقات دموعها:

- أشعر بحِمل كالجبال على كتفيّ.. من يزيحه عني؟! من؟! أريد أن أبوح.. أتكلم.. أصرخ.. واحدة مثلي لم تتكلف يومًا مشقة إخفاء أي سر مهما كبر أو قبح.. كان آدم يخبرني دومًا أنني لا أحمل أعماقًا باطنة كبقية الناس.. وأن وجهي مرآة تظهر خباياي.. لم أكن أجد ذلك عيبًا.. كنت أعرف دومًا أن الخط المستقيم أقصر طريق بين نقطتين.. فكنت أطلق مشاعري حرة.. أصرخ متى أشاء.. أضحك

متى أشاء.. أتكلم متى أشاء.. وأسكت متى أشاء.. واضحة.. بسيطة.. صريحة...

لا يجد بدًّا من مجاراتها في الكلام فيقول بحذر مخافة تفجير ألغامها:

- كل هذا تغير عندما سمعتِ تسجيلات آدم أول مرة! صحيح؟! ساعتها وجدتِ نفسكِ مضطرة أن تخفي.. أن تتظاهري.. أن تخططي.

تهز رأسها موافقة بكلماتها:

- لم أكن سأفعل كل هذا.. كنت سأصرخ في وجهه بأنني عرفت كل شيء.. لكن.. صابرينة...

تقطع عبارتها بآهة خافتة.. تجعله يستنتج:

- هي من أقنعتك بأن تخفي الأمر؟! بأن ترسلي التسجيلات إلى تيوليب؟!

- قالت لي إنني لو واجهته فلن أكسب أي شيء بل إنه ربما يؤذيني.. قالت لي إني لست مجبورة أن أحمل هم ابن غير ابني.. خاصة وحالته صعبة كما تعرفها.. قالت لي أمه الحقيقية أولى به.. قالت لي إن كلتينا ضعيفة ولن يمكنها الوقوف في وجه آدم أو نعمان لكن تيوليب قد تفعل ما نعجز نحن عنه.. كلامها وقتها كان معقولًا جدًّا لامرأة مصدومة وجبانة مثلي حتى إنني لم أتردد لحظة في فعل ما نصحت به لكنني عندما دخلت غرفة ناجي ليلتها.. ليلتها...

تقطع عبارتها كأنما تجتاحها الذكرى بضراوة ليرتعد جسدها

باستطرادها:

- ليلتها قضيتها كاملة أتفحص وجهه.. أحاول البحث عن شبه لي في ملامحه.. أخدع نفسي بأي تقارب.. عيناه نفس لون عينَي.. بشرته بيضاء مثلي.. شعره ناعم كشعري.. لم يكن ينقصني سوى قول إن أنفه بفتحتين مثلي!

تضحك ضحكة ملتاعة وهي تهز رأسها لتكمل:

- لكنني لم أجد سوى ملامح آدم فيه.. ملامح آدم ملطخة بخيانته.. قلت سأكرهه.. يجب أن أكرهه.. هو دليل خيانة آدم لي.. الشاهد الحي على غدره وأنانيته.. الإثبات الأقوى لحماقتي وسذاجتي وضعفي.. بقيت لساعات أذكر نفسي بقول آدم «ابن أرجوان مات».. أرددها عشرات المرات كأنني أريد تصديقها.. لكنني وعلى العكس.. وجدتني أضمه بكل قوتي.. أسد به فراغًا هائلًا بصدري لن يملأه غيره.. أهمس له كأنه يفهمني: «ابني حي.. أربيه منذ ست سنوات.. أطعمه وألبسه وأمشط شعره وأغني له وأنيِّمه.. لو لم تكن أنا أمه.. فمن؟!».. ساعتها انزاحت الغشاوة عن عينَي.. هو ابني.. ابني.. الذي عشت وسأعيش له.. وأنا أمه.. أمه التي ستحمله ما بقي لها من عمر رغمًا عن أي أحد.. وقتها ندمت أنني أرسلت إلى تيوليب التسجيلات ودعوت الله ألا تصل.. لهذا وقع قلبي في قدميّ عندما أخبرتني صابرينة بعد بضعة أسابيع أن تيوليب عادت إلى المدينة.. ساعتها عرفت أن عودتها ستغير مصيرنا كله!

يهز رأسه بأسى وقد اتضحت له الحقيقة الآن بخيوطها الكاملة..

ليعاود التربيت على كفها بقوله المشفق:

- آااه! كم تحملتِ! لكنني لن أتركك تعانين وحدكِ بعد الآن.. فقط امنحيني وعدك أن نكون معًا.. معًا بعيدًا عن بيت الكرملاوي وعن كل هذا السواد الذي لا يليق بك.

كلماته تزرعها فوق غيمة تشتهيها الآن أكثر من أي شيء، لكنها تشيح بوجهها هاتفة:

- لا وعود في غياب ابني.. عد به وساعتها أفكر بأن نكون معًا.

يشدد ضغطه على كفيها كأنه يمنحها وعده فتعود بعينيها إليه بنظرة راجية، وكلاهما غافل عن زوجين من الآذان تسمعهما خلسة عبر الباب بقلب حاقد متوعد.. نعمان!

***

- أنتِ؟!

تهتف بها أرجوان بمزيج من لهفة وخوف وهي ترى تيوليب تدخل عليهما الغرفة بعد طرقات قوية تشبهها.. فيهب صفوان واقفًا تسبقه كلماته:

- اخرجي من فضلك.. أرجوان حالتها لا تسمح بالانفعال.

- وأنا كذلك حالتي لا تسمح بالانتظار! لا أعرف أي مصيبة يدبرها لي نعمان لو عرف مكاني!

تهتف بها تيوليب بحدة قبل أن تلتفت لأرجوان...

- «أريد ابني!».

في مصادفة عجيبة تقولها كلتاهما في نفس اللحظة.. بنفس اللوعة.. ونفس الحرقة.. نفس اللهفة.. ونفس الخوف!

تبدو أرجوان وكأنما تبذل ما يفوق طاقتها فقط لتغادر الفراش.. تترنح فيتحرك صفوان ليسندها لكنها تدفعه بوهن لتقترب من تيوليب، تمسكها من طوق ثوبها بهشاشة لا تليق بشراسة نظراتها:

- قتلتِ آدم.. وسرقتِ نعمان.. والآن حان الدور لتخطفي ابني!

- من عاشر القوم صار منهم كما يقولون! يبدو أن طول عِشرتك لعائلة الكرملاوي علمتك التبجح! هو ابني أنا لو تذكرين!

- بل ابني أنا! أين كنتِ أنتِ عندما كان رضيعًا يصرخ فيتلقفه دفء صدري؟! عندما كان طفلًا يحبو فأمهد له الطريق؟! عندما كان يمرض فأسهر جواره.. عندما كان يبكي فتشهق معه روحي.. أو يضحك فيركض قلبي معه.. من منا تستحقه؟! من؟!

- وكأنني أنا السبب؟! كأنني أنا من رميته وتخليت عنه! تسألين أين كنت أنا؟! كنت وحدي بينما تتنعمين أنت في حضن زوجك وابنك! زوجك وابنك اللذين كانا لي أنا!

- لا تقوليها.. لا تقوليها...

تصرخ بها أرجوان وهي تغطي وجهها بكفيها بانهيار، لكن تيوليب تزيحهما عن وجهها بعنف هاتفة:

- لماذا؟! لأنكِ لا تطيقين سماع الحقيقة! طوال الأيام السابقة وأنا

أقاوم نفسي في كل مرة أقابلك فيها ألا أواجهك.. أقول لنفسي لعلها لا تعرف.. لعلها لا تشعر.. الآن صرت أعرف أنك من دفعتِ بالحقيقة إليّ.. فلماذا لا تكونين بنفس الشجاعة وتواجهينها؟!

- أي حقيقة؟! تتحدثين وكأنك ضحية؟! أنتِ بنيتِ سعادتك على أنقاض بيتي أنا!

- صحيح؟! وكأن زوجك كان طفلًا أمسكت ذراعه وأغريته بالحلوى حتى خطفتُه! ألم تسمعي مثلي منه هو شخصيًا حقيقة ما حدث؟! أنا لم أهدم بيتك.. كان مجرد أنقاض بالفعل عندما وصلت أنا! أو هكذا أقنعني من كان زوجك.. زوجنا!

تطرق أرجوان برأسها وهي تترنح من جديد، لكن تيوليب من تسندها هذه المرة وهي تغرس نظراتها في عينيها مردفة بنبرة أكثر وهنًا:

- ومع هذا لم أنكر ذنبي ولن أفعل.. لكن بربك أخبريني.. هل كان يستحق كل ما فعلوه بي؟!

تقولها لترفع طرف بلوزتها فيشيح صفوان بوجهه في حرج لكنها تبدو وكأنها لا تراه.. بل لا ترى سوى صورة الجرح القديم.. تشير إلى ندبة بطنها هاتفة بمرارة:

- ست سنوات كاملة.. ست سنوات أنظر إلى هذه الندبة وأقول: «هل هذا ما بقي لي من ابني؟! ممن ظننته حبي؟!»، لو كنت اقتنعت بخداع الثاني.. فماذا عن الأول؟! ابني الذي أخفوه عني قسرًا.. هل تعرفين شعوري عندما دخلت بيت الكرملاوي بعدما عرفت الحقيقة

لأراه في حضنك أنتِ؟! يمسك بيدكِ أنتِ؟! اسمك أنت في أوراقه مع أبيه.. وأنا؟! أنا مجرد أنثى استضعفوها.. جعلوها لعبة بينهم ولما انتهى زمن اللهو ركلوها بأقدامهم دون اكتراث.. كل هذا كتمته في قلبي! كل هذا لم أبُح به! لم أتمكن حتى من عناق ابني إلا خلسة في تلك الليالي التي كنت أتسلل فيها إلى غرفته!

- ولماذا كتمتِ كل هذا؟! لماذا لم تصرخي بالحقيقة؟!

تهمس بها أرجوان بين عجز واتهام لتتجمد ملامح تيوليب وهي تشير نحوها بسبابتها مجيبة:

- لأنني لست مثلك.. لأنني أخذت عهدًا على نفسي أن أكسب كل شيء.. أو أخسر كل شيء.

- ستخسرين.

تبدو أرجوان مثيرة للشفقة حقًّا وهي تقولها مهتزة وجلة.. بينما تبدو ابتسامة تيوليب قوية قاسية وهي تربت على كتفها قائلة:

- سنرى! لم آتِ لأناقش معك هذا.. جئت لأبحث عن جواب لسؤالي ويبدو أنه ليس عندك.. سأستعيد ابني.. وقتها أعدكِ ألا تريني بعدها أبدًا.. لا أنا ولا هو!

تقولها وهي تتحرك لتغادر الغرفة فتصرخ أرجوان وهي تندفع نحوها، تشد بلوزتها لكن تيوليب تحرر نفسها بسهولة مع ضعف غريمتها التي سقطت أرضًا بين ذراعَي صفوان الذي يحاول عبثًا تهدئتها دون جدوى، لكن أرجوان لم تستسلم لضعفها وذراعاها

تتشبثان بساق تيوليب تريد منعها من الحركة، لكن الأخيرة تركلها بخفة.. قسوتها تمتزج بالإشفاق في مزيج غريب كأنها ترى فيها صورتها نفسها!

- لا تتركها ترحل.. أو دعني أنا أخرج أبحث عن ابني.. لماذا تحبسونني هنا؟! أنا لست مريضة.. أنا أريد ابني.. أنا...

صرخات أرجوان الواهية تمزق قلبه بحرقتها قبل أن تستسلم لفقدانها الوعي فيندفع صفوان ليحضر لها الطبيب...

تصطدم عيناه بمشهد خارج الغرفة، لن يهتم له كثيرًا الآن فكل ما يشغل باله حاليًا داخل الغرفة فقط!

بينما تغادر تيوليب المشفى وقد وضعت نظارة بلون الدنيا على عينيها الآن.. وربما باللون الذي تحول إليه قلبها!

لا.. لن تشفق على أرجوان.. هل كان أحدهم قد أشفق عليها هي؟!

تفتح باب السيارة التي استأجرتها بسائقها.. تطلب منه الذهاب إلى مكان بعينه فبيت راوية لم يعد آمنًا.. وقد تحققت غايتها من ذهابها هناك.. لا أحد هناك يعرف مكان ناجي.. هي واثقة! والآن بعد زيارة أرجوان أسقطتها هي الأخرى من قائمة الشكوك! لا أحد يمثل كل هذا الانهيار! إذن من فعلها؟! صابرينة؟! الخادمة؟! لمصلحة من؟! نعمان؟! أيعقل؟! ولماذا يفعلها؟!

تنقطع أفكارها عندما تشعر بتوقف السيارة في مكان منعزل بدا لها مقبضًا بعض الشيء.. تهم بالاستفسار من السائق لكنها تُفاجأ ببابها

يفتح.. بالذراع الثقيلة تسحبها.. وبكف نعمان تقبض على شعرها بقسوة تجبرها على التأوه وهو يهتف بها:

- بيننا حساب طويل.. إلى أين تظنين نفسك ذاهبة؟!

الغصن الرابع عشر

«علموني يومًا ألا أنتظر من يمد لي كف المساعدة بل أثق بكفي أنا أستند بها إلى أقرب جدار، لكنهم لم يخبروني أنه حتى كفي قد تخذلني! أجل الكف الزلِقة تخون.. وهم جعلوا كفي دائمًا زلقة».

***

- نعمان! لا أخبار عن ناجي؟!

تستوقفه بانسيه في حديقة بيت الكرملاوي بمجرد دخوله المندفع الذي يشبه العاصفة، فيلتفت نحوها بقسمات مرتبكة.. بعد كل هذه السنوات لا يزال ندمه وجبروته يرتعان معًا على نفس الأرض، يرجفان صوته ليهتف بنبرة مختنقة:

- وما شأنكِ أنتِ؟! هل تهتمين مثلًا؟!

- ماذا تقول؟!

تهتف بها باستنكار فيطلق ضحكة مكتومة ساخرة وهو يشير إليها:

- لماذا تتعجبين؟! ما يعنيكِ أنتِ من ابني أو حفيدي؟! ألم تعزلي نفسك عنا في فقاعة كاذبة طوال هذه السنوات؟!

- أنا من فعلت؟!

استنكارها الهادر يبرز ذاك العرق النابض في جبينها حتى تكاد تشعر بأنها تسمع دقات قلبها واحدة واحدة...

- لم تتغير قط؟! كل ما حدث لنا لم يحرك فيك أي شيء؟! لا تزال

تنفض ذنبك عن كتفك كذرة غبار فيما تحمَّل غيرك كل الخطأ!

يشيح بوجهه عاجزًا عن مواجهة عينيها الصارختين بالعِتب والظلم، لا يزال يتعجب من صورتها الجديدة...

لا يزال صوته مرتجفًا بصراعه:

- لو كنتِ تشعرين بالشماتة فانفثي حقدك بعيدًا عنا.. حفيدي سيكون في بيتي في خلال ساعات فقط.. أنا وجدت تلك الملعونة تيوليب وسأعصر روحها حتى تعترف بكل شيء.

- احترس يا نعمان.. أدرِك نفسك قبل فوات الأوان.. يومًا ما ستندم على كل هذا الظلم الذي أغرقتنا فيه حتى صرنا مثلك بنسب متفاوتة.. صرنا نحترف القسوة كي ننال ما هو حقنا.. كلنا صرنا مسوخًا مثلك.. لعنتنا ستصيبك يومًا ما وظني أنه قريب!

- دعي حقدك يهدأ فلن يأتي هذا اليوم أبدًا.. أنا لا أخسر أبدًا.. قد تنفلت مني بعض الخيوط لكني أعرف كيف أعيد شدها.

يقولها ليعطيها ظهره متوجهًا نحو البيت فتكتف ساعديها غارقة في شعورها بالخواء.. بعض الرضا عن اطمئنانها على ناجي لا يكفي وحده لانتشالها من دوامة شعورها بالظلم هنا...

تحملها خطواتها نحو الجانب الخلفي من البيت حيث أرجوحتها الصدئة.. هذه المرة لن تتكلف عناء رفع غطائها فقد صارت تتركها مكشوفة كأنها لم تعد تخاف من ماضيها.. لكنها تكتم شهقة دهشتها وهي تراه هو هناك.. جالسًا ينتظرها!

- غيث! بالله عليك ماذا تفعل هنا؟! لن تهدأ حتى تتسبب لنا في فضيحة!

تهمس بها باستنكار وهي تركض نحوه فيفتح ذراعيه كأنه يتأهب لعناقها، تتسع نظرتها المستنكرة بينما يهمس وعيناه في عينيها:

- تعرفين كم يبدو المنظر رائعًا من هنا وأنا أراكِ تركضين نحوي بهذه اللهفة؟!

احمرار وجهها الشهي يلقي سهمه في قلبه، إنكارها يبدو لذيذًا مثلها وهمسها يزداد ارتباكًا:

- من الطبيعي جدًّا أن أركض نحوك الآن.. لا.. أقصد أنه ليس...

ضحكته الساحرة تقاطع بقية عبارتها فتهمس باستنكار:

- وتضحك أيضًا؟!

- ولماذا لا أفعل؟! سمعت كلامك مع نعمان.. يبدو واثقًا أن الولد مع تيوليب.. ما دمث اطمأننت على ناجي فلم يبقَ إلا الاطمئنان على وديعتي أنا!

- أي وديعة؟!

- لا تعرفين حقًّا؟!

همسه الدافئ يدغدغ قلبها بهذا اللحن المجنون الذي تزيده الأيام غرابة وحماقة.. وللعجب صدقًا! فتهرب من هذا كله باتهامها:

- لا تخجل من الاعتراف أنك سمعت كلامي مع نعمان؟! كنت

تتنصت علينا؟! وكيف دخلت هنا أساسًا؟!

- تسلقت السور! يحتاج الواحد أحيانًا مواقف كهذه ليستعيد «أيام الشقاوة»!

يقولها مسترخيًا ببراءة مغيظة ليردف وهو يبسط راحتيه في استسلام مغيظ أكثر:

- وبالنسبة إلى السؤال الأول.. لا.. لست خجلًا من الاعتراف بأنني كنت أسمع حديثك مع السيد نعمان.. كل شيء مباح في الحرب.. وأنتِ حربي التي لا بد سأكسبها.

- جنون! ورب الكون جنون!

تخبط بكفيها على جانبَي رأسها ترددها فيضحك من جديد مستمتعًا برد فعلها وهو يشير إليها بالجلوس جواره:

- اجلسي.. اجلسي لا تخجلي.. البيت بيتك!

- أوف! إلى الآن لا أصدق كيف تنجب الست راوية رجلًا مثلك! لا أصدق كيف رأيتك أنا حكيمًا عاقلًا أول مرة رأيتك فيها!

تهمس بها وهي تجلس جواره على الأرجوحة عفويًا ببعض العنف فتتحرك الأرجوحة بهما مصدرةً أزيزًا عاليًا، يضحك وهو يعدل ياقة قميصه بغرور مصطنع:

- أنا فعلًا عاقل جدًّا وحكيم جدًّا جدًّا.. لكن هناك أشياء غيرها «أدكنها للحبايب»!

تكتم ابتسامتها وهي تطرق ببصرها للحظات سكن فيها جسدها واشيًا بشرودها، فيصلها صوته جادًّا جدًّا هذه المرة:

- قلبك يحترق! نعمان يظنك شامتة والحقيقة أنك تختنقين بدخان كل هذا الظلم.

تهز رأسها كأنه يقرأ الكلام واضحًا من كتاب روحها، ترد بشرود:

- من يصدق أننا كلنا كنا نجلس على قشرة واهية لبركان يوشك على الانفجار؟! من يقول إن كل هذا الركود لسنوات تحول أخيرًا إلى فيضان جرفنا كلنا؟! ولا يزال نعمان يكابر! يظنني شامتة؟!

- لا تهتمي بما يظنه! هو رجل ظلم نفسه فما بالك بغيره!

- آه! كم أشعر بالذنب! أنا التي حركت كرة الثلج! أنا سبب كل هذا الانهيار!

- وما يدريكِ؟! لعل الانهيار هذا يكون ثورة التصحيح للجميع.. الاختبار الحقيقي لكلٍّ منهم.. أي مصير سيختار؟!

- قلبي مشتت حقًّا.. أشعر أنني فقدت قدرتي على تمييز الحقائق.

- أما أنا فأثق بقلبك.. لن يَضِل.. ولن يُضَل!

لم يهمس بها هذه المرة بل علا بها صوته كما علا بها نبض قلبه وهو يمسك كفها لتنتفض مكانها هاتفة:

- اخفِض صوتك واترك يدي.. ماذا لو رآك أو سمعك أحدهم؟!

- يوم المنى! أصلح غلطتي وأتزوجك!

يهيأ إليها أن الكون بأسره توقف عن الدوران للحظات.. لدقائق.. بل إلى الأبد!

- ماذا؟! ماذا قلت؟!

تهمس بها بذهول فيقف بدوره وهو يزيح خصلات شعرها القصير التي أطارتها الرياح كستار مشاكس بين عينيهما، كأنه كره أن يحول بينهما الآن أي شيء:

- لماذا تبدين متفاجئة هكذا؟! هل أبدو لكِ ممن يتلاعبون ببنات الناس في الظلام؟! إلى أي مصير ظننتِ قصتنا ستنتهي؟!

- قصتنا؟!

تتمتم بها بشرود ولا تزال أسيرة عينين كعينيه.. مفعمتين بالحب واليقين.. خوفها يجبرها أن تهمس باستنكار:

- تعرف بكم سنة أكبرك؟!

- ومن يهتم؟! الحب لا يعترف ببطاقات هوية!

- وماذا سيقول الناس؟!

- وما لنا والناس؟! هل يدفعون لنا فواتير الأعمار الضائعة؟! هل يحسبون نيابةً عنا عدد سنوات عشنا؟! هل يظن الحمقى أن العمر يُحسب بالسنين؟!

كل حرف يقوله يمس شيئًا في روحها.. يضمد جرحًا.. يرفع حجرًا.. يزرع زهرًا.. ويهب عمرًا!

لكنها لا تزال تكابر:

- هل تظن الأمر لعبة؟!

- ولأنها ليست لعبة.. ولأنني كبرت على اللعب -ليس كله بالطبع- أريدك أنت!

غمزته اللعوب تناقض كل هذا اليقين الدافئ الذي تبثه كلماته إليها.. مزيج عجيب يحتاج روحًا عطشى كروحها تجمدت كثيرًا تحت الثلوج والآن تبدو وكأنها لا تمانع أن تمنح صك العفو لبرد العمر كله ما دامت ستعانق أخيرًا شمسًا كهذه!

- سألتِني لماذا جئت.. والحقيقة أنني لم أطِق صبرًا لأعطيكِ هذه.. صنعتها خصيصى لأجلك.

يهمس بها وهو يستخرج من جيبه علبة قطيفة صغيرة، يفتحها لتبدو لها هديته، سلسلة فضية شديدة اللمعان أو ربما الوهج من روحه هو يتألق على سطح روحها، دلايتها بشكل غيمة يتدلى منها ما يشبه ثلاث قطرات من مطر!

- ثلاث قطرات بثلاثة حروف تساوي اسمي.. وقلبي.. وعمري.. أمنحها كلها لكِ.

يرفعها أمام عينيها الدامعتين المصدومتين والمأخوذتين بهذا السحر الغريب في نظراته قبل كلماته:

- تسمحين؟!

لا تدري كيف أومأت برأسها، كيف غشيها عطره حتى ظنت أنه قد

دمغ بعبقه أنفاسها إلى الأبد، كيف شعرت بلسعة معدن السلسلة البارد على عنقها كأنها جمرة آمنة تعدها بدفء قلبها إلى الأبد، كل ما تعرفه أنها عندما ركضت مبتعدة لتختبئ في غرفتها، تنظر إلى صورتها في المرآة كانت توقن أنه ليس عنقها فقط ما تزين بهديته، بل ما بقي من عمرها كله!

***

- من أين تأتي؟!

تهتف بها صابرينة وهي تستقبل نعمان في بهو بيت الكرملاوي ليجيبها بغلظة:

- لا شأن لكِ!

في ظروف أخرى كانت لتستوعب غضبته، لتحتويه بكل ما تحمله أنوثتها من دفء ورقّة، لكنها منذ زيارة أرجوان الأخيرة وهي تتقافز فوق صفيح ساخن، لهذا تواجهه بتحدٍّ نادر بينهما:

- لا أظنك تتحرك الآن إلا لهدف واحد.. وما دام ناجي لم يعد بعد، وما دامت أرجوان لا تزال في المشفى فكل الشأن شأني!

يطلق ضحكة ساخرة وهو يشيح بوجهه عنها فتقترب أكثر لتهتف بانفعال:

- تيوليب عادت.. هي التي تحمل التسجيلين المفقودين لآدم.. هذا يعني أنها من قتلته! ومن المؤكد أنها هي من خطفت آدم.

تضيق عيناه بحقد أسود والوعيد يقطر من كلماته:

- كنت أتوقع هذا.. لا بأس.. هي الآن في يدي وستذوق عقابًا لم تتخيله في أبشع كوابيسها!

ورغمًا عنها ترتعد بخوف من القسوة التي تقطر من حروفه، لكنها تهتف بتماسك:

- لا تعنيني تلك المرأة ولا ما ستفعله بها.. كل ما يعنيني أرجوان.

يصفعها بنظراته قبل كلماته:

- من أرجوان؟! آه! صديقتك التي لفظتك من غرفتها كما تلفظ النواة من فمها؟!

- معذورة! مريضة ليست في وعيها.

- رفضت زيارتك كالجميع لكنها سمحت لذاك البهلوان بزيارتها!

يقولها بسخرية حاقدة وهو يلوح بذراعه، فتشحب ملامحها بسؤالها:

- من تعني؟! صفوان؟!

- ومن غيره؟! سمعتهما بأذنَي يتفقان على الهرب معًا بعد العثور على ناجي.

يبدو متشفيًا بالصدمة على ملامحها، عيناها معلقتان بسوار معصمها حيث «نصف القلب» المكسور، هل تفعلها أرجوان حقًّا؟! هي نفسها كانت تنصحها من قبل بالهرب مع صفوان من جحيم الكرملاوي.. لكن أن تفعلها الآن دون علمها! أن تغلق في وجهها الباب

الذي تفتحه لصفوان! أن تتخلى عنها هكذا ببساطة!

«لا أريد أن أراكِ»، بصوت أرجوان تجلدها بسوط لم يُشفَ بعد أثره على ظهرها.

- الغبية تظنني سأسمح لها؟! لم أكن راضيًا عن هذه الزيجة من البداية.. ابن نعمان الكرملاوي كان يستحق أفضل امرأة في البلد وليست هذه التي لا تليق بعائلتنا ولا نسبنا.. لكن الآن وقد حدث ما حدث فلن تحمل زوجة ابني اسم رجل غيره.. وإن فعلتها فسأحرمها من ابنها إلى الأبد!

الغلُّ الأسود في حروف نعمان يمتزج بخوف واضح استشعره قلبها، تستعيد دورها ببراعة لا تنقصها:

- اطمئن.. لن يحدث ما يسوؤك.. هي لن تتمكن من فعلها أبدًا.

تقولها وهي تربت على كتفيه فيرمقها بنظرة حذرة تليق بسؤاله:

- ماذا تقصدين؟! لن تتزوج صفوان أم لن تهرب بناجي؟!

- لو أردت.. يمكنك منع كليهما...

تزداد نظرته حذرًا بينما تردف هي:

- ودون اللجوء إلى العنف...

مرة أخرى يجد فيها مبررًا لأن تزال «قطعة اللادن» ملتصقة بسقف حلقه! يراقبها بحيرة مترقبة وهو يراها تبتعد لتعود بورقة مطوية منحته إياها.. يفضها لتتسع عيناه وهو يقرأ ما بها.. وما فسره قولها:

- أرجوان ليست سوية نفسيًا.. انهيارها الآن ليس أول دلالة.. بيدك تقرير من الطبيب الذي أقنعتها أنا بالذهاب إليه بعد وفاة آدم يثبت أنها تعاني هلاوس وضلالات.. ليس هذا فحسب بل.. هذا أيضًا...

ينتقل ببصره حيث تلاعبت أناملها بهاتفها للحظات قبل أن يسمع مكالمة مسجلة بين صابرينة وصفوان الذي كان صوته واضحًا:

- أرجوان ليست بخير تمامًا.. هي تتوهم رؤية آدم بعد موته.. هل تعرفين شيئًا عن هذا؟!

- للأسف صحيح.. هي تتخيل رؤيته بل وتتكلم معه.. تخبرني عن هذا فأضطر إلى مسايرتها أحيانًا في ما تقول.. ثم تعود لتعترف أن كل هذا مجرد وهم.. هل تظن الأمر خطيرًا؟!

- لا أعرف.. آدم سيطر عليها وآذاها كثيرًا في عمر طويل يكاد يقارب عمرها نفسه.. ليس سهلًا أن تصدق رحيله بهذه البساطة.. أفضِّل أن نستشير طبيبًا نفسيًا في هذا الأمر.

- أنا خائفة عليها.. هل يمكنها أن تؤذي نفسها أو تؤذي أحدًا؟!

- أنا أيضًا أشاركك هذا الخوف.. أحيانًا لا تبدو لي في كامل وعيها.

تنتهي المكالمة المسجلة فترفع صابرينة عينيها نحو نعمان قائلة:

- هكذا تملك أنت شهادة صفوان نفسه مع تقرير الطبيب الذي يمكن ببعض الضغط الإضافي أن يشير بعدم أهليتها الآن للزواج.. ناهيك برعاية ابنها.

يصمت للحظات وعيناه تنتقلان من الورقة إلى هاتفها ثم إلى

عينيها.. وأخيرًا يسأل:

- لماذا تفعلين هذا؟!

- لأجلك!

- وصديقتك؟! تحرمينها من ابنها؟!

- أنا لا أحرمها من ابنها.. أنا أريد ألا تحرمك هي منه!

لم تكد تتفوه بها حتى فوجئت به يجذبها من شعرها بقوة استجلبت صرختها وهو يهتف بها بازدراء:

- تظنينني يمكنني الثقة بواحدة مثلك؟! تظنينني لا أفهم؟! أنتِ شعرتِ بالغيرة منها؟! قلتِ لنفسك تفوز هي دومًا بالشباب وتبقين أنتِ أسيرتي! أعجبك ذاك الصعلوك؟! تظنينني لا أعرف كيف تختلسين النظر إليه؟! أنتِ لا تساعدينني بل تمهدين الطريق لنفسك! لكن ماذا أنتظر من واحدة مثلك؟! هل كانت مكالمتكما هذه هي الأولى والأخيرة؟! ماذا عن غيرها من المكالمات؟! صحيح.. «تربية ملاجئ».. فاجرة!

تنقطع صرخات ألمها وكأن ألم اتهاماته داخلها أقوى!

«فاجرة!» هل قالها حقًّا؟! «فاجرة!».

يزداد عنفه وكأنما يغيظه سكوتها الذي لا يفهمه فيوجعها أكثر:

- افعلي ما شئتِ فلن يهتم من مثله لواحدة مثلك.. لن تجدي غبيًّا غيري يقبلك! لكن غبائي كصبري يوشك أن ينتهي وساعتها تعودين

إلى الشارع الذي جئتِ منه.. مجردة من كل شيء هذه المرة.. حتى صديقتك!

يدفعها بعنف بعدها ليبصق بعدها على الأرض مردفًا:

- وما زلتُ أقول «صديقتك»؟! أنتِ كالأفاعي لا يأمن جليسها لدغتها!

تبدو صامدة في وقفتها، رغم شعرها المشعث، وجهها المحمر، أنفاسها المتلاحقة، يشعر وكأن عينيها أنفسهما تنسكبان كأسيْن من عتاب وقهر، بعض الندم يخز قلبه لكنه يقهره كعادته وهو يضع الورقة في جيبه، ينتزع منها هاتفها ليرسل ما يريده إلى هاتفه هو ثم يلقيه في وجهها ليغادر البيت من جديد بخطوات مندفعة...

بينما تتحرك هي نحو مرآة قريبة تتفحص ملامح وجهها، شعث شعرها يكشف الستر عن خصلتها البيضاء التي شابت باكرًا.. باكرًا جدًّا.. والتي تحرص دومًا أن تغطيها بإسدال بقية شعرها الكثيف شديد السواد فوقها.. يهيأ إليها أن مشيبها يزداد كلما ازدادوا لها ظلمًا.. ما الذي يقهرها الآن أكثر؟! تخلي أرجوان عنها؟! أم اتهام نعمان لها؟! ما الفارق؟! كلاهما يصبان في نفس النهر الآسن الذي ركد ماؤه!

يبدو أنه لا مفر من قدرها! هم يرونها نبتة فاسدة.. صبارة! فلتكن!

***

- لا تطِل البقاء بالداخل.. بالله عليك!

تهمس بها الخادمة بقلق مخاطبةً صفوان وهي تتلفت حولها يمنة

ويسرة فيدلف بخفة إلى داخل غرفة ناجي، يهمس لها مطمئنًا وهو يمنحها بضع أوراق نقدية:

- لا تخافي.. لن أطيل البقاء.. لا أظن أحدهم قد يدخل هنا الآن.. ابتعدي أنتِ كي لا تثيري الشكوك.

تطيعه بهزة من رأسها وهي تدس النقود في طيات ثوبها قبل أن تغلق الباب، يرهف سمعه للأصوات خارج الغرفة ولم يكد يميز صدى خطواتها المبتعدة حتى تنهد بانفعال وهو يتفحص الغرفة أمامه.. لا يعرف عما يبحث بالضبط لكنه يحاول الوصول إلى طرف خيط يدله على خاطف الولد ما دام نعمان مُصرًّا على عدم إبلاغ الشرطة وهو -للصراحة- يعذره في خوفه عليه...

تدمع عيناه باشتياق حقيقي وهو يرى بعض أدواته التي كان يستعملها في عمله مع الصغير.. بقي أغلبها في غرفة الحديقة لكن أرجوان كما يبدو أحضرت بعضها هنا...

الطوق البلاستيكي الذي يحب القفز داخله والذي يزيد به إدراك حدود المكان حوله.. البالونات التي يستمتع الصغير بنفخها وثقبها في نفس اللحظة.. الدوائر الملونة التي يحب إعادتها إلى مكانها في لوحتها الرأسية...

الأدوات التي تذكره ببداية مشواره المهني مع الصغير والذي يتمنى لو يكمله إلى آخره...

«تعرف أن ناجي لم يعد ينام سوى على صوته في الميكروفون الذي أحضرته له؟! نكرر معًا غنوتنا فيضحك ويستجيب للنوم؟!».

يتذكرها بصوت أرجوان فيشعر بغصة في حلقه، يطلق زفرة حارة وهو يمسد صدره بأنامله! يا الله! لو كان هذا قدر اشتياقه إلى الولد فماذا عن أرجوان؟! ولو كان هذا قدر اشتياق أرجوان التي افتقدته ليومين فقط فماذا عن تيوليب التي افتقدته عمره كله!

يطرد الخاطر الأخير عن ذهنه محاولًا تصفيته وهو يبحث في بقية الغرفة عما يمكن أن يفصح عن هوية المختطف، ينظر تحت الفراش الذي بدا له فوضويًا كما ينبغي فلم يدخل أحدهم الغرفة بعد الحادث كما أخبرته الخادمة.

ينهض ليفتش الأدراج والخزانة وهو نفسه لا يعرف ما يبحث عنه بالضبط.. ثم يتفحص أرضية الغرفة.. لا شيء.. لا شيء سوى ألعاب الولد!

الباب يُفتح فجأة فيكتم شهقته متمالكًا انفعاله وهو يواجه القادم.. بل القادمة!

صابرينة التي بدت غير متفاجئة إطلاقًا بوجوده مع هذه الابتسامة الخطيرة على شفتيها.. يتأهب لتبرير مناسب لكنه ما كاد يفتح فمه حتى فوجئ بها تغلق الباب خلفها.. بالمفتاح!

- ماذا تفعلين؟!

- بل.. أنت.. ماذا تفعل هنا؟!

تقترب منه حثيثًا ليشعر ببعض الغرابة في نظراتها نحوه.. لا تبدو واثقة غامضة كالعادة بل كأنها مسكوبة مكشوفة دون غطاء!

يتسمر مكانه شاعرًا بخطر مبهم يزداد مع اقترابها حتى كادت تلاصقه.. يتراجع إلى الخلف ببطء محاولًا فهم ما تنتويه لكنها لا تسمح برفاهية المسافة.. حتى يلتصق بالحائط ليفاجأ بكفيها تستندان إلى نفس الجدار تصنع من ذراعيها حوله سجنًا قد يراه غيره جنة!

- جئت لتبحث عن طرف خيط قد يقودك إلى من خطف الولد.. تعرف كم يعجبني ذكاؤك!

ذبذبات صوتها المتراقص بينهما لا يمكن أن يخطئ تأويلها رجل! ولثانية واحدة يختطفه «الأزرق المجنون» في عينيها، نظراتها لا تبدو مغوية بقدر ما تبدو كسيرة متألمة منتقمة! لماذا تفعل هذا؟!

- صابرينة.. ابتعدي!

يدفعها بها ببعض العنف لكنها لا تحرك ساكنًا! «الأزرق المجنون» يزداد عبثًا:

- لا تخف.. نعمان لن يبيت ليلته هنا.. والخادمة لن تعاود الاقتراب.. وبانسيه تشخبط فوق أرجوحتها لن تأتي قبل الفجر...

- ماذا تريدين بالضبط؟!

- بل أنت من تريد! لا تحسبني لم أميز نظرتك أول مرة رأيتني فيها.. كانت تصرخ «تعالي»...

أناملها تتحرك ببطء ترسم خطًّا وهميًا من ذقنها، إلى رقبتها، إلى جيدها، تفتح زر منامتها الحريرية، ويفتح معها همسها ما بقي:

- وهأنذا.. جئت!

***

ترفع تيوليب رأسها الدامي بجروحه وكدماته، تحاول تخليص قيود معصميها وقدميها دون جدوى، تصرخ عبر كمامة فمها فلا تسمع سوى ما يشبه أنينًا مكتومًا، فتميل بثقل جسدها على جانب كرسيها لينقلب بها على الأرض.. أي حركة تشعرها أنها لا تزال تملك فعل أي شيء!

رائحة كيميائية تفوح من المكان الغريب الذي احتجزها فيه رجال نعمان، رائحة تؤهلها لمصير أسوأ من الموت!

- لا.. لا.. لا.. لا تسقط زوجة ابني وأم حفيدي أبدًا! لا تحملها الأرض بل أحملها فوق رأسي!

صوت نعمان الساخر بجبروته المعهود يزيد اختناقها بالرائحة من حولها، ترفع إليه عينين صارختين بالكره الأسود بينما تراه يشير إلى أحد رجاله الذي يتقدم نحوها، يرفع بها كرسيها ليعيدها إلى وضعها، يزداد وجيب صدرها وهي ترى نعمان يقترب ببطء، ينتزع عنها الشريط اللاصق المكمم لفمها فتصرخ رغمًا عنها:

- حرامٌ أن نكمم فمك! بالضبط! هكذا بالضبط أريد الاستمتاع بسماع صرخاتك للساعات القادمة! اطمئني القائمة لدينا مليئة بالأصناف.. جربتِ المقبِّلات منذ قليل؟! أعجبتك؟! تريدين المزيد أم ندخل للطبق الرئيسي؟!

لا تزال سخريته القاسية تزيد جنون خفقاتها حتى تشعر وكأن قلبها نفسه يتخبط مترنحًا بين جدران صدرها! لا تخاف ما فعله بها نعمان ولا ما سيفعله بل تخاف أن تُحرم من رؤية ابنها من جديد.. ليس الآن! ليس بعد كل ما فعلته! لقد كادت تصل!

صرخة غادرة تغادر فمها وقد فاجأتها صفعة رجل نعمان الضخم الذي لا تعرف كيف صار قبالتها.. تلهث بعنف وهي تشعر برأسها يدور والدنيا تدور معه.. يرفع الرجل يده ليصفعها من جديد لولا إشارة نعمان له بالتوقف...

- كانوا يريدون مني أن أسلمك للشرطة؟! ماذا ستفعل الشرطة؟! تسلمك لحبل المشنقة؟! تنتهي معاناتك بلحظة واحدة؟! لا يا جميلتي! أنا سأجعلك تتجرعين الموت قطرة قطرة!

إشارة يده إلى الرجل تساوي صفعة أخرى تشعر معها بالتنميل في وجهها بل جسدها كله.. ولا يزال يبث هو سمه في أذنيها:

- في البداية تغوينني لأتزوجك ثم تجدين ابني أفضل مني فتغوينه هو لتجعليه يتزوجك، تنهبين منا قدرًا من المال لم تكن لتحلم به جربوعة مثلك، تختفين ثم تعودين لتقتلي ابني، وتعيدي سرقة مالي، ثم تخطفي حفيدي، هل رأيتِ سفالة تفوق سفالتك؟! أي شيطان يسكنك؟! أي شيطان؟!

صوتها بالكاد يغادر شفتيها، لا مجال لمناقشة افتراءاته:

- لست أنا من اختطف ناجي!

تنتهي عبارتها بصرختها وصفعة أخرى تنال منها، بينما يصلها صوته:

- من سواك يجرؤ على فعلها؟! آه بالمناسبة! لقد تحدثت قليلًا مع ساعي مكتب آدم في المصنع بعد سماع التسجيلات.. أخبرني مشكورًا -بعد محادثة ودية كهذه التي أجريها معكِ الآن- أنكِ كنتِ تعطينه السم الخفي الذي مات به ابني.

هذه المرة تأتي الصفعة منه هو! لا تبدو لها غليظة بقدر سابقاتها لكنها كانت أقوى على جدار روحها وهي تسمعه يردف بصوت اهتز بعاطفته:

- لماذا تقتلين ابني؟! لماذا؟! تظنين الأرواح رخيصة هكذا؟!

«لم أقتله! لست أنا! شاهدك هذا كاذب!».

كادت تصرخ بها كاذبة وقد شعرت أنها أحرقت كل سفنها.. لكنها لم تستطع! نفس السبب الذي جعلها تخفي تسجيلات آدم في جذع الشجرة مع ما يحمله هذا من مخاطرة! كانت تريد أن يجدها أحدهم.. أي أحد.. في أي وقت.. أي أذن تسمع حكايتها وتعرف أنها أخذت ثأرها وإن أخرسها خوفها!

لهذا وجدت صوتها يغادر حلقها حرًّا.. كأنما قطع القهر لجام حصانه:

- وهل كانت روحي أنا هي الرخيصة؟! روح ابني التي زيفتموها وتلاعبتم بها هي الرخيصة؟! أجل.. أنا قتلت آدم الكرملاوي ولو كان أمامي ألف آدم لقتلته غير نادمة! لكن.. تريد الحق؟! لست أنا حقيقة

من قتل آدم.. بل أنت!

يحمر وجهه بخزي أقرب منه إلى الغضب، رجفة جسده ليست شيئًا جوار رعدة قلبه المعترف بما تهتف به:

- أنت جعلت منه هذا المسخ الذي لا يرى في أي امرأة سوى ما يخدم انعكاس صورته.. يزعم أنه يحب أرجوان ويخونها.. بل ويتهمها أنها هي من تخونه! يلف ويدور ويتحايل كي يتزوجني.. ويتبجح بعدها أنني من أغويته.. يزعم أنه يشفق على عمته المسكينة التي يخاف منها.. ويتفنن في معايرتها وإذلالها بالماضي.. ومن يدري أي ماضٍ أسود يحمله مع صابرينة ومع أي امرأة دخلت وكانت ستدخل بيت الكرملاوي! هو مسخ مشوه مثلك.. لكنك أنت من صنعته.. لو كنت ستعاقبني على قتله فعاقب نفسك أولًا!

يعطيها ظهره بابتسامة ساخرة مصطنعة وهو يحاول مقاومة هذه الغصة في حلقه، صوت وصول رسالة على هاتفه يقاطع أفكاره:

«دبرت المبلغ الذي طلبناه؟! لا تجعل الأمر يطول كثيرًا لمصلحة الولد».

- رجالك هؤلاء؟! صحيح؟! من يساعدك؟! أين الولد؟! لا تزالين تطمعين بالمزيد؟!

يشدها من ثيابها بعنف يكاد يمزقها لتهتف بحدة:

- لست أنا.. لست أنا.. افهم أيها الغبي وأنقِذ الولد.. ادفع لهم ما يريدون.

يرمقها بنظرة شك وهو يدفعها بازدراء، لو لم تكن هي.. فمن؟!

تتسع عيناه بإدراك واسم آخر يطفو لذهنه.. اسم أثبت كم يجيد الكيد في الظلام والود في العلن! صابرينة! معقول؟! لكن لمَ لا؟! أليست هي من قدمت له لتوها طوق عنق لصديقتها؟! لماذا تفعلها؟! لأجل المال! أم أن لها غاية أخرى لا يعرفها!

تنقطع أفكاره وهو يرى رجله تهم بالاقتراب من تيوليب كي يصفعها من جديد منتزعًا المزيد من اعترافاتها، لولا أن تعالى صوت سارينة الشرطة.. تقترب.. وتقترب معها نهاية السباق...

***

- غبية! غبية!

تهمس بها صابرينة لنفسها بانفعال وهي تغلق عليها باب غرفتها، تشد منامتها عليها، تغلق أزرارها المفتوحة بأنامل مرتعدة...

«لا أريد رؤيتك.. لا أريد رؤيتك».

بصوت أرجوان.. لا يزال صدى أجراسها يرن حولها.. بل داخلها! يكاد ينتزعها من مكانها ليقذفها في أبعد وادٍ قفرا!

أي خوف زرعته داخلها هذه العبارة؟! أي شيطان أيقظته؟! ربما هو ضميرها يذكرها بخطيئتها القديمة في حقها؟! تلك التي لا تعرف كيف يمكن أن تكفر عنها! هل كانت تنقصها خطيئة أخرى؟!

«فاجرة!».

بصوت نعمان هذه المرة! تخنقها بهذا الحبل الغليظ الذي طالما أرخوه حول عنقها لكنهم قط لم يقطعوه.. تركوه مكانه ليزهقوا به أنفاسها متى شاءوا!

خطواتها المثقلة تحملها نحو حمام غرفتها القريب، تتردد في خلع ملابسها كأنما تخشى أن يذكرها عريها بما كان منذ قليل مع صفوان.. لكنها تفعلها أخيرًا لعل برودة الماء تطفئ بعضًا من نيران روحها!

سيل الماء يمتزج بسيل دموعها فلا تعرف أيهما يبلل وجهها.. تفرك جسدها بالصابون بقوة تكاد تدميه لعلها تخلصه من دنس لا تراه يزول أبدًا.. لا يسمحون له أن يزول!

تجفف جسدها وبعض وجعها، تعاود ارتداء ملابسها وبعض قوتها، تمشط شعرها وبعض انكسارها، تغادر الحمام، تغلق بابه فتنفتح للذكريات الحارقة ألف باب!

تتوجه نحو مخبأ أسرارها الأثير تستخرج أوراقها:

«ابني الذي لم أنجبه بعد...

يشق على المرء كثيرًا أن يعترف بخطاياه.. يلقيها خلف ظهره مسرعًا كي يتسنى له تكملة المسير في طريقه.. لكنني لم أمتلك يومًا رفاهية كهذه! أنا ولدت بهذا الكيس على ظهري ممتلئًا منذ وعيت عليه.. ذنوب غيري مكدسة فيه.. فوجدتني دون وعي أضع فيه أوزاري أنا الأخرى.. عاجزة عن إلقائها خلفي.. أسير ويسير ثقلي معي.. فلا أنا أصل ولا هو يخف!

تعرف يا ابني أول مهارة تعلمتها؟! أن أختار أحلامي.. أختار أبسطها مما يمكن تحقيقه دون جهد.. فيما بعد عرفت أنها لم تكن أحلامًا بل أبسط حقوقي لكن مثلي لم يكن يليق به سوى هذا! يزداد الكيس على ظهري ثقلًا بقدر ما تزداد أحلامي خفة!

لم أكن أريد سوى عائلة! رجل يحتويني دفئه كنعمان، أخت تفدي كل منا الأخرى بروحها كأرجوان، أخ كآدم، وابن كناجي.. لكن الحياة سخرت مني وها كل ذا صار مجرد سراب!

عرفت ما حدث مؤخرًا؟! خالتك تخلت عني! لا تزال ترفض رؤيتي كالجميع! تصور! بعد كل هذا العمر معًا كنت لها فيه أقرب من دقات قلبها تغلق هي بابها في وجهي! أراك بلسان براءتك تقول إنني أستحق هذا! حتى وأنا لم أجرؤ بعد على إخبارك بأعظم خطاياي! عيناك الملائكيتان لم تضع عليهما الحياة بعد نظارة الإثم، وقلبك الأبيض لم يعرف بعد أن الأسوَد ماكر متلاعب خبيث يبدأ بنقطة ثم خط.. ثم لا تعرف متى احتلت رسومه الصورة كلها؟!

هل أخبرتك عن سر خصلتي البيضاء؟! تلك المشيبة في شعري.. لا يعرف سرها إلا خالتك أرجوان ونعمان.. والآن صرت أنت الآخر تعرف!

طالما شعرت بها تزداد مشيبًا كلما ازدادوا لي ظلمًا.. منذ طفولتي وطائر الظن السيئ لا يجد غير ثوبي أنا لينقره!

تعرف يا ابني؟! عندما خرجت من الملجأ للعمل أول مرة وسُرق المحل الذي كنت أقف فيه.. كنت أول من أشاروا إليه باتهام.. ظهرت

براءتي بعدها لكنني لن أخفيك قولًا.. في كل مرة كنت أعمل فيها بعدها كنت أجد أصابعي رغمًا عني تختلس أقرب شيء تناله.. غلا أو رخص.. وكأن شيطانًا داخلي يوسوس «هم يرونك سارقة.. فكوني!».. كنت أنهر نفسي وأعاهدها على عدم الرجوع إلى الإثم لكن أول إصبع اتهام توضع في عيني بعدها كانت توقد في القلب شمعة الخطيئة! تعرف كيف يمكن أن يجبروك أن ترى نفسك قبيحة كما يرونها؟! كيف يمكن أن تدوي صرخات اتهامهم في أذنيك حتى لا تعود تسمع همس براءتك داخلك؟! كيف يمكن أن يمزقوا كل أثوابك فلا يدعون لك سوى أسمال سوءاتك البالية؟!

«علموني يومًا ألا أنتظر من يمد لي كف المساعدة.. بل أثق بكفي أنا أستند بها إلى أقرب جدار.. لكنهم لم يخبروني أنه حتى كفي قد تخذلني.. أجل الكف الزلِقة تخون.. وهم جعلوا كفي دائمًا زلقة».

كل هذا عشته وأكثر حتى ميزت هذه الخصلة البيضاء في شعري.. قلت لنفسي ساعتها «شبت قبل أواني!».. لكنني كنت أعرف أنها ليست دليل هِرم بل دليل قهر.. والقهر تترجمه روحي تلقائيًا لخطيئة.. أنا ابنة الخطيئة وجاريتها.. فلماذا لا أكون سيدتها؟! هم رجموني بأحجارهم دون خطيئة فوجدت نفسي أرجمهم بخطاياي أنا!

هل يجعلك هذا تفهم سبب ما فعلته بخالتك أرجوان؟! لماذا أعطيت تقرير طبيبها لنعمان ولماذا جعلته يكتبه من قبلها؟! أجل.. أنا التي كنت أشجعها لتهرب بحبها مع صفوان لكنها لما صارت ترفض رؤيتي جعلتني أشعر بنفس الشعور الذي ملأني نحوها أول مرة

رأيتها فيها.. شعور بالغربة.. بالخوف.. ولن أكذب لأقول: وبالحسد! أنا أحب لها الخير لكن وهي أمام عينَي تمسك كفي لكن ليس بعيدًا عني! هل تفهم؟!

هل تفهم لماذا فعلت ما فعلته مع صفوان ذاك بعد اتهام نعمان لي بالفجور؟!

طوال هذه السنوات مع نعمان لم أخُنه.. لم أفكر حتى في مقارنته برجل غيره.. قلبي ارتضاه «عائلة».. ومن مثلي تقدس قيمة «عائلة»؟! لكنه عندما نعتني اليوم بـ «الفاجرة» شعرت وكأن أحدهم طردني إلى الشارع من جديد.. والشارع لا يحفظ حرمة جسد.. كل انتهاك فيه مباح!

لا تحاول أن تفهمني.. أنا نفسي لا أفهم نفسي.. آه.. آه يا ابني.. آه من هذه الحروب التي لا تنتهي داخلي! بتلات زهرة ناعمة تتشاجر مع غابة صبار.. غريب ومفزع هذا الشعور لك ولي أيضًا! أرجو فقط عندما يطول العمر وتكبر بين ذراعيّ رجلًا أتباهى به وأستند إليه أن تساعدني أن ألقي الكيس الثقيل من على ظهري.. لا أدري كيف ستفعلها ولا إن كنت أحمّلك ما لا تطيق.. لكن ما حيلتي يا روح قلبي وقد ضعفت قواي وهو يزداد ثقلًا يومًا بعد يوم؟!

آه يا فرحة العمر الحزين! لعل بشارتي بك قريبة! لعلي أؤنس قلبي أخيرًا بسواد عينيك.. أكحل به عيني.. ومن يدري.. ربما أصبغ به خصلة شعري المغيظة فأقهر شيبها كما قهرني!

أمك.. صابرينة.

أو صبارة كما كانوا يدعونها وكما صدقت أنها تكون».

الغصن الخامس عشر والأخير

«أحيانًا يكون الظلم قناعًا للحق.. بل آخر سبيل للعدالة».

***

طالما بدا لها الشروق من هذا المكان بالذات غريبًا! تبدأ الشمس رحلتها من ناحية البئر القديمة فيهيأ إليها أنها تلقي نظرة على زهور الأمنيات الملقاة في قاعها.. تسخر منها ومن صاحباتها ثم تلتفت إلى بيت الكرملاوي كأنها تعتبره شاهدًا مثلها على الظلم والسكوت، قبل أن تلملم هذه الأمنيات، تكنسها واحدة واحدة لتأخذها معها في رحلتها للغروب، تلقيها في الجانب الآخر من الأرض كأنها تردد سرًّا: «لا أرض للأمنيات تحت غيوم سماء القهر!».

هاهنا بالضبط تمنت أرجوان «الحب»، صابرينة «العائلة»، تيوليب «المال»، وبانسيه «المساواة بشقيقها الرجل»، فتبخرت جميع أمانيهن، ذرّتها الرياح فصارت هباءً منثورًا!

- أنتِ من أبلغتِ الشرطة؟!

يسألها صفوان الذي يتقدم نحوها، ملامحه تنضح بالإنهاك والذنب، فتطرق راوية برأسها مجيبة:

- نعم.. أنا فعلتها عندما عرفت باحتجاز نعمان لتيوليب.. لم يكن أمامي سبيل سوى هذا كي أمنعه من إيذائها.. فلتسِرْ العدالة على الجميع.

- عدالة؟! العدالة لا يعرف نصلها سوى عنق الضعيف.. بينما يبقى

مقبضها دومًا في قبضة القوي.. هذه هي الدنيا! ستنال تيوليب عقاب جريمتها وسيخرج نعمان رافعًا رأسه فاتحًا صدره للمزيد من البطش!

يقولها قانطًا فتهز رأسها لترد بشرود:

- بعد كل هذا العمر أكاد أجزم أن العدالة تجد طريقها دومًا.. ولو في طرق مخفية لا يبصرها الراءون.. ثمة عقاب لا يشعر به الجسد إنما تكتوي به الروح، وثمة مكافأة لا يُتوَّج فيها الرأس إنما يرقص معها القلب، هو حكم القدر الذي يجزينا عن رضانا به رضًا عنه!

يطرق برأسه دون رد فتسأله بتفحص:

- رأيتك منذ قليل تغادر بيت الكرملاوي قبل طلوع الشمس.. ماذا كنت تفعل هناك؟!

يرسم الذنب لوحة مجسمة على ملامحه.. ليس ذنب الخطيئة.. بل ذنب الإهانة! هو ذبح صابرينة حقًّا! ذبحها دون نصل! يستعيد ما حدث بينهما منذ قليل:

- صابرينة.. ابتعدي.. ماذا تفعلين؟! كل أفعالك اليوم مخزية معيبة بل خائنة.. أنا عرفت بالتقرير الذي أعطيتِه لنعمان واستغلالك لمكالمتي معك ضد أرجوان.. أنتِ لستِ في وعيك!

- وهل أبقيتم لي وعيًا؟!

صرختها تنضح بالقهر وهي تلكم صدرها بقبضتها:

- أرجوان التي اعتبرتها شقيقتي طوال تلك السنوات، تأتي اليوم لتطردني، كأنها تهتف بي أنني أنا اللقيطة حقيرة الشأن التي لا تصلح

لصحبتها.. طيبٌ! فلأكن! ونعمان! نعمان الذي ارتضيته حبيبًا وزوجًا يتهمني بالفجور! طيبٌ! لأكن! والآن تراني أنت معيبة خائنة.. طيب! لأكن! ماذا فعلت طوال عمري غير أني كنت انعكاس الصورة التي ترونها أنتم؟! لكنني كنت أحتاط جيدًا.. أؤمن أسلحتي التي يمكنني استغلالها في الوقت المناسب!

- ماذا تقصدين؟!

شكوكه تنحرف به لنقطة لا يمكنه تصديقها وعقله يمده باستنتاج رهيب، لكنها تردف بضحكة عصبية:

- لا تهتم! أنت رفضت عرضي وانتهى الأمر.

- ليس عرضًا بل خيانة! أنتِ التي جعلتِ من نفسك انعكاس صورة الآخرين! أنتِ التي عجزتِ طوال تلك السنوات عن قبول حقيقتك المجردة دون ماضٍ لا ذنب لك فيه!

هُيئ إليه أنه مس داخلها بقعة مضيئة ارتعد معها جسدها، فهمس لها بحذر:

- هاتي مفتاح الغرفة.

صمتت طويلًا لترد أخيرًا و«الأزرق المجنون» في عينيها يتوهج بخطورة:

- كل خطوة محسوبة! تعرف ما الذي يمكنني فعله الآن؟! أصرخ وأتهمك بالتسلل إلى البيت واحتجازي هنا.. بل والاعتداء عليّ.. الخادمة ستشهد معي بذلك.. أعرف أنها هي من سربت لك خبر ما

قلته لنعمان عن التقرير.. لكنها تقدم ولاءها لمن يدفع أكثر.. ماذا بعد؟! خطة مزدوجة تجعل أرجوان تكرهك فلا يعود لها غيري، وتجعل نعمان يتأكد من براءتي وسوء ظنه فيَّ.. وهكذا آخذ حقي منهما معًا.

يزداد انعقاد حاجبيه بقلق، بينما يسمعها تردف وكأنها تعاني حقًّا صراعًا عنيفًا داخلها:

- أو تقبل عرضي.. فأنتقم منهما ومن نفسي كذلك! هيا.. اختر أيها الشريف.

- أفهم كيف تشعرين.. لكن لا تخلطي الأمور.. لا تخرسي الصوت النظيف داخلك.. لا تجعلي الأسوَد اللعين يهزم بياض فطرتك!

من جديد يشعر أنه مس بقعتها الحرجة بصورة أكثر عمقًا، خاصة مع تهدل كتفيها باعترافها:

- لن تكون أول مرة!

- ماذا تقصدين؟! ماذا فعلتِ؟!

يزداد قلقه وهو يشعر أنها تخفي سرًّا رهيبًا يتعلق بأرجوان ونعمان.. ورغمًا عنه تتجه أفكاره إلى نقطة واحدة:

- ناجي! يا الله! إياكِ أن تكوني أنتِ خاطفته! أيمكن أن تكوني قد جرؤتِ حقًّا على حرمان صديقتك من ابنها؟! لماذا؟!

يسقط مفتاح الغرفة من يدها المرتعشة فينحني ليلتقطه بسرعة، يرفع وجهه الممتقع نحوها، يكرر سؤاله عدة مرات دون جواب..

لكنها تلوح بذراعها المفرودة نحو الباب المغلق في إشارة صامتة غير سامحة بالمزيد! ليجد نفسه يهتف بها بازدراء:

- أنتِ تستحقين النبذ حقًّا! ليس بذنب نشأتك ولكن بذنب اختياراتك!

ربما لو كان طعنها بخنجر لما آتت كلماته هذا الأثر المفجع في وجهها حد أنه شعر بالندم وهو يعاود سؤالها:

- هل فعلتِها حقًّا؟! لا.. لا أظنك بهذه القسوة!

- أنا دومًا لست كما يظنني أحد!

- صفوان! فيما شردت هكذا؟! سألتك ماذا كنت تفعل ببيت الكرملاوي!

تنتزعه بها راوية من أفكاره فيهمُّ بالرد لولا صوت وصول رسالة إلى هاتفه.. يقرأها ليقول ببعض الارتياح:

«طبيب أرجوان يخبرني أنها صارت أفضل.. أصرت أن تغادر المشفى منذ قليل».

- وحدها؟!

تتمتم بها راوية بإشفاق كأنها تقر قدر تلك البائسة ليرد بحمية:

- لن تكون كذلك بعد الآن.

يقطع عبارته مع ظهور سيارة نعمان تأتي من بعيد عائدة إلى البيت، يغادرها نعمان وقد بدا قناع جبروته منكسرًا بعض الشيء

لكنه لا يزال يغطي وجهه، فيلتفت صفوان قانطًا نحو راوية، لم يُحاسب على ما فعله بتيوليب إذن! هي ستدفع الفاتورة كاملة.. ما أشبه الليلة بالبارحة!

يلمحهما نعمان من بعيد فيشيح بوجهه وقد فضحت لغة جسده استعداده للابتعاد، لكنه -للعجب- يتوقف قليلًا مكانه قبل أن تحمله خطواته الوئيدة نحوهما فيتحفز كلاهما في وقفته...

- كيف حالك يا راوية؟!

صوته يبدو متشحًا بوهن غير معهود وعيناه معلقتان بالبئر القديمة.

- لم نتكلم منذ زمن طويل يا نعمان.. آخر مرة أيضًا كانت هنا...

- تعرفين؟! رغم أن هذه البئر مقابلة لبيتي فلم آتِ إلى هنا مرة واحدة منذ وقتها.

يرمقهما صفوان بنظرة متفحصة وهو يسمع راوية تجيب بما استنتجه هو:

- منذ أعطيتك رسالتها التي تركتها قبل رحيلها.

قريبتها التي كان يحبها نعمان قبل أن يجبروه على الزواج بابنة عمه لحفظ مال العائلة! لهذا قال نعمان يومًا إنه لا يحب راوية! تذكره بأول وأكبر خطاياه وخسائره!

يهز نعمان رأسه وقد بدا وكأن دوامة الماضي ابتلعته، يتمتم بخفوت:

- طالما كنت أتحاشى النظر إلى هنا عند دخولي أو خروجي من البيت.. هذا المكان يحوي سحرًا غريبًا.. لا أشعر بخطواتي ثابتة عليه بل كأنها رمال متحركة تجذبني داخلها.

- السحر في نفوسنا نحن.. الماضي لا يموت حقًّا.. يده الثقيلة تبقى قابضة على كاحلنا تسمح لنا بالمشي لكن ليس بالهروب فيمضي العمر بنا ولا ننسى أبدًا.

يبتلع غصة حلقه، يبدو وكأنه قد شاخ فجأة، هو الذي كانوا يحسدونه لأن شكله أصغر كثيرًا من سنه!

- ماذا حدث لتيوليب؟!

ينتزعه بها صفوان من شروده وكأنه أعاده فجأة إلى جبروته المعهود، يلتفت نحوه بحدة هاتفًا:

- انتهى أمرها! فتشوا حاجياتها في بيتها القديم ليجدوا بقايا من السم الذي كانت تضعه لآدم وشهد ساعي مكتبه بأنها من حرضته لفعلها.. ثبتت التهمة!

تشعر راوية بنغزة في صدرها فتنكمش قبضتها على صدر ثوبها، فيما يعاود صفوان سؤاله:

- هل اعترفت بكل الحقيقة؟! زواجها بآدم وأمومتها لناجي؟!

- لن تفعل! هي تعرف أي عذابٍ سألقيها فيه بنفسي لو فعلتها! لكن الغبية أبلغتهم عن اختطاف ناجي ولم أستطع الإنكار.

- هل تشك في أحدهم؟! لو لم تكن تيوليب الخاطفة.. فمن؟!

يسأله صفوان بحذر، ليبدو الجواب واضحًا في عينَي نعمان اللتين توجهتا نحو البيت.. كلاهما يحمل الحدس نفسه لكنه يخشى الاعتراف به!

***

يركن نعمان سيارته في مكان بعيد نسبيًا عن البقعة المنشودة، يغادرها ممسكًا بالحقيبة الحاوية للنقود التي طلبها الخاطف...

- تقدم نحو الكوخ الأحمر.

رسالة أخرى على هاتفه يقرأها ليلعن صاحبها سرًّا قبل أن يتقدم أكثر.. شاطئ البحر يبدو له من بعيد.. أمواجه هادئة مغرية تدفعه للتقدم أكثر.. الشمس قطعت شوطًا لا بأس به في غروبها، قرصها يكافح في معركته الأخيرة لكن ها هو ذا يذوب تمامًا.. دماؤه الأرجوانية تخضب رقعة السماء قبل أن يزحف أسوَد الليل الخبيث ليفرض هيمنته على الصورة.

ها هو ذا الكوخ المنشود! كوخ قديم تكسَّر بابه ونوافذه وتآكل طلاؤه حتى بدا وكأنه مشهد من أسطورة مخيفة.

- لماذا تباطأت خطواتك؟! هل أخافك شكل الكوخ؟! ناجي بالداخل.. تقدم...

يزدرد ريقه بصعوبة مع الرسالة الأخيرة التي وصلت لتوها، لا ريب أنهم يراقبونه، لكن من أين؟! من داخل الكوخ أم من خارجه؟! يتلفت

حوله بحذر.. على يمينه الكثير من التباب الرملية الكثيفة العالية بما يعلوها من نباتات تصلح لتكون مخبأً ممتازًا لكن.. أيها؟! لا وقت ولا مجال للبحث! لا بأس.. قريبًا تظهر الحقيقة.. يغمر حفيده في حضنه ويقتص من الجاني!

يتقدم أكثر وعيناه معلقتان بين الكوخ المخيف والأمواج التي تزداد حدة تلاطمها تدريجيًا كلما اقترب.. أو لعلها خفقات قلبه هو ما تزداد ضراوة!

الباب الموارب للكوخ يرقص مع عزف الريح، يتقدم نعمان أكثر حتى يصير على بُعد بضع خطوات.. تتسع عيناه برعب وهو يميز لسان اللهب المتراقص من داخل الكوخ...

- ناجي!

يصرخ بها برعب وهو يتقدم نحو الكوخ، يتراجع رغمًا عنه بخوف غريزي مع توهج النار أكثر، لكن عاطفته تغلبه فيقتحم الكوخ لتلفحه النار، يسعل بقوة وهو يحاول التقدم أكثر لكن قوات الشرطة التي كانت تتبعه تلحق به.. يجبرونه على التراجع محاولين السيطرة على الحريق.

«اشبع بمالك يا نعمان.. لن يفيد حفيدك بعد الآن.. فلتحترق قلوبكم به كما احترق قلبي».

الرسالة الأخيرة تصل إلى هاتفه فيصرخ معها صرخة هائلة وهو يتلفت حوله بجنون:

- من أنت؟!

لا يجيبه سوى الصدى فيعود ببصره إلى الكوخ الذي تضطرم فيه النيران...

- آدم.. ناجي.. آدم.. ناجي...

أجل! في هذه اللحظة لم يكن يرى خسارة ناجي فحسب.. بل خسارة آدم وما بقي منه!

بكاؤه يثير الشفقة وهو يسقط على الأرض جاثيًا على ركبتيه، لا يزال يردد الاسمئن تباعًا كأنه يلفظ معهما روحه نفسها...

- ناجي!

الصرخة الأنثوية خلفه تجبره على الالتفات! ها هي ذي أرجوان تصل مع صفوان وراوية وبانسيه وصابرينة. صابرينة التي تجمدت مكانها وهي تنظر إلى الكوخ من بعيد.. فيما تندفع أرجوان راكضة نحو الكوخ المحترق لا تبالي بنيرانه...

- دعوني.. ابني بالداخل.. لو لم تنقذوه دعوني أحترق معه.. ناجي!

تناديه كأنها تستجدي روحها نفسها، صرخاتها تتعالى كأنها تلفظ آخر أنفاسها، يطوقها صفوان بذراعيه عاجزًا عن منع دموعه محاولًا منعها من التقدم للداخل حتى إنه يضطر إلى حملها حملًا بعيدًا عن الدخان والنار.. لا تزال تصرخ وتصرخ حتى يبح صوتها.. تبدو وكأنها ستستسلم لانهيارها من جديد لكن حتى هذا الآن سيكون رفاهية.. تفتح عينيها بكل اتساعهما كأنها تتلقف أي أثر يشير إلى صغيرها..

بينما ينهض نعمان ليشد صفوان من قميصه هاتفًا:

- لن يموت الولد.. أنت وعدتني أن يقول «جدي نعمان».. لن يرحل قبل أن أسمعها منه.. أبوه حرمني من كلمة «أبي» حتى مات.. لن يتكرر هذا...أنت وعدتني.. وعدتني.

يغمض صفوان عينيه بعجز وهو يشعر بنعمان يرجه مكانه.. نعمان الذي بدا كأنه غاب عن عقله فلا يعرف بماذا يرد هو! لأول مرة ينتابه الإشفاق على نعمان إلى هذا الحد!

- سيخرج.. سينقذونه.. لا يمكن أن ينتهي الأمر هكذا.

تهتف بها راوية بحرارة تريد غرس يقينها في الجميع بينما تنهار بانسيه في بكاء هستيري وهي تتمنى في هذه اللحظة لو بقيت عاجزة عن الحركة فلم تلحقهم إلى هنا ولم تشاهد هذا المصير!

صابرينة؟! صابرينة بقيت مكانها ساكنة كتمثال.. عيناها زائغتان معلقتان بالكوخ المحترق.. ها هم أولاء نجحوا في إطفائه أخيرًا لكن نيران أخرى في صدرها لم تنطفئ بعد!

بعد وقت قصير يخرج أحد رجال الشرطة من الكوخ، تتشبث به عينا أرجوان التي تدفع الجميع لتهتف بالرجل:

- ماذا وجدتم؟!

- هذه ثياب ابنك؟!

يسألها الشرطي بإشفاق مشيرًا للكومة المحترقة، فيرتعد جسد أرجوان وهي تميز شارة معينة تخص سترة ناجي التي كان يرتديها

يوم اختطافه.. وهذا.. هذا حذاؤه!

تترنح مكانها كأن الأرض تزلزلت تحت قدميها.. بينما يرفع الشرطي شيئًا ما أمام أعينهم:

- وجدنا هذا بالداخل.. يبدو أنه سقط من الجاني.. تعرفون لمن يمكن أن يكون ؟!

تشهق بانسيه بجزع بينما يحمر وجه صفوان بغضب هادر، أما نعمان فقد اندفع نحو صابرينة، يعتصر عنقها هاتفًا :

- كنت أشعر أنه أنتِ! أنتِ!

بينما تبدو أرجوان كالميتة وهي ترفع معصمها الذي يزينه سوار بدلاية نصف قلب مكسور، هذا الذي يخلو منه معصم صابرينة الآن! هذا الذي يمسكه الضابط في يده!

يخلص الرجال صابرينة من قبضة نعمان بما يشبه المعجزة فتقف مكانها لاهثة الأنفاس محمرة الوجه تتحسس عنقها المكدوم، تقترب منها أرجوان بخطوات متهالكة، أي كلام قد يقال هنا؟!

- أنتِ قتلتِ ابني.

لو كان للخذلان الذبيح صوت فهو صوتها وهي تلقي كلماتها نحو صابرينة كلعنة أبدية، تتعلق الأعين بصابرينة تنتظر جوابها، لكن عينيها في هذه اللحظة لم تكونا تريان سوى نعمان وأرجوان، تتأرجح نظراتها بينهما ككرة خفيفة في يد لاعب مجنون، وأخيرًا ترفع ذراعها حيث معصمها الخالي من سوارها لأول مرة منذ سنوات طويلة.

لتقول أخيرًا وعيناها في عينَي صاحبتها:

- ما عاد ينفع الإنكار.. أنا.. أنا قتلت ابنكِ.

***

الأخ/ وكيل نيابة «...» مرسل إليكم الأوليات الخاصة بالبلاغ رقم «...»، بتاريخ «...» والخاص بواقعة اختطاف وقتل المجني عليه «ناجي آدم نعمان الكرملاوي»، وذلك من قِبل المتهمة «صابرينة...» وعليه:

تكرموا مشكورين بالاطلاع والإفادة بوصول المتهمة مع المضبوطات المدونة في محضر الحصر والضبط.. وهذه صورة من المحضر باعترافات المتهمة:

فُتح المحضر بتاريخ... /... /....

الساعة...

بمعرفتي نحن «...».

أثبت الآتي:

حيث وردت لنا المذكرة المحررة بمعرفة «...» والقائم بالخدمة والتي تفيد أنه في أثناء وجوده بالخدمة تلقى بلاغًا باختطاف الطفل ناجي آدم نعمان الكرملاوي، وبمراقبة هاتف الجد نعمان الكرملاوي حددنا مكان المتصل وتوجهت قوة إلى المكان حيث عثرنا على الكوخ الذي اختُطف فيه الطفل وهناك وجدنا بعض متعلقاته المرفقة.. وسوارًا خاصًّا بالمتهمة اعترفت أنه سقط منها في أثناء

وجودها هناك قبل حادث احتراق الكوخ.. وبمواجهة المتهمة اعترفت بالآتي:

- اسمك؟!

- صابرينة «...».

- أنت من اختطفت ناجي آدم نعمان الكرملاوي؟!

- نعم.

- وقتلتِه؟!

- نعم.

- لماذا؟!

- في البداية فعلتها لأجل المال وكي أنتقم من نعمان.. طوال هذه السنوات وهو يحتقرني ويذلني.. قلت لنفسي أتلذذ قليلًا برؤيته يعاني.. قلت لنفسي إنها فرصتي لأجعلهم جميعًا يعانون.. هم الذين طالما استصغروا شأني.. لكنني بعد الحادث وجدت سببًا إضافيًا عندما تعالت أرجوان عليّ ورفضت زيارتي لها.. كانوا جميعًا يستحقون الألم.

- تعنين أنك لم تكوني تنتوين قتل الطفل؟!

- في البداية لا.. كنت أنتوي فقط إخافتهم والاحتفاظ بالمال.. لم أكن أتوقع أن نعمان سيبلغ الشرطة من شدة خوفه على الولد.

- ولماذا قتلتِه إذن؟!

- كان هذا هو العدل.. من المؤكد أنكم استمعتم لتسجيلات أبيه آدم الكرملاوي.. هو ارتكب جريمتَي قتل منذ سنوات.. الأولى تخص شقيق صديقة أرجوان والذي رماه أمام القطار.. والثانية تخص طبيبًا كان قد شك هو بجنونه المعهود أنه يغازل أرجوان.. للمفارقة كلاهما رمى أثرًا له في البحر! الأول رمى خلخاله والثاني رمى جثته.. وفي المرتين لم يعاقبه أحد.. أليس من العدل إذن أن يرث ابنه خطيئته ويُرمى في نفس البحر؟! لماذا أرث أنا خطيئة أبويّ ولا يرث ابن الكرملاوي خطيئة أبيه؟!

- كيف قتلتِ الولد؟! لم نعثر على جثته.

- خدرته أولًا كي لا يشعر بشيء ثم ربطت حجرًا ثقيلًا في قدميه ورميته حيث يلتقي بخطيئة أبيه.. هكذا ضمنت ألا تظهر جثته على السطح أبدًا.

- ولماذا دعوتِ نعمان إذن للكوخ؟!

- كي يتوجع برؤيته يحترق وهو يظن حفيده داخله.. ما دمت لم أستطع جعله يرى مشهد موت الولد الحقيقي.

- مَن ساعدك؟!

- ...

- لن تردي؟!

- لا.

- لماذا؟! لماذا تحملين المسئولية وحدك؟!

- لا ذنب لمن ساعدني.. فعلها لأجل المال.. وأنا أعرف جيدًا كيف يحتاج المرء إلى المال فيكون مجبورًا على فعل أي شيء.

- لم تحاولي إنقاذ الولد؟! لم تشعري بالندم؟!

- لا.. ولماذا أشعر بالندم؟! أنا أنقذته من عالم قاسٍ كهذا!

- وصاحبتك أرجوان؟! عرفنا أن أمها هي من ساعدتك وربتك في بيتها مع ابنتها.. لا تشعرين بالذنب نحوها؟!

- لا.. على العكس أشعر أنني خدمتها بشكل ما.. الولد لم يكن طفلًا طبيعيًا.. كان يعاني تأخرًا عقليًا وكان يتعبها في تربيته.. الآن يمكنها المضي في حياتها دون قيود بيت الكرملاوي.. فلتكن هذه خدمتي الأخيرة لها.

- هل لديكِ أقوال أخرى؟!

- لا.

هذا وقد أُغلق المحضر في ساعته وتاريخه...

بعد شهر

تقف أرجوان ساكنة أمام البئر القديمة.. دموعها لا تكاد تجف من على وجهها.. لو كانت قد ظنت أنها قد تُشفى من كل جراح ماضيها، فهذا الجرح النازف الآن في صدرها كيف يلتئم؟!

- أرجوان.

همسه الملتاع خلفها يلقي حجرًا آخر في نهر روحها الراكد، لا تلتفت.. لا تقوى على فعلها وعيناها معلقتان بهوة البئر السحيقة.. فقط صوتها يخرج متحشرجًا كأنين ذبيح:

- لم تعد هناك أرجوان.. لو لم أعش مع ابني فسأموت معه.

- إياكِ أن تؤذي نفسك.. أرجوكِ! فكري فيّ.. أنا أحتاجك معي.. لا قيمة لحياتي دونك.

يهتف بها بجزع وخوفه عليها يكاد يقتله، يمسك ساعديها بقوة لكنها تحرر نفسها منه، لا تقوى على النظر إلى عينيه وهي تهمس:

- لا تحاول! هذه المرة ليست كسابقاتها! رهانك عليّ كان خاسرًا من البداية.. أنا امرأة حطمها كل من زعموا أنهم أحبوها.. خانني الجميع.. امتصوا دمي إلى آخر قطرة.. لماذا فعلوا بي هذا؟! هل أبدو ضعيفة مغفلة إلى هذا الحد؟!

- دعيني أنا أحبك بالطريقة الصحيحة هذه المرة.. أرجوكِ!

ترفع عينيها إليه بنظرة معتذرة، سهام نظراتها طائشة لا تكاد ترسو

على هدف، ارتجافة شفتيها تمنحه ما يشبه الابتسامة لولا خط الدموع الذي ذابت فيه ملامحها، فيهتف محاولًا مواساتها:

- أعرف كيف يمزقك شعورك بالغدر لكن دومًا هناك مكان للمزيد من الدروس في هذه الحياة.. مصابك مفجع لكنني أثق بقوتك.. وبحبي.. بهما معًا يمكننا تكملة الطريق.

ترمقه بنظرة طويلة كأنها تتشرب ملامحه كلها قبل أن تودعه، لتهمس أخيرًا:

- أنت رائع.. رائع حقًا.. لكن لا يمكن أن يكون لنا غد معًا.. لم يبق مني سوى حطام امرأة.. أنا لم أكن أعيش إلا لأجل ناجي.. والآن...

تنهار في بكاء عنيف فجأة فيكاد يغمرها بين ذراعيه لكنها تعاود الابتعاد هاتفة بين دموعها:

- أنت نلت مرادك الأول من دخول بيت الكرملاوي.. اكتفِ بهذا واترك كل ما رأيته هنا خلفك.. لا يزال لك عمر تنتظره أما أنا فلم يعد لي وجود.

- أرجوان.

يهمس باسمها بعجز وهو لا يدري ما يفعله ليخرجها من هذه الهوة السحيقة التي سقطت فيها.. لا يلومها.. ومن يفعل؟! صدقت يوم قالت إن كل من زعموا انهم أحبوها قد خانوها.. ذبحوها بأقسى طريقة! لكنه لن يستسلم.. لن يتركها وحدها أبدًا.

- اتركني الآن.. أرجوك.

- لو كان يمكنني فعلها لفعلت.. ربما لم يبدأ طريقي بكِ لكنه سينتهي معك.

ترمقه بنظرة مهزومة بين امتنان ويأس لتتحرك نحو البيت فيسير خلفها محافظًا على بُعدٍ مناسب بينهما.. لا يزال كعهده يدرك ذكاء المسافة التي تحفظ لها خصوصيتها، وتمكنه من حمايتها متى استدعى الأمر.

لم تكد أرجوان تصل إلى الباب الخارجي حتى فوجئت بالخادمة تهتف بها بنبرة مرتبكة:

- سامحيني يا سيدتي.

ترمقها بنظرة خاوية وهي لا تعرف مقصدها، لكنها تنتبه أخيرًا وهي ترى حقيبة سوداء كبيرة جوار الباب.. تتبين الآن محتوياتها مع هتاف نعمان الذي حوَّله الحزن إلى نمر جريح تخمش أنيابه كل ما تطاله:

- هذه كل أشيائك! لم يعد لك مكان هنا! كل ما كان يربطك بنا قد رحل! اذهبي ولا تدعيني أرى وجهك من جديد!

- ماذا تفعل؟! هل قسا قلبك إلى هذا الحد؟!

يصرخ بها صفوان بغضب وهو يندفع نحوه ممسكًا بقميصه لكن نعمان يهتف به بصوت شيطان حاقد:

- ألا تضع عينيك عليها منذ دخلت إلى بيتي؟! اشبع بها بعيدًا عن هنا!

يلكمه صفوان غير آسف فيرد نعمان بصفعة يتفادها الأول لكن نعمان يدفعه إلى الخارج هاتفًا:

- لا تجعلني أستدعي الشرطة فتخرج مكبلًا بأصفادك.

- تبًّا! ماذا تفعل؟!

تهتف بها بانسيه التي اندفعت نحو شقيقها بغضب وقلبها ينزف ألمًا على أرجوان التي بدت كجثة هامدة ترمق الجميع بعينين زجاجيتين، بينما تسمع نعمان يهتف بحقد:

- دعيهما يخرجان معًا.. كانت وجه الشؤم على البيت كله!

- أليس في قلبك مثقال ذرة من رحمة؟! إلى أين تذهب هي؟!

تهتف بها بانسيه وهي تحاول جر الحقيبة الثقيلة إلى الداخل فلا تستطيع، يمنعها نعمان بصرامته القاسية:

- لا يعنيني! فلتعد إلى الجحيم الذي جاءت منه.

يكاد صفوان يشتعل مكانه محاولًا السيطرة على انفعالاته كي لا تنهار أرجوان أكثر.. لم تعد قسوة نعمان تدهشه على أي حال.. لكن ألا محل للشفقة في قلبه لامرأة كهذه؟! فقدت كل شيء؟! زوجها وابنها وصديقتها؟!

بينما تجلس أرجوان على الأرض باستسلام من لم يعد لديه ما يخسره، كأنها لم تعد ترى ولا تسمع أحدًا، تفتح الحقيبة، تفتش فيها للحظات بأنامل مرتجفة، لترفع رأسها إلى نعمان بسؤالها.. كالعادة لا تعرف اللهفة طريقها لكلماتها الباردة إلا لأجل الغالي:

- أين ثياب ناجي؟!

- وهل سأعطيها لك؟! لولا إهمالك لما ضيعتِ «ابنك»! ثياب «حفيدي» ستبقى هنا في بيت أبيه وجده.. اتركي لي ما بقي منهما!

- يا لجبروتك! حتى ثياب ابنها تحرمها منها؟!

تصرخ بها بانسيه لكنه يجبرها على التقدم للداخل ثم يغلق هو باب الحديقة خلفه، يلحقه هتافه مخاطبًا أرجوان:

- إياك والعودة إلى هنا!

تبقى أرجوان مكانها جالسة على الأرض قبالة الحقيبة المفتوحة، تلتفت يمنة ويسرة كأنها تبحث عن شيء لا تعرفه...

«هذه كل أشيائك».

تدوي في أذنيها كقصف عنيف فتبدأ أناملها في تفقُّد ثيابها...

هل هذا ما بقي من ماضيها؟! من عمرها السابق كله؟!

ترفعها إلى أعلى مدى تسمح به ذراعها ثم ترميها.. واحدة واحدة.. وأخيرًا تفرغ الحقيبة من محتوياتها.. كم تشبه فراغًا هائلًا داخل روحها الآن!

تقف أخيرًا على قدمين مرتجفتين، تسير بظهرها إلى الخلف ووجهها يقابل بيت الكرملاوي، بابه مغلق في وجهها.. وربما بابها هي المغلق في وجهه!

أشجار البيت المسنة تلوح لها مودعة، تعتذر، لم تسقِ تربتها إلا قهرًا

طوال سنوات، ما ذنبها لو لم تستطع أن تظلل يومًا ما عاشقين؟!

الخاتمة

«أما علمت أنه من يولد من رماده لا يمكن أن يحترق من جديد؟!».

بعد عام

- ماذا؟! ماذا جئت تطلب؟!

في بهو بيت الكرملاوي، وتحت الصورة الضخمة للجد الأكبر يهتف بها نعمان بغضب وهو ينتفض مكانه مواجهًا غيث الذي وقف بدوره وقد بدا متوقعًا لثورته:

- جئت أطلب يد بانسيه للزواج.

- هل جننت؟! أم جئت لتمزح معي؟!

- لم يجن.. ولا يمزح.. هو يريد الزواج بي يا نعمان.. وأنا أوافق.

تهتف بها بانسيه بحسم صار يميز شخصيتها الجديدة وهي تتقدم نحوهما، شعرها الذي طالت خصلاته يتراقص على ظهرها وجانبَي وجهها، قرطها بلونه الأحمر يليق باسمها، ثوبها الأنيق بتصميمه الناعم الجذاب يمنح جسدها جمالًا خاصًا و.. الأجمل هذا الشعور الذي يزين ملامحها بزينة فريدة تضفي على طفولتها المحببة أنوثة فائقة.. حورية بحر ما عادت مسترجلة!

يلتفت نحوها نعمان بحدة صائحًا:

- تريدين لنا الفضيحة؟! يتحدث الناس أن ابنة الكرملاوي تزوجت بمن يصغرها عمرًا؟!

- وكأنك لم تفعلها! وليس مرة واحدة بل عدة مرات!

- أنا رجل أفعل ما يحلو لي.. لا يجرؤ أحد أن يحاسبني.

- وأنا امرأة ضاع عمرها بسببك وتريد أن تنقذ ما بقي منه.. هل تجرؤ أن تحاسبني؟!

- هو طامع في مالك! ألا تفهمين؟!

- لست...

يهتف بها غيث بحدة لكن بانسيه تقاطعه بحركة من كفها لتواجه نعمان بقولها:

- أنا لا أطلب إذنك.. قلت فقط أن نتبع الأصول.. لكن ما دام هذا ردك فلا يعنيني منك أي شيء.. اعتدت غيابك عن كل ما يخص حياتي.

تتقلص ملامحها بألم كأنها لتوها تشهد شريط عمر طويل قضته عاجزة صامتة على كرسي ظنته سيرافقها إلى القبر.. وحتى عندما تعافت بقيت فترة تكتم هذا فقط ليقينها أن لا أحد يهتم!

نفس الشريط الذي كان يدور أمام عينيه هو الآخر وهو يشعر بجزء منه يحترق.. جزء عاش يتناساه طوال عمره حتى نسيه حقًّا! إنسانيته! جزء لو كان ينبض الآن لجعله يعانقها، يفرح لها، يتمنى لها السعادة التي حُرم هو منها، يجدد بها فرحة بيت الكرملاوي وينفي عنه أسطورة أشجاره التي لا تظلل العاشقين.. لكن.. للأسف!

- لو فعلتِها فلا مكان لك في هذا البيت.. أتبرأ منكِ.

يقذفها في وجهها قاسية مثله فتشحب ملامح غيث بصدمة وقد كره أن يسبب لها هذا.. لكنها لم تبدُ مصدومة أو متفاجئة.. على

العكس.. ابتسامتها المتحدية كانت أقوى من ذي قبل وهي تهتف:

- لا مكان لي في هذا البيت منذ زمن بعيد.. كان خطئي من البداية أن توهمت أن لي فيه موقعًا.. اهنأ به يا نعمان.. لعله يعوضك ما خسرته!

تتقافز شياطين الغضب على وجهه وهو يراها تعطيه ظهرها، كفها تتمسك بكف غيث تتحرك معه لتغادر البيت فيهتف بها بحدة:

- لن تشمتي بي.. سيعوضني القدر عن كل ما خسرته.. سأتزوج من جديد.. وأنجب من جديد.. هذا البيت سيكون لأولادي وأحفادي من بعدي.

تتوقف مكانها لتأخذ نفسًا عميقًا ثم تلتفت نحوه بقولها:

- أنا أشمت أيها المسكين؟! أحيانًا أشفق عليك.. من مثلك يعيش وحده.. ويموت وحده.. ولو كان حوله العشرات!

يغمض عينيه على غضبه ولوعته لدقائق طالت قبل أن يفتحهما من جديد ليجد نفسه وحده.. وحده حقًّا كما لم يكن من قبل...

***

تزينت حديقة بيت راوية عصرًا استعدادًا للعرس، غصون أشجارها تتدلى منها الشرائط الملونة التي ينعكس عليها ضوء الشمس، تفتح أذرعها لتعانق العروسين والمدعوين و.. الفرحة!

الزغاريد العالية تنافس زقزقة العصافير التي تكدست فوق الغصون على غير عادتها تشارك الجميع بهجتهم، الأعين تتعلق

بانسيه التي بدت بأجمل صورها وهي ترتدي ثوبًا منفوشًا متعدد الطبقات من التل الأبيض وقد انسدل شعرها الطويل خلف تاج لؤلؤي يليق بها، تتأبط ذراع غيث الذي لم يكن أقل بهاءً بملامحه الوسيمة وبدلته السوداء الأنيقة وهذا العشق الأنيق المسطور على جبينه يقسم إنه لن يبلى أبدًا...

يضع غيث زهرة بانسيه حمراء خلف أذنها تليق باسمها فتدمع عينا راوية من الفرحة وهي تضم كليهما إلى صدرها، بينما يهتف صفوان مشاكسًا:

- أخيرًا وجدنا «القفل» المناسب لقلبك الذي كان مفتوحًا دومًا على مصراعيه!

- قفل؟! أنا قفل؟!

تهتف بها بانسيه معترضة، فيقبل غيث كفها معتذرًا نيابة عن صاحبه:

- قفل مستورد ذهبي عالي الجودة صالح للاستخدام مرة واحدة فقط لا ينفتح القلب بعدها أبدًا!

- فن «التثبيت»!

يغمغم بها صفوان بغمزة عابثة لم تمحُ طيف الحزن الساكن في حدقتيه ليضحك غيث وهو يسمع بانسيه ترد بعذوبة:

- تثبيت تثبيت.. أنا راضية!

تضحك راوية بدورها وهي ترى غيث يتوجه ببصره نحو رسم

كاريكاتوري كبير قد عُلِّق على باب البيت في استقبال المدعوين يمثل العروسين رسمَته بانسيه بنفسها.. يتأمله بعبوس ليهتف باستنكار مصطنع:

- لم تسألي عن رأيي في هذا قبل تعليقه!

- ألم يعجبك؟!

- هذا ليس عدلًا.. أنفي ليس مفلطحًا هكذا.. وأذناي ليستا صغيرتين هكذا.. رسمتِني أشبه بفرس النهر بينما رسمتِ نفسك كالأميرات!

تشهق بانسيه بدهشة وهي تدافع:

- من أي زاوية تنظر عيناك؟! هه؟! رسمتك في منتهى الوسامة.. ثم.. ثانية واحدة! ماذا تعني بأنني رسمت نفسي مثل الأميرات؟! «مثل»؟! أوَلست منهن أساسًا؟!

- سجِّل يا تاريخ! أول شجار في حياتكما الزوجية.. بدأتما باكرًا جدًّا!

يصفق بها صفوان مع صفير قصير مشاكس فتضحك راوية وهي تهتف بحنان:

- كفانا الله الشر!

تقولها ثم تقبِّل العروسين تباعًا بينما يضحك صفوان من جديد هاتفًا:

- اطمئني.. غيث لا يتشاجر وهو جائع.

- ولدا!

يهتف بها غيث بابتسامة مستنكرة فيهتف صفوان بنفس النبرة المرحة:

- هل تخجل من العروس؟! لا تستحِ! صارت منا وعلينا! لا ريب أنها لاحظت أن عينيك معلقتان بمائدة الطعام أكثر من تعلقهما بها هي شخصيًا! هيا افتتح «البوفيه» قبل أن تأكل منها ذراعًا أو ساقًا!

تنطلق ضحكاتهم جميعًا قبل أن يندفع المزيد من وفود المدعوين لتهنئة العروسين، فينسحب صفوان ببطء ليخلو بنفسه في ركنٍ قصيٍّ من الحديقة أمام باقة زهور من الأرجوان مهداة للعروسين وبخطٍّ مألوف يعرف صاحبته:

«أخيرًا.. زهرة ناجية من بيت الكرملاوي.. عساكِ وجدتِ شجرة خارجه تفتح أذرعها لتظلل العاشقين».

آه يا أرجوان.. آه! إلى متى يُعذّب قلبي بكِ ومع هذا لا يرجو منك نجاة! أين أنتِ؟! أين أنتِ فآتيكِ ولو حبوًا!

يصرخ بها قلبه دون صوت قبل أن يفاجأ بكف غيث مربتةً على كتفه فيلتفت نحوه بابتسامة خرجت رغمًا عنه شاحبة:

- لماذا تركت عروسك.. بل والأكل؟!

لكن غيث لا يستجيب لمزاحه بل يقول مواسيًا:

- سنجدها.. لا تقلق.. أمي وبانسيه أيضًا كانتا تتمنيان لو تحضر أرجوان الزفاف.. سنعثر عليها قريبًا.. أبشر.

لكنه يهز رأسه متمتمًا:

- معقول؟! بعد كل هذه الأشهر من اختفائها؟! رحلت دون وداع.. دون أن تترك كلمة أو أثرًا أو حتى طرف خيط يقود إليها.

- اعذرها.. واحدة مثلها عاشت ما لا يمكن أن يحتمله أحد.. زوج نرجسي صنع منها مجرد آلة تطيع أوامره وفي النهاية خانها وأجبرها أن تربي ابنًا ليس لها.. ولما تعلقت بالولد حد الجنون كأنه ابنها الحقيقي قتلته صديقتها التي كانت تدعي محبتها.. لا ألومها لو شعرت بالرغبة في الفرار من كل هذا.. إذا كنت أنا إلى الآن لا أصدق أن صابرينة قد تفعل هذا.

يزم صفوان شفتيه وعيناه تتوهجان بوميض مألوف فيهتف غيث بتوجس:

- أعرف هذه النظرة في عينيك.. بماذا تفكر؟!

يطلق صفوان زفرة قصيرة، يلوح بذراعيه قائلًا:

- لا شيء مؤكد.. لكن أشعر أن ثمة شيئًا ما غير طبيعي في ما حدث.. مثلًا.. رسائل المختطف لنعمان.. أي مجرم ساذج يرسل رسالة من هاتف قابل للتتبع؟! كأنه يتعمد أن يصلوا إليه!

- عادي! لم تكن تتوقع أن يتصل نعمان بالشرطة.. وهو حقًّا ما كان ليفعلها لولا تدخل تيوليب!

لكن صفوان يهز رأسه بعدم اقتناع فيهتف غيث:

- صابرينة اعترفت بنفسها بملابسات الحادث.. تظن أن أحدهم قد أجبرها؟!

- لا! صابرينة شخصية قوية لا يجبرها أحد على فعل ما لا تريده.. ما دامت قد اعترفت بشيء فهي قد فعلته حقًّا.

يقولها صفوان واثقًا فيعاود غيث سؤاله بحيرة:

- إذن.. ما الداعي للشكوك؟!

- لا تهتم.. لو كان ظني صحيحًا فالزمن كفيل بنبش قبور الأسرار.. سأجد أرجوان.. سأجدها ولو ضاع عمري كله في سبيل ذلك.

يبتسم له غيث مؤازرًا ليردف صفوان بشرود متحسسًا وحمة خده التي ما عاد يخفيها:

- بالأمس زرت قبر أمي.. شعرت وكأن روحها معي.. هناك منحتها وعدي إن كنت قد خسرتها رغمًا عني فلن أخسر أرجوان هذه المرة!

- ووالدك؟! هل زرته؟!

- مرة واحدة فقط بعدما تأكدت من الحقيقة كي أخبره أنني كنت على حق.. أن قلبي لم يخُنِّي.. آه.. بالمناسبة هل عرفت أن نعمان يقيم حفلًا لزفافه اليوم؟!

يطلق غيث سبة خافتة وهو يتلفت حوله ليهتف بغيظ:

- واحدة من سن أولاده! وهو الذي كان يستنكر زواجي من بانسيه!

الأحمق لم يتعظ من كل ما حدث! بل واختار يوم زفافنا أنا وبانسيه كأنه يتعمد هذا!

فيربت صفوان على كتفه قائلًا:

- مريض! أشعر بالشفقة عليه أحيانًا! بعض الناس تشعر وكأن بوصلة روحه معطلة.. سهمها يشير دومًا إلى الاتجاه الخطأ!

***

يرمق نعمان عروسه النائمة وقد علا ملامحها الرضا بنظرة طويلة متفحصة وهو يتخيل أخرى مكانها.. أخرى خانته أبشع خيانة واقتلعت قلبه من مكانه دون رحمة.. أخيرًا استطاع هو لفظ «قطعة اللادن» خاصتها لكن مذاقها سيبقى يمرر حلقه طوال العمر.. حتى ولو زعموا أنها تنال عقابها.. من يطفئ هذه النار التي تأكل صدره دون هوادة؟!

يغادر غرفة نومهما مغلقًا بابها خلفه برفق.. رفق يناقض هذه الفوضى الرهيبة التي تعيث فسادًا داخله.. يتوجه نحو غرفة ناجي يفتحها ليتفقد محتوياتها.. ها هو ذا صار محرومًا حتى من معانقته ولو نائمًا.. نومته الأخيرة لم يعد يصلح معها عناق!

تدمع عيناه بوجع وهو ينحني ليدفن وجهه في وسادة الصغير، الوحيد الذي سمح له أن يضع عطره، لماذا إذن لم تعد تتشابه الرائحة؟!

يستقيم بجسده وما بقي من قلبه ليغادر الغرفة نحو غرفة

مكتب آدم، تتعالى خفقاته وهو يتذكر ما كتبه آدم آخر مرة، يتناول «الماتريوشكا» كاملة القطع التي تركها خلفه.. يتنهد بحرقة وهو يرفع بصره كأنه يشاهد غرفة نومه التي ترقد فيها عروسه الجديدة.. نظراته ترتعش بين حسرة وأمل يتوجهما غرور لم يغادره رغم كل ما كان.. يهمس أخيرًا:

- لا بأس.. لن تتوقف «الماتريوشكا» عن إخراج المزيد من القطع.

***

تحت شمس حديقتها تجلس راوية مع بانسيه التي مدت لها كفها كي تجدد لها وشم الزهرة، تبتسم راوية بحزن تقرأه زوجة ابنها في عينيها، تسألها:

- ماذا؟! تذكرتِ أخريات غيري؟!

تتأوه راوية بوجع وهي تتذكر ما آلت إليه مصائرهن، تغمغم بأسى:

- تمنيت لو استطاعت البتلة المتمردة التحرر من مصير شبيهاتها.. لو قاومت كل واحدة منهن واستعادت الحق بالحق لا بالظلم.

- تيوليب وصابرينة نالتا جزاء أفعالهما.. لكن أرجوان كانت الخاسرة من البداية للنهاية.. كلهم استضعفوها.. ما كان ذنبها؟!

تومئ راوية برأسها موافقة لترد بحسرة:

- هي الأخرى وددت لو تنتفض.. لو تطالب بحقها وتقف في وجه الجميع.. لو تصرخ في تيوليب أنها هي الأخرى أم ناجي ويحق لها أن تكمل معه المشوار.. لو تقف في وجه نعمان وتطالب بحقها في البيت

وفي إرث آدم.. لو لا تكتفي بمجرد البكاء والانهيار.

- مسكينة! الضربات كانت تأتيها من كل مكان دون رحمة! لو كان جبلًا لانفلق.

تتمتم بها بانسيه بإشفاق ودموعها تترقرق في عينيها، فتتمالك راوية نفسها لتربت على كتفها هاتفة بمرح كي تصرفها عن حزنها:

- دعينا من هذا الكلام الآن يا عروس وأخبريني.. هل لك أي شكوى من العريس؟! أشد له أذنه؟!

فتضحك بانسيه وهي تسترخي في جلستها بهناءة هاتفة:

- أخاف أن أقول إنه يعشق التراب الذي أمشي عليه فأستفز الحماة داخلك!

تلكزها راوية في كتفها بخفة هاتفة بحنانها المعهود:

- وهل عاملتك أبدًا كحماة؟! أنا أم العريس والعروس معًا!

- لا أنكر.. يشهد الله لا أنكر أبدًا.

تمتزج ضحكاتهما الصافية للحظات، قبل أن تتنهد بانسيه وهي تنظر إلى السماء المشرقة ذات الغيوم ناصعة البيضاء، تبدو لها كعرائس تشبهها تمامًا، مفعمة بالحب والأمل:

- من كان يصدق أن يصير هذا بيتي؟! طوال عمري وأنا أشعر فيه بالسكينة لكنني لم أتوقع قط.. نجمي كان يحلق فوقي طوال تلك السنوات لكنني لم أكن أراه!

فتبتسم راوية وهي تضمها إليها قائلة:

- هكذا هو القدر يجيد ضبط عقارب الساعة فلا تتقدم ولا تتأخر عن مواعيدها.. مهما ظن الناس عن اختلاف فروق التوقيت.

أنا الزائف

أنا آدم نعمان الكرملاوي.. الآن أشعر وكأن روحي تحررت من جسدي ترقب المشهد من بعيد.. كلهم كانوا حقيقيين.. ووحدي أنا كنت زائفًا!

كنت لأكون حقيقيًا لو سمحوا لي برؤية أمي وشرحوا لي وضعها، لو اهتموا بعلاجها وجعلوها تدرك أنني أنا ابنها، لو جعلوها تعانقني بكل هذا الحب الذي عشت أجهل معناه...

كنت لأكون حقيقيًا لو عوضني نعمان عن حنانها باحتوائه هو، لو لم يعاملني كقطعة أثاث ورثها في بيت الكرملاوي.. لو رآني ابنه حقًّا وليس خيبة خسارته لحبه الأول وثمن عمره الذي دفعه لزيجة لا يرغبها...

كنت لأكون حقيقيًا لو أحببت أرجوان دون رغبتي في اعتصارها إلى آخر قطرة، في تملُّكها حتى لا تزفر أنفاسها سوى في صدري، لو أخبرتها بكل الميزات الحلوة التي صنعت منها تمثال عشق في صدري بدلًا من معايرتها بعيوب لا ذنب لها فيها، لو لم أخُنها تحت أي زعم أو مبرر.

كنت لأكون حقيقيًا لو ساندت بانسيه خاصة وأنا أشعر أنها مظلومة، لو أمسكت يدها وعبرت بها الظلام، بدلًا من وقوفي العاجز معها فيه نخاف كلانا معًا!

كنت لأكون حقيقيًا لو لم أكرر جريمتي مع صابرينة، لو لم أحرمها

طفلها الذي كنت شاهدًا كم كانت تنتظره، لو لم أبغضها كل هذا البغض الذي دفعها لتفعل جريمتها.

كنت لأكون حقيقيًّا لو لم أعترض طريق تيوليب، لو لم أقحمها في لعبة التحدي بيني وبين نعمان، لو لم أحرمها من ابنها بكذبة كما أدخلتها حياتي بكذبة.

لكنني كنت زائفًا.. عطائي كان زائفًا.. حياتي كانت زائفة.. حبي؟! خوفي؟! غضبي؟! وحدها كانت الحقيقية.. حقيقية جدًّا! كأني عشت عمري طفلًا غاضبًا يخبط رأسه في الجدار، لا يشعر إلا أنه يؤذي.. ويؤذَى!

خسرت أنا.. وفازت أرجوان! فازت كما لم أتوقع قط!

أجادت إدارة اللعبة فانتقمت ممن آذاها.. هربت وتركت الجميع خلفها.. ونالت المغنم الأعظم.. عندما نجت بالذي له من اسمه نصيب.. «ناجي»!

- فيمَ شردتِ يا سيدتي؟!

تسألها الخادمة التي بقيت على وفائها لها منذ سنوات وحتى استطاعت تنفيذ خطتها والهروب إلى هذه الدولة البعيدة.. فتلتفت نحوها من شرودها وهي تربت على شعر ناجي المستقر في حضنها، تأخذه المناظر الطبيعية الخلابة عبر نافذة القطار الذي يحملهم إلى مسكنهم الجديد:

- تخيلت لو كان آدم بيننا الآن.. ماذا كان سيقول؟!

- لا أعاد الله أيامه.. كفانا الله الشر! بالكاد تخلصنا منه ومن كل ما يربطنا به!

تتنهد أرجوان بحرارة وهي تنظر إلى النافذة بدورها فتسألها الخادمة بإشفاق:

- نادمة أنتِ؟! لأنك حرمتِ ناجي من هويته الحقيقية؟! يعني.. جئنا إلى بلد غريب وهو صار يحمل اسمًا غير اسمه ونسبًا غير نسب الكرملاوي؟!

- وهل يُندم على هذا؟! ماذا تعني الأسماء؟! هنا سأربيه بالحب والأمل بعيدًا عن القهر والظلم والقسوة.. لمن كنت سأتركه؟! لنعمان كي يصنع منه آدم آخر؟! كان هذا هو معروف تيوليب الأخير لي.

تقولها وهي تتذكر ذاك اليوم الذي أصرت أن تغادر فيه المشفى مبكرًا عندما علمت من الخادمة أن نعمان قد اختطف تيوليب لكن راوية أبلغت الشرطة، ذهبت لزيارتها حيث يحتجزونها.

- لماذا أتيتِ؟! شامتة فيَّ؟!

قالتها تيوليب بتهكمها المعهود الذي انكسر رغمًا عنها، فهتفت أرجوان بأسف صادق:

- بل مشفقة عليكِ.. كلنا ضحايا بيت الكرملاوي.

- سؤال واحد أسأله لكِ.. بالله عليكِ أجيبيني وأنتِ الأدرى بلوعة الأم.. هل تعرفين مكان ابني؟! أو كيف نصل إليه؟!

ترددت كثيرًا حتى كادت تغادر المكان دون أن تقول شيئًا، لكن

تيوليب استوقفتها بقولها:

- لقد ثبتت تهمة قتل آدم عليّ.. تغيرت كل حساباتي.. لا أعرف ماذا سيكون مصيري.. ربما يكون أفضل ما أفعله لابني الآن ألا أكون له أمًّا.. أن يبقى الحال كما هو عليه.. ناجي ابنك أنتِ...

لا تزال تذكر انهيارها الباكي ساعتها بين ذراعيها، الانهيار الذي شاركتها هي فيه، العجيب أن كلتيهما في تلك اللحظة لم تكن ترى في الأخرى غريمتها، بل شقيقتها في الجرح...

ربما لهذا وجدت نفسها تعترف لها بسرها الأعظم وتفاصيل خطتها، ساعتها ابتسمت تيوليب.. ابتسامة مرتاحة وهي تضمها إليها لتقول بذكائها المعهود:

- خطة ذكية حقًّا.. لكن أولئك حديثي العهد بالتخطيط أمثالك يفتقرون دومًا إلى التفاصيل الصغيرة.. مثلًا.. كيف ستهربين بالولد خارج البلد بعدما تقنعين الجميع أنه مات؟!

ساعتها أدركت هذا النقص في خطتها لتربت تيوليب على كتفها بقولها:

- سأرسلكِ إلى من يمكنه تدبير الأمر لكِ.. لا تخافي، هو محل ثقة.

كادت تغادرها بابتسامة شاكرة عبر عينين مكدستين بالدموع، لكن تيوليب استوقفتها بقولها الذي سكنه الندم:

- لن أوصيكِ بابني فلا حاجة لكِ بهذا.. لكنني أطلب منكِ ألا تحدثيه عني أبدًا.. «التيوليب رمز الحب المنسي أو المهمل».. لا أدري

متى قرأتها أول مرة وكنت أزداد يقينًا بها يومًا بعد يوم.. لكنني في ساعة غفلة أمسكت مشعلي وسرت في كهف الحب طامعةً في كنوز مغارته.. وها هي ذي النتيجة.. أُغلق الباب خلفي وبقيت في ظلمته منسية.. تمامًا كما قالوا عن أسطورة التيوليب. سأنال عقابي على أي حال لكنه لا ذنب له في أن يحمل خطيئتي بحق أبيه.. ابتعدي به عني وعن نعمان وعن كل شيء.. اخرجي به من هذا المستنقع.

- هأنذا قد خرجت!

تهتف بها بصوت مسموع فتلتفت نحوها الخادمة بنظرة متعجبة عما تقصده لكنها تزفر بقوة وهي تلوح بذراعها في حركة منفعلة فيبدو سوارها في معصمها، يسقط عليه ضوء الشمس من نافذة القطار فتنعكس لمعته واضحة...

- لا تزالين ترتدين هذا؟!

تسألها الخادمة بمزيج من استنكار وتفهم فترتبك أرجوان رغمًا عنها وهي تسحب كم ثوبها الطويل تداريه تحته.. تتلون ملامحها بمشاعر شتى تليق بقولها:

- ربما فعلتها لأذكر نفسي ألا أمنح ثقتي كاملة بعد الآن لأي أحد...

تقولها وهي تطرق برأسها غير قادرة على البوح بما يجيش في صدرها.. لعل هناك سببًا آخر يجعلها لا تزال ترتدي هذا السوار.. لعلها تعترف -ولو سرًّا- بمعروف صابرينة الأخير نحوها! يا الله! كيف يمكن أن يجمع شخص واحد مثل صابرينة بين منتهى الإجرام ومنتهى البطولة؟! كيف يمكن أن تشعر حيالها وقد اقتلعت قلبها بإحدى كفيها

لكنها عادت تمنحها واحدًا جديدًا بكفها الأخرى! آه! كيف يمكن أن تشعر نحوها الآن إلا بغاية الكره وغاية الامتنان؟!

تنقطع أفكارها وهي تشعر بالصغير يفتش في حقيبتها بحثًا عن هاتفها فتضحك وهي تلتفت إليه:

- قل.. ماذا تريد؟

يستجيب الصغير متهجئًا حروف كلمات «هاتف» بصعوبة لكنها تعتبرها إنجازًا فتضمه إليها بحنان، تقبل شعره وهي تمنحه الهاتف هاتفة:

- خمس دقائق فقط.

يتلاعب الصغير بالهاتف، يفتح ملف الصور، لتنتبه لإشارة إصبعه الصغير إلى صورته مع صفوان...

- صفوان.

يقولها الصغير واضحة كأنه يناديه فتهتف الخادمة بتأثر:

- يا حبيبي! افتقدتَه؟!

تشعر أرجوان بغصة في حلقها وهي تشيح بوجهها نحو النافذة من جديد! آه لو كانت بهذه السهولة تستطيع أن تشيح بقلبها عن عشقه! لا.. ليست نادمة على الرحيل وترك كل شيء خلفها! هي نذرت ما بقي من عمرها لناجي ووجود صفوان كان ليفسد خطتها بالهروب به!

فليبقَ ما بينهما قمرًا جميلًا ينير لياليها الطويلة لكنه يختفي مع كل

شروق ليذكرها بما صارت تعيش لأجله.. ابنها.. ابنها فحسب!

يتوقف القطار في إحدى المحطات فيتذمر ناجي مطلقًا صرخاته القصيرة المعترضة يريد أن يعود القطار للسير من جديد، فتضمه إلى صدرها تلاعب شعره بشرود، تبتسم وهي تتذكر أول مرة قابلت فيها صفوان...

- كان في القطار أيضًا!

صوته؟! هل هذا صوته؟! صفوان! تشهق للمفاجأة وهي تنتفض واقفة مكانها تترنح من فرط صدمتها لكنه يمسك ساعديها، يعانق عينيها بدفء نظراته، هامسًا بألذ وأدفأ عتاب سمعته:

- حرامٌ عليكِ! آااه! الآن فقط يمكنني أن آخذ نفَسي!

تبتسم الخادمة بتأثر عاطفي وهي ترى ناجي يتشبث بصفوان الذي حمله ليعانقه بلهفة: «افتقدتك يا بطل».

يضحك ناجي ضحكة عالية لم تسمعها إحداهما منذ زمن طويل، تترك له الخادمة مقعدها لتعبر بفرحتها عن حضوره ثم تهتف ببعض المكر:

- سأنزل أنا هنا.. وأنتما أكمِلا الطريق معًا.

- لا خيار لديها!

يخاطب بها صفوان الخادمة بحزم وعيناه تقصدان أرجوان لا تكادان تحيدان عنها، فيحمر وجهها بارتباك وهي تشعر بقلبها يكاد يهوي بين قدميها.. بل بين ذراعيه هو!

- كيف وصلت إلينا؟!

- ألا ينبغي أن يكون السؤال الأول «لماذا لا أتعجب من وجود ناجي بارك الله في عمره»؟!

يسألها بنبرة معاتِبة فتعض شفتها ببعض الخزي ليرد:

- بعد اختطاف ناجي فتشت غرفته.. تذكرت أنك أخبرتني أنه لا ينام دون الميكروفون الذي أهديته له.. بحثت عنه في الغرفة كلها ولما لم أجده استنتجت أن من خطفه يعرف عاداته جيدًا ويريد أن يحافظ له على روتين يومه.. أعترف أنك أول من شككت فيه لكن انهيارك في المشفى ضللني...

تغمض عينيها بأسى وهي تتذكر أيام انهيارها في المشفى فتسمعه يردف بإشفاق:

- انهيارك لم يكن تمثيلًا.. كان انهيارًا حقيقيًا لامرأة عاشت عمرها تسير جوار الحائط كما يقولون وبعد صدمتها وجدت نفسها مضطرة لتحبك خطة وتنفذها.. الكذب صعب لمن لم يعتده.. تمامًا كما قلتِ أنتِ لي بعدها.. كل هذه الضغوط كانت فوق احتمال شخصية بسيطة مثلك.

ترتجف شفتاها بابتسامة تأثر وإعجاب، بينما يداعب هو شعر الصغير ليردف ولا يزال يحتكر نظراتها بعينيه:

- بعدها شككت في صابرينة أول الأمر، خاصة عندما كنتِ ترفضين زيارتها في المشفى، لكنك كنتِ ترددين كثيرًا من قبلها أن كل من

أحببتِهم قد خذلوكِ.. كنت أشعر أن الأمر يفوق حديثك عن آدم.. واستنتجت أنه يخص ماضيًا مخزيًا لصديقتك.. نأتي إلى رسائل المختطف الساذج الذي يترك مكانه غُرضة للتتبع كأنه يريد أن يصل الجميع إليه.. رغم أن تمثيلك وقتها كان مقنعًا للغاية.. لكن عند مواجهتك لصابرينة وقولها «أنا قتلت ابنك»! شعرت أن ثمة شيئًا ما خطأً! بقي هذا الخاطر يؤرقني كثيرًا خاصة بعد اختفائك.. لكنني وجدت نفسي أتساءل فجأة.. ماذا لو لم تكن صابرينة تعني ناجي؟! ابنك من آدم كيف مات؟! ذهبت إلى المشفى الذي قمتِ بالولادة فيه، أحد معارفي دلني على أحد الموظفين هناك.. أسر إليَّ بعد ضغط مني بما لم تعلنه الوثائق الرسمية أن الرضيع كان بصحة جيدة لكنه مات فجأة في الحضانة ثم لا يعرف ماذا حدث بعد ذلك.. ساعتها تذكرت مقولة صابرينة «أنا قتلت ابنك».. واكتملت الخطة في رأسي.. أرجوان الساذجة التي طالما استضعفها الجميع تكتشف فجأة أن زوجها كان يخونها، نسب إليها ابن زوجته الأخرى بعد وفاة ابنها الذي تكتشف أن صديقتها هي من قتلته! فيتحول الأرنب الخانع إلى أسد ينشب مخالبه في وجوه الجميع.. يضع خطته لينتقم من كل من آذوه.

- بعد وفاة آدم وصدمتي فيه فوجئت بإحداهن تطلب مقابلتي في كوخ قديم على الشاطئ، نفس الكوخ الذي داهمته الشرطة ظانين أنه مكان اختطاف ناجي، ذهبت متعجبة فقد كان نفس المكان الذي كنا نختلي فيه أنا وصابرينة عندما كنا نريد أن ننزل البحر دون أن تعلم أمي، هناك رسمنا أحلامنا على الشاطئ، وأخبرت كل واحدة منا

الأخرى بماضيها وأسرارها وأمنيات غدها، لهذا دهشت عندما علمت من المرأة أن صابرينة التقتها هناك لتدفع لها ثمن جريمتها...

- من كانت المرأة؟!

- إحدى الممرضات في المشفى الذي ولدت فيه ابني من آدم.. هل فهمت ماذا فعلت صابرينة؟!

- لهذا تعمدتِ أن تدلي الشرطة على نفس الكوخ في وجود صابرينة؟! كأنك تلمحين لها أنك عرفتِ الحقيقة؟! كان رهانك أن تعترف بجريمة لم تفعلها كي تنال عقاب جريمة فعلتها ولم يعرف أحد.

تومئ برأسها لترد:

- الممرضة شعرت بالندم لهذا جاءت تطلب العفو مني لكنها لم تستطع الشهادة ضد صابرينة أو على نفسها.. كانت لتبقى دون عقاب!

- بعد رؤيتي للخادمة هنا معك لن أسألك كيف وصل سوار صابرينة إلى مكان الحادث.. ولا كيف دلنا الهاتف إلى أن مالكته هي صابرينة!

تتسع ابتسامته بعدها وهو يحك فكه بأصابعه، يسند ذقنه إلى رأس ناجي يخاطبه دون أن يحيد ببصره عنها هي:

- يومًا ما سأعلمك لعبة «صخرة.. زهرة.. مقص» لكن أمك غيرت قواعدها.. الزهرة هزمت الصخرة.. والمقص أيضًا!

ترمقه بنظرة متسائلة عما يعنيه فيتنهد ليقول بنبرة حملت كل تعب الدنيا وكل راحتها معًا:

- فيما بعد.. لا يزال لدينا عمر طويل نحكي فيه الكثير.. ونحن معًا.

صراعٌ هائج على ملامحها لا تقوى شفتاها على الاعتراف به، لكنه يحسمه بهمسه الذي لا يقبل المناقشة:

- ونحن معًا.. لن أعود بحاجة إلى تكرارها فهي الحقيقة الوحيدة التي ستظللنا شجرتها بعد اليوم.

تحميل تنهيدتها استسلامًا لا يشبه الهزيمة.. بل الانتصار، تغوص في مقعدها أكثر كأنما منحها وجوده الأمان الذي تنشده...

ابتسامة عاشقة تتقاسمها شفتاهما بالتساوي وتكتب عقدًا مزدوجًا يوقعه قلباهما في نفس اللحظة.. صمتٌ صاخب يغمرهما دويُّه قبل أن ترفع إليه عينيها بسؤالها بين دهشة وإعجاب:

- يا الله! لا أصدق كيف استنتجت أنت كل هذا! بل كيف وصلت إلينا هنا؟!

فينظر بهيام إلى ثوبها الأبيض كما تمناه كثيرًا، إلى شعرها الحر من شرائطه الذهبية، وإلى ابتسامتها الواسعة التي ما عادت تداريها بكفها خشية أن تُرى أسنانها غير المنتظمة، ثم يغمزها بمكر مرددًا عبارته المألوفة:

- «عيب يا لذيذ.. هو أنا تلميذ؟!».

***

«ابني الذي لم أنجبه بعد.. بل.. ابني الذي لن أنجبه أبدًا.. سيكون

هذا آخر خطاب يمكنني كتابته لك وقد رأيت مصيري مسطورًا على جبين الموت.. أظنك الآن صرت تعرف كيف يمكن أن يرسم الناس مصيرك بما يصرون أن يروه من صورتك.. كيف يمكن أن تكون وحشًا قبيحًا من فرط ما يرددون على مسامعك أنك كذلك!

طالما شعرت أن بداخلي بقعة مضيئة لا تكفي وحدها لأن تنير لي الطريق.. لكنها تجعلني أكره هذا الجانب السيئ من أفعالي!

الآن فقط أستطيع أن أبوح لك بخطيئتي العظمى التي طالما جبنت أن أخبرك أنت بالذات بها.. أجل.. أنا من قتلت ابن أرجوان من آدم!

أعماني حقدي وقتها وقد عرفت أن آدم هو من تسبب بإجهاض طفلي.. قلت لنفسي واحدة بواحدة.. أقتل ابنه كما قتل ابني! تعرف ماذا قال الوغد عندما واجهته أني أعرف بجريمته؟! قال إنه لن يسمح لعديمة نسب مثلي أن تلطخ نسب عائلته؟!

ساعتها أيقظ الوحش داخلي.. أعادني إلى رداء الشوك الذي أصروا دومًا أن يلبسوني إياه!

عندما وضعته أرجوان وسمعت صراخه تخيلتك أنت مكانه.. تخيلت ما حرمني منه آدم بقسوته وجحوده.. أردت أن يتألم كما تألمت.. خاصة وأن نعمان لم يصدقني عندما أخبرته أن آدم هو من وضع لي السم الذي تسبب بإجهاضي.. أي مجرمة كنت عندما فعلتها؟! أي شيطان تلبسني ليدفعني لجريمة كهذه؟!

أقسم لك يا ابني إنني ندمت! ندمت عندما أفقت للحقيقة، أن ذاك الرضيع ليس ابن آدم فحسب بل ابن أرجوان كذلك! كدت أصرخ

وأعترف بفعلتي لولا أن فوجئت بآدم يأتي برضيع آخر ويضعه على صدر أرجوان معلنًا أنه ابنها بعدما اشترى ذمم الجميع بالمال!

ساعتها شلتني الصدمة! هل أخبر أرجوان بالحقيقة؟! زوجها يكذب عليها؟! أم أستر جريمته وجريمتي؟! لا ريب أنك تعلم الآن أنني اخترت الثاني!

يشهد ربي أنني عشت أحترق بهذه الخطيئة.. أحببت ناجي ليس وكأنه ابن أرجوان بل ابني أنا! وعندما كانت الأيام تمر وأنا أنتظرك وأنت لا تأتي كنت أقول: لعلي أعاقَب بذنبي!

لكنني كنت أواسي نفسي بأن ندمي يشفع لي.. وأن القدر سيستمر على كرمه معي فيستر خطيئتي أبد الدهر.. وعندما علمت بخطف ناجي كنت أركض كالمجنونة أبحث عمن فعلها.. كنت لآكله بأسناني حقًّا كي أعيد الولد إلى أمه.. لكنني عندما فوجئت بمداهمة الشرطة للكوخ تجمدت مكاني.. الكوخ! الكوخ الذي شهد عهدي مع أرجوان، والذي لم أجد غيره مكانًا يستر خطيئتي عندما التقيت فيه بتلك الممرضة كي أنقدها ثمن خطيئتي! هل كانت مصادفة أن يكون هو نفس المكان؟! واكتملت الصورة عندما خرج الشرطي بسواري.. ساعتها أدركت من نظرة أرجوان أنها عرفت سري.. ليس هذا فحسب.. بل فهمت خطتها لتنتقم مني وتهرب بالصغير في نفس الوقت.. لهذا منحتها هديتي الأخيرة.. لعلها يومًا ما تعفو عني...

أجل يا صغيري.. أنا أنقذت خالتك من بيت الكرملاوي.. وفيت بوعدي الذي منحته لها.. أن أنتقم لها من كل من آذوها.. وآخرهم أنا!

وهأنذا!

غريبة أنا؟! مزيج لا تقوى براءتك على إدراكه! أنا أيضًا أتعجب من نفسي كثيرًا.. لا أزال أعذَّب بهذا الصراع داخلي والذي يوشك الموت أن يحسمه.

ابني الذي لم أنجبه بعد.. ابني الذي لن أنجبه أبدًا.. هل كنت شيطانة؟! هل كنت ملاكًا؟! لا تسأل فليس عندي الجواب.. عندما يكون الشوك آخر ما بقي من الزهر.. فلا تسأل عن العطر.

أمك.. صابرينة

أو «صبارة» كما كانوا يدعونها وصارت كذلك!».

***

تمت بحمد الله

أكتوبر ٢٠٢٣

سلامٌ لهؤلاء الذين سيتعجبون كم أن هذه الرواية تشبههم! كأنها تنصتت عليهم، سرقت بعض أسرارهم، فضحت غالب مخاوفهم، رسمت بعض أحلامهم بل وربما منحتهم أقلامًا كي يكتبوا النهاية كما يحبونها.. كي يرسموا أشجارًا تعلمت كيف تظلل العاشقين.

نرمين نحمد الله